

محمد سعيد العرابي

حياة الزايفي

الطبعة الثالثة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شارع محمد علي بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وإياه أستعين

فاتح الكتاب

محمود محمد شكر

إِنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِيَ ، فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِيَ
يَرَاكَ قَلْبِي وَإِنْ غَيَّبَتْ عَنِّي بَصَرِي
الْعَيْنُ تَبْصُرُ مِنْ تَهْوِي وَتَفْقِدُهُ
وَنَظَرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ

رحمك الله « أبا السامى » (١) ورضى عنك ، وغفر لك ما تقدم من ذنبك ،
وجزاك خيراً عن جهادك ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

* * *

كتب « سعيد » - لا أخلى الله مكانه وخطي عنه السوء - هذا الكتاب الذى

(١) كذلك كانت كنيته . واسم ابنه البكر : محمود سامى الرافعى ، وإنما سماه
كذلك تشبهاً له باسم الشاعر محمود سامى البارودى ، وإليه كان ينظر فى صدر أيامه .

يسعى بين يديه ، يردُّ به إلى الحياة حياةً استدبرت الدنيا وأقبلت على الآخرة بما قدمت من عمل ؛ وثمَّ الميزانُ الذي لا يخطئ ، والناقد الذي لا يجوز عليه الزيف ، والحاكم الذي لا يقدر في عدله ظلم ولا جور ، والبصيرُ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، قد استوت عنده دُجَّةُ السر ونهارُ العلانية . وقد فرغ الرافعي - رحمه الله - من أمر الناس إلى خاصة نفسه ، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم ، ولو فرغوا لكان التاريخ أوفانا تُطوى على الرمم ، لا أثواباً تُلقَى على الميت لتشره مرة أخرى حديثاً يُؤثر وخبراً يُروى وعملاً يتمثل وكأنَّ قد كان بعد إذ لم يكن .

وهذا كتابٌ يقدمه « سعيدٌ » إلى العربية وقراءها ، يجعله كالمقدمة التي لا بد منها لمن أراد أن يعرف أمر الرافعي من قريب .

لقد عاش الرافعي دهرًا يتصرف فيما يتصرف فيه الناس على عاداتهم ، وتصرُّفه أعمالُ الحياة على نهجها الذي اقتسرتَه عليه أو مهدته له أو وطأت به لتكوين المزاج الأدبي الذي لا يعدمه حتى ولا يخلو من مسَّه بشرٌ .

وأنا - مما عرفت الرافعي رحمه الله ودنوت إليه ووصلت سبباً مني بأسباب منه - أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقصى من أخبار الرافعي كثيراً إلى قليل مما عُرف عن غيره ممن فرط من شيوخنا وكتابنا وأدبائنا وشعرائنا ؛ وتلك يدٌ لسعيد على الأدب العربي ، وهي أخرى على التاريخ ؛ ولو قد يسَّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقاً وفيّاً ينقله إلى الناس أحاديث وأخباراً وأعمالاً كما يسَّر الله للرافعي ، لما أضلَّت العربية مجدَّ أدبائها وعلماؤها ، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسرارِ الأساليب وعلمُ وجوه المعاني التي تعتلجُ في النفوس وترتكض في القلوب

حتى يؤذن لها أن تكون أدبا يصطفى وعلما يتوارث وفنا يتبلج على سواد الحياة فتسفر عن مكنونها متكشفة بارزة تتألق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب الفرج ودواعي السرور وما قبل وما بعد .

والتاريخ ضربان يترادفان على معناه ، ولكل فضل : فأوله رواية الخبر والقصة والعمل ، وما كان كيف كان وإلى أين انتهى ؛ وهذا هو الذى انتهى إلينا من علم التاريخ العربى فى جملة ؛ وعمود هذا الباب صدق الحديث ، وطول التحرى والاستقصاء والتتبع ، وتسقط الأخبار من مواقعها ، وتوخى الحقيقة فى الطلب حتى لا يختلط باطل بحق . وأما التاريخ الثانى فإيجاد حياة قد خرجت من الحياة ، ورد ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح ؛ وضم متفرق يتبعثر فى الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للتأمل ، وهذا الثانى هو الذى عليه العمل فى الإدراك البيانى لحقائق الشعراء والكتاب ومن إليهم ؛ ومع ذلك فهو لا يكاد يكون شيئا إلا بالأول ، وإلا بقى اجتهادا محضا تموت الحقائق فيه أو تحيا على قدر حظ المؤرخ والناقد من حسن النظر ونفاذ البصيرة ، ومساغىه فى أسرار البيان متوجها مع الدلالة مقبلا مذبرا ، متوقيا عثرة تكبئه على وجهه ، متابعا مدرجة الطبائع الإنسانية - على تباينها واختلافها - حتى يُشرف على حيث يملك البصر والتميز ورؤية الخافى وتوهم البعيد ، ويكون عمل المؤرخ يومئذ نكسة يعود بها إلى توهم أخبار كانت وأحداث يخالها وقعت ، ويجهد فى ذلك جهدا لقد غنى عنه لو قد تساوقت إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمعت لديه وألقيت إليه كما كانت أو كما شاهدها من صحبه واتصل به ونفذ إلى بعض ما ينفذ إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان .

وبعدُ ، فإن أكثر مانع رفه من أدبٍ وشعر في عصور الاندحار التي مُنيت
بها العربية يكاد يكون تلفيقاً ظاهراً على البيان والتاريخ معاً ، حتى ليضل الناقدُ
ضلال السالك في نفق ممتد قد ذهب شعاباً متعانقة متنافرة في جوف الأرض ؛
ثم جاء العصر الذي نحن فيه فأبطلت عاميته البيان في الأدب والشعر من ناحية ،
ودلسهما ما أُعري به الكثرة من استعارة العاطفة واقتراض الإحساس من
ناحية أخرى ؛ فإني لأقرأ للكاتب أو الشاعر وأتدبر وأترفق وأترقي ... وإذا هو
عَيبَةٌ ممتلئة قد أُشْرِجَتْ على المعاني والعواطف فلو قُطِعَ الخيط الذي يشدها
لانقطعت كلُّ شاردةٍ نافرةٍ إلى وطنها هاربة تشتد ؛ وبمثل هذا يخوض المؤرخ
في ردغة مستوحلة يتزلق فيها ههنا وثمّ ، ويتقطع في الرأي وتهالك الحقائق
بين يديه حتى يصير الشاعر وشعره والأديب وأدبه أسماً متخرقة بالية يمسح
بها المؤرخ عن نفسه آثار ما وحل فيه !

وقد ابتلى الأدب العربي في هذا العصر بهؤلاء الذين أوجفت بهم مطايا
الغرور في طلب الشهرة والصيت والسماع ، فخبطوا وتورطوا ظلماً سالكها
مغترّ ، وقد كان احتباسهم وإمساكهم عما نصبوا وجوههم له ، واصطبارهم على
ذل الطلب ، وممارستهم معضل ما أرادوه ، وتأنيهم في النية والبصر والعزم
عسى أن يحملهم على استشارة ماركبه الإهمال من العواطف التي تعمل وحدها
إذا تنسمت روح الحياة ، واستنباط النبع القديم الذي ورثته الإنسانية من
حياتها الطبيعية الأولى ثم طمت عليه أدرانُ المدينيات المتعاقبة .

والشعر والأدب كلاهما عاطفة وإحساس ينبعان من أصل القلب الإنساني ؛
هذا القلب الذي أثبت من داخل بين الحنايا والضلوع ليكون أصفى شيء وأطهر

شيء وأخفى شيء ، وليس كل عمل من قريب ليصفيه ويظهره ويسدل عليه من روحه شفاً رقيقاً لا يستر بل يصف ما وراءه صفة باقية بقاء الروح ، ويبرئها من دنس الوحشية التي تطويها في كفن من بضائع الموتى ؛ فأما شاعر أو أديب قال فإنما بقلبه وجب أن يقول ومن داخله كُتِبَ عليه أن يتكلم ، وإنما اللسان آلة تنقل ما في داخل إلى خارج حسب ؛ فإن بكفها أحد أن تنقل على غير طبيعتها في الأداء - وهي الصلة التي انعقدت بينها وبين القلب على هذا القانون - فقد أوقع الخلل فيها ووقع الفساد والتخالف والإحالة والبطلان فيما تؤديه أو تنقله .

وقد نشأ الرافعي من أوليته أديباً يريد أن يشعر ويكتب ويتأدب ، وسلخ شبابه يعمل حتى أمكنته اللغة من قيادها وألقت إليه بأسرارها فكان عالماً في العربية يقول الشعر ، ولو وقف الرافعي عند ذلك لدرج فيمن درج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصروه ، ولو أنه استنام إلى بعض الصيت الذي أدركه وحازه واحتمله في أمره الغرور لحف من بعد في ميزان الأدب حتى يرجح به من بعد من عسى أن يكون أخف منه ؛ ولكن الرافعي خرج من هذه الفتن - التي لفت كثرة الشعراء والأدباء والتقمتهم فمضت فطحنتهم ثم لفظتهم - وقد وجد نفسه واهتدى إليها ، وعرف حقيقة أدبه وما ينبغى له وما يجب عليه ، فأمر ما أفاد من علم وأدب على قلبه ليؤدى عنه ، وبرئ أن يكون ك بعض مشاهير الكتاب والشعراء ممن يُطيح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل القرطاس وللقارئ من قنابله بعد ذلك ما يتشظى في وجهه وما يتطاير ؛ لهذا كان الرافعي من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تتخذ حياتهم ميزاناً لأعمالهم وآثارهم ؛ ولذلك كان كتاب « سعيد » عن حياته من الجلالة بالموضع الذي يسمو إليه كل مبصر ، ومن الضرورة بالمكان الذي يلجأ إليه كل طالب

عرفت الرافعي معرفة الرأي أول ما عرفته ، ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد ، وعرضت هذا على ذاك فيما بيني وبين نفسي فلم أجد إلا خيراً مما كنت أرى ، وتبدت لي إنسانية هذا الرجل كأنها نعمة تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبني واحبه ، لأن القلب هو الذي كان يعمل بيني وبينه وكان في أدبه مس هذا القلب ؛ فمن هنا كنت ألتقي كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثل مني بالأدب وأقوم على العلم وأبصر بمواضع الرأي .

وامتياز الرافعي بقلبه هو سر البيان فيما تداوله من معاني الشعر والأدب ؛ وهو سر حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء ، وسر إحسانه في مهنتها وتديرها وسياستها كما يحسن أحدهم مهنة المال ورَبِّه والقيام عليه ؛ وهو سر علوه على من ينخش في الأدب كالعظمة الجاسية تنشب في حلق متعاطيه ، لا يُبقى عليه من هوادة ولا رفق ، وبخاصة حين يكون هذا الناشب ممن تسامى على حين غفلة يوم مَرَج أمرُ الناس واختلط ، أو كان مرهقاً في إيمانه مُتهماً في دينه ؛ إذ كان الإيمان في قلب الرافعي دماً يجري في دمه ، ونوراً يضيء له في مجاهل الفكر والعاطفة ويسني له ما أعسر إذا تعاندت الآراء واختلفت وتعارضت وأكذب بعضها بعضاً .

هذا ، وقد أرخيت للقول حتى بلغ ، وكنتُ حقيقاً أن أغور إلى سرّ البيان واعتلاقه من العاطفة والهوى في قول الشاعر والكاتب والأديب لأسدّ الرأي إلى مرماه ، وقد يطول ذلك حتى لا تكفي له فاتحة كتاب أو كتاب مفرد ؛ فإن البيان هو سر النفس الشاعرة مكفوفاً وراء لفظ ، وما كان ذلك سبيله لا يتأتى إلا بالتفصيل والتمييز والشرح ، ولا تُغنى فيه جملة القول شيئاً من غناء . وحقيق بمن يقرأ هذا الكتاب أن يعود إلى كتب الرافعي بالمراجعة

فستنبها التفصيل والشرح ، وبذلك يقع على مادة تمده في دراسة فنون
الأسلوب ، وكيف يتوجه بفن الكاتب ، وكيف يتصرف فيه الكاتب بحس
من قلبه لا يخطئ أن يجعل المعنى واللفظ سابقين إلى غرض متواطئين على معنى
لا يجوران فيجاوزانه أو يقعان دونه .

رحمة الله عليه ، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكره ، ونزع إليهم بحنينه ،
وفلج أهل عصره بالبيان حين استعجمت قلوبهم وارتضخت عربيتهم لُكنة
غير عربية ، ثم صار إلى أن أصبح ميراثاً نتوارثه ، وأدباً نتدارسه ، وحناناً
نأوى إليه .

رحمة الله عليه !

محمّد شاكر

تهديد

سمعت اسم الرافعى لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً لا يكاد يفهم ما يلقي إليه ؛ فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسى ؛ فحُبِّبَ إلىَّ من ذلك اليوم أن ألقاه ... ورأيت له لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلاً كبعض من أعرف من الناس ، وكان جالساً وقتئذ في قهوة على الطريق وبين يديه صحف يقرأها ؛ فوقفت هنيهة أنظر إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الماثل أمامى هو الشخص الذى أعرفه فى نفسى ...

وقرأت له أول ما قرأت ، نشيده المشهور « اسلمى يامصر ... » ، ثم دفع إلىَّ صديق من أصدقائى كتاب « رسائل الأحزان » .

كنت يومئذ فى بكرة الشباب ، فى تلك السن التى تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدحم بالأمانى وقلب مملوء بالثقة ، ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست فى دنيا الناس ، ويجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطوياً على آلامه !

واستهوانى عنوان الكتاب الذى دفعه إلىَّ صاحبي ، فتناولته أقلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » (١) ؛ فإذا شعراً عذب يخالط النفس وينفذ فى رفق إلى القلب ؛ فأخذت أعيدها مرة

ومرة ؛ فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة . وحَبَّبَ إلى هذا الشعرُ
الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية ؛ لعلنى أستدرك ما فاتنى
من معانيه وأدخر لِنَفْسِي قوة من سحر بيانه وصدق عاطفته . وعدت إليه أقرؤه
قراءة الشعر : أفهمه بفكرى ووجدانى ، وأنظر فيه بعينى وقلبى ؛ فإذا الكتاب
يكشف لى عن معناه . . .

وأحببت الرافعى من يومئذ ؛ فرُحْتُ أتبع آثاره فى الصحف وفى الكتب ؛
لا يكاد يفوتنى منها شئ ، وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ؛ ولكنى
لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين . . .

كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٢ وقد قصدت إليه فى داره مع وفدٍ ثلاثةٍ
نسأله الرأى والمعونة فى شأن من شئون الأدب ؛ فلقيتنا مرحباً مبتسماً وقادنا
إلى مكتبه ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفى تلك الغرفة التى تتنزل فيها عليه الحكمة
وُيَلَقَى الوحي جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث لا نكاد نشعر أن
الزمن يمر . . .

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب فوقه تحجبه عن عيني محدثة ، وعن
يمينه وشماله مناظرة قد ازدحمت عليها الكتب فى غير ترتيب ولا نظام ، تطل
من بين صفحاتها قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد أو أن له عند
بعض موضوعاتها وقفات سيعود إليها ، وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب
المتراصة لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛
فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة . وطال
بنا المجلس حتى خشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهمنا بالانصراف ، فإذا

هو يطلب إلينا البقاء ، ويرجونا ألا نغيباً مجلسه ؛ وعرفت الرافعى عرفاناً تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفنى هو أيضاً فأصفانى عطفه ومودته .

وجلست إليه فى الزورة الثانية وبين يديه صحف ، فدفع إلى صحيفه منها كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة للشاعر خليل مطران بك ، فطلب إلى رأى فى القصيدة ؛ ولم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركنى فى لذة عقلية وجدها فى هذا الشعر ، فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ، وتناول الصحيفة منى ليرى اختيارى ورأى فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرنى ، ولكنى - والحمد لله - نجحت فى الامتحان قدراً من النجاح !

وتكرر هذا الاختبار وهو لا يحسبني أدرك ما يعنى ؛ على أن إدراكى هذا قد جعلنى من بعد أكثر تدقيقاً فى اختيار الحسن مما أقرأ . وأولانى ثقته على الأيام ، فكان على أن أقرأ أكثر ما يهذى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يعنيه أن يقرأ منها ، وأدع ما لاجدوى عليه من قراءته ضناً بوقته وكنت أنا أكثر رجحاً بذاك !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأنى لست وحدى ، وكأن روحاً حيية تطيف بى وترف حولى بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ ولكنى لا أرى ، ولكنى لا أسمع ، ولكنى هنا وحدى ، تتغشانى الذكرى فتخيّل إلى ما ليس فى دنياى ...

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العريية ، لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان ، لقد كان هنا قلم يصصر صريراً فيه رنات المثانى وفيه أنات

الوجع ، وفيه همسات الأمانى وفيه صرخات الفزع ، فيه نسيج البكاء وفيه
موسيقى الفرح . . . خفت الصوت ، ومات الإنسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن
قلب الشاعر مازال حيا ينبض ؛ لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء !

وجاءنى نعى الرافعى فى جريدة « البلاغ » بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو
سنة ١٩٣٧ فغشيتنى غشية من الهم والألم سلبتنى الفكر والإرادة وضبط النفس
فلم أكد أصدق فيما بينى وبين نفسى أن « صادق الرافعى » الذى ينعاه الناعى
الساعة ، هو الرجل الذى أعرف ويعرف الناس ، ودار رأسى دورة جمعت لى
الماضى كله بزمانه ومكانه فى لحظة فكر ، وتتابع الصور أمام عيني تنقل إلى
خيال هذا الماضى بألوانه وأشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه ، من أول يوم
لقيت فيه الرافعى إلى آخر يوم جلست فيه إليه . . .

وعدت إلى النعى أقرؤه وفى النفس حسرة والتىاع ، فما زادتنى قراءته شيئاً
من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعى قد مات !

حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصب انصباباً فى نفسى ، وأن صوتاً من الغيب
يتناولنى من جهاتى الأربع يهتف بى ، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفنى ساعتئذ
لتملى على شيئاً أو تتحدث إلى بشيء ، وكأن عينين تطلان على من وراء هذا العالم
المنظور لتأمرانى أمراً وتلهمانى الفكر والبيان ، هما عينا الرجل الذى أحبيته
حباً فوق الحب ، وأخلصت له وأخلص لى إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس ،
ثم نزع الشيطان بينى وبينه فقارقه وفى نفسى إليه نزوع وفى نفسه إلى ، فلم ألقه

من بعدُ إلا رسماً في ورقة مجللة بالسواد . . . !^(١)
وعرفت منذ الساعة أي واجب عليّ لهذا الراحل العزيز .

* * *

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له في حياته واجباً ولا اعترفت له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينهبها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضى هو مقامه منها غريباً معزلاً عن الناس ، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف ، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأ كثرون ؛ وهو ماض على سنته سائر على نهجه ، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حيطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ، ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف في وجهه ؛ كأن ذلك « فرض عين » عليه وهو على على المسلمين « فرض كفاية » ؛ وأحسبه قال لي مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من

(١) كان بيننا مغاضبة باعدت بيني وبينه بضعة أشهر ، بعد فراغي من إخراج الطبعة الأولى لكتاب « وحي القلم ، آخر كتبه ، وقد أنكر مني - رحمه الله - أن أجفوه ، وشكاني إلى الصديقين الكريمين : أحمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، ثم لم يقدر لنا أن نلتقي بعد الخصام حتى بغتة الموت .

القرآن بسوء التأويل ؛ « من تراه يابني يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي ؟ » (١) وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التي هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً في بطون الكتب حيناً وفي أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسرارهِ فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجَدَّ على الإسلام معاني لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل « تطوُّر الفكرة الإسلامية » في هذا العصر . فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعي ، فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ، ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذي كان ولن يكون لها مثله في الدفاع عن دينها ولغتها ، وفي النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة في هذا العصر . ولقد يكون في العربية اليوم كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي : لا يترخص في دينه ، ولا يتهاون في لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول في هذا الدين أو في هذه اللغة حتى يردّه من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت ؟ ...

لقد حاول كثير من مؤرّخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي في حياته ؛ فقالوا شاعر ، وقالوا كاتب ، وقالوا أديب ، وقالوا عالم ، وقالوا مؤرّخ . ولكنهم

(١) كان الذي كتب إليه في ذلك صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر ، وكان كاتب المقال الذي يعنيه بالرد ، هو السيد حسن القاياتي ، وكان محرر وقتئذ في جريدة « كوكب الشرق » وسنتناول موضوع هذا المقال بعد ، وانظر فيما يلي : الفصل الذي جعلنا عنوانه « فترة جمام » .

لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن يقال . لقد كان شاعراً ، وكاتباً وأديباً ،
وعالمًا ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر
والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية
المسلمة في هذا الزمان ، لينبئها إلى حقائق وجودها ، وليردّها إلى مقوماتها ،
وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتي تعتز بها
ولا تعمل لها .

يرحمه الله ! لقد عاش في خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ،
وصل بها حاضرها المائل بماضيها البعيد ؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون
ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب ، وفصل بعنوانه في
مجد الإسلام !

لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير
زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ، يُذكر الأمة
العربية الإسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .
لقد خفت الصوت ، ولكنه خلف صداه في أذن كل عربي وفي قلب كل
مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام !

وبعد ، فماذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف ؟ هل يعرف الناس
إلا ديوان الرافعي ، وكتب الرافعي ، ومقالات الرافعي ؟ ولكن الرافعي الذي
يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك ، فماذا يكتب عنه الكتّابون غداً
إن أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية ؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمري في كتبه ومقالاته فما عرفته العرفان
الحق ، وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته ، وخلطته بنفسي وخلطني
(٢ - حياة الرافعي)

بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسه من قبل ومن بعد
أفتراني بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤدى به بعض ما على من
الدين للعربية وللفقيد العزيز ؟

. إنني لأحس عبئاً ثقيلاً على عاتقي لا طاقة لي بأن أحمله وليس على أحد غيري
أن يقوم به . ولقد كتبت منذ عامين - قبل منعاه - شيئاً عن الرافعي يعرّفه إلى
قراء مجلة « الرسالة » ، فما أحسبني لقيت في ذلك من الجهد إلا بمقدار
ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛ على أن الرافعي كان يومئذ حياً ، وكنت
أحذر أن يغضب أو ينالني منه عتب ؛ فكيف بي اليوم والرافعي بعيد في العالم
الثاني ، والكلمة ، للتاريخ ، ووسائل العلم من قريّة ؛ ورسائل الأدباء ترى
تستجزي الوعد وتقتضيني الحق الذي عليّ للأدب والعربية ، وصوت الفقيد
العزيز يهتف بي حيثما توجهت . « إن لي عليك حقاً وإن للأدب عليك . . . » .
ولكني ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفي الشعور بالعجز ، فأكاد أوقن أنه
لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه ، ولكن الرافعي قدمات
أيها الحبيب العزيز الذي ما زال من كثرة ذكره كأنني منه على ميعاد . . .
معذرة إليك !

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعي ؛ فلا ينتظر أحد مني - في هذا
الكتاب - أن أتكلم عن الرافعي الشاعر ، أو الرافعي الكاتب ، أو الرافعي
الأديب ، أو الرافعي الفيلسوف ؛ فما يتسع له يومي ، وما يرضيني عن نفسي
ولا ينفعني بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيات الكثيرة التي اجتمعت في حياة
إنسان ؛ ولكني سأكتب - هنا - عن الرافعي الرجل الذي عاشته زمناً ، ونعمتُ

بصحبه ، و خلطته بنفسى ، وتحدث قلبه إلى قلبى ، وتكاشفت روحه وروحي ؛ سأكتب عن الرافعى الذى عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت : محاولاً أن أجمع شتات حياة تفرقت أخباراً وأقاصيص ونوادير على لسان معاصريه ، أو غابت سرّاً فى صدور أهله وخاصته ؛ أما الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف ؛ فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب ، وسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلّ أن أوفق فى البلوغ إلى ما قصدت . وإنّى لأتهم نغسى من كثرة ما أحب الرافعى أن أتخيف الأدب لو بدالى فى هذا التاريخ أن أقول : هذا رأي . ولكنى سأقول : هذا ما رأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات ، فسيبلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعى منذ قريب إنساناً حياً بعواطفه وأماله وحبّه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا على اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشرّاً ؛ فإنما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يحابى ولا يحتسب ، وستمرّ بى فى تاريخ الرافعى حوادث وأسماء سأصفها وأعترف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأما كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذى شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمة ، فلا يشكر ولا يتعتب ؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه . . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ما هو آت ؛ وما أحب أن يقول لى أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هذا الذى أكتب رأى أراه ، ولكنه رؤية رأيها أو رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعها .

إن التاريخ الأدبي للرافعي يبدأ من سنة ١٩٠٠ ، وتاريخ ميلاده قبل ذلك
بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتى بالرافعي إلا سنة ١٩٣٢ ؛ فما كان من هذا
التاريخ فسأرويه من غيب صدرى أو مذكراتى وعلى تبعته ، وما كان من قبل
فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدين وخلصائه منذ صباه ، أو كان مما قصه
على أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه .
فهذه مصادر على أقدمها بين يدي هذا الحديث ، ليعرف قارئه أين مكانه من
الصدق ومنزله من الحق ؛ على أن الذاكرة خثون ، وما يمر على فكر
الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط
في معلوماته شيئاً بشيء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أنى
تصرف فيه بنقص أو تغيير أو تبديل ، فليجعلنى عنده بمنزلة من حسن الظن ؛
والله أسأل أن يحبنى الخطأ ، وأن يوفقنى فيما أنا بسبيله .

محمد سعيد العربي

القاهرة في { ربيع الأول سنة ١٣٥٧
مايو سنة ١٩٣٨ }

صورة

كان الرافعى رجلا كبعض من ترى من الناس ؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليلح له امتيازاً فى الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته .

بل لقد يشك الناظر إلى وجهه فى أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سام !

وجه مسوح مستطيل ، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمرة أهل مصر ، فى وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله فى شفثيه ؛ وله عيان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس ، فما ترى لهما بريقاً فى عيذك ولا تسمع لهما همساً فى نفسك ؛ وجهه عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعاً ما ، ثم تبرز مقوسة قليلاً إذا اقتربت من فروة الرأس ؛ وأذنان فيهما كبر ما ولكنهما لا تؤديان عملاً ولا تنقلان إليه معنى ، ومن ذلك كان قليل التلفت فى مجلسه ؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله . وكأنما صنعت له شفثاه ابتسامته الدائمة ، فلا ترى فيه مغلقاً أبداً إلا رأيت كأنما يحاول أن يحبس ابتسامته هاربة ، وتحمل شفثه شارباً كثيفاً أشبط ، تحيفته الأيام من أطرافه فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ...

وصوت عال رفيع التبرات ليس له لون ولا معنى ، تسمعه على أى أحواله كما تسمع صراخ الطفل : له عذوبته وتطاريه ، ونغمة الحزن ونغمة الفرح عنده سواء ! وقامة رياضية متناسبة بريئة من الفضول ، لا يشينها طول ولا قصر ، ولا سمن ولا نحافة .

وكان أشبط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين عريض المنكبين غليظ العنق قوى الكف والساعد ؛ مما كان يعالج من تمرينات الرياضة .
تلقاه في الطريق في يده عصاً لا يعتمد عليها ولكنه يهزها في يمينه إلى أمام ووراء ، ويتأبط يسراه عديداً من الصحف والمجلات والكتب ، ماشياً على حيد الطريق لا يميل ، واسع الخطو لا يتمهل ، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهيم باجتياز الطريق .

تلك صفاته الجسمية التي واراها التراب كما لا تزال في ذاكرتي ، أما صورته العقلية ، أما حياته ، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال ؛ فذلك ما سأجلوه في الفصول التالية إن شاء الله .

نسبه ومولده

الرافعي سوري الأصل ، مصري المولد ، إسلامي الوطن : فأسرته من « طرابلس الشام » يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ؛ وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجدته والأكثر من بني عمه وختولته منذ أكثر من قرن وهو في وطنيته « مسلم » : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : وطني ؛ فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية ... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية ... » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه داري من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم : هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر ، ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد .

وكثيراً ما كانت تشور الخصومات بين الرافعي وبعض الأدباء في مصر^(١) ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه في وطنيته ، أعني مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه في ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ؛ ثم يقول : أفترأهم يتهمونني في مصريتي لأنتي في زعمهم غير مصري وفي مصر مولدي وفي أرضها رفات أبي وأمي وجدتي ، أم كل عيبي عندهم في الوطنية أنتي صريح النسب ؟ ... وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟ ومن أين مقدّمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

(١) هو الكاتب سلامه موسى .

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقهاء في الدين . وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان العثماني في الأستانة ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الإمام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يُعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة و غلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة^(١) ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة ، حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية . وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر . ومن تلاميذهما الأديين المرحومان الشيخ محمد البحر أوى الكبير والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق .

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر أحد من ولده ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد فها منهم إلا من له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ، وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحداً وسبعين ولداً وبناتاً ، وقد مات المترجم وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد عشر ولداً وفتاة ، افترط منهم واحدة في سنتها الأولى وخلف عشرة !

ولما توفي المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية في مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الإفتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرُّج وخشية ، فلم يجد في نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل في الخصومات بين الناس ... فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه همٌّ ، وهو يدعو الله ألا يتول إليه هذا الأمر ضئلاً بدينه ومروءته ... وتمت مراسيم التولية وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الخوذي ليفتح له العربية ويساعده على النزول ، فإذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقتضى في شئون العباد ... واستجاب الله دعاءه ... !

وأبو الأستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد الرازق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرازق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفي طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه ، وفيها مات ودفن ، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعد في بيت أبيهم ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لا يعرفون لهم وطناً غيرها ولا يرغبون عنها حولاً . ولقد حاولت وزارة العدل (الحقانية) أكثر من مرة أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسعى سعيه لإلغاء هذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذي فيه رفات أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوي (١) .

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوي ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة ، وكان الرافعي إذا أمَّ مسجد السيد البدوي للصلاة اتخذ =

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة في الدين وشدة في الحق ،
ما برح يذكرهما معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثاً ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعي
من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في متجر جاره
وصديقه المرحوم حسن بدوي الفطاطري ، في شارع درب الأثر ، ودرب الأثر
يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففي عصر يوم من رمضان ،
كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فتر به رجل ينفت
الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى
اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطي أن يسوقه إلى « القسم »
لينال الحد على إفطاره في رمضان في شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل
ولا شفاعاة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم في (زفة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ
حدّه بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ، ولكن الشرطة ما كانوا
ليخالفوا أمر قاضي المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام ،
وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون ، وأحسب أن هناك
صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب

= مجلسه تحت (القبة) فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وعيناه مسبلتان ؛ فإذا
فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضي وماتزال شفاته
تتحركان بكلام . . . وكان بيت آل الرافعي القديم في طنطا قريباً من مسجد السيد
البدوي ، في حارة سيدي سالم ، وهي حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوي
أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ بضع مئات من السنين ، وكانت إلى عهد قريب
هي مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوي واللائذين به .

الشافعي ؛ وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة ، فقال : لا أدري ، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول ما عرف من هذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم :

والأستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته ؛ ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتد به ويأخذ برأيه في كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كآبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخي ما تزال معروفة هناك ، على أنه كان قد اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي ، وكانت إقامته في بهتيم من قرى مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في يناير من سنة ١٨٨٠م^(١) ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها في دار أبيها .

وكانت أم الرافعي تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدوها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت في أسبوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا .

(١) لا نعرف للرافعي (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد التي بماف خدمته في وزارة العدل (الحقانية) هي لآخيه المرحوم محمد كامل الرافعي ، وقد كنت أحسب مولده في سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يذكر فيها أن تاريخ ميلاده في يناير سنة ١٨٨٠ فيها أخذت هنا

علم وثقافة

لأسرة الرافعي ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه. والقرآن والدين هما المادة الأولى في هذه المدرسة العربية التي تدير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١). وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . ف قضى سنة في مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، فسال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل .

ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدي خليل المفتش بوزارة المعارف (٢) ، وكان يدرس له العربية ، وكان الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة ، فكان الأستاذ مهدي يسخر منه قائلاً : يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيري وغير الله يقرأ خطك ، وقد ظل خط الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه .

(١) كان الرافعي يتخذ في بيته امرأة قارئة حافظة . تقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن في وقت فراغهم من المدرسة وتقيم السننهم في تلاوته .
(٢) توفي سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعى وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبني مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم - وما أكثر ما كان يصحبني إليه إذا هبط القاهرة - وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقى نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعى يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للرافعى حديث محدثه كتابة فى ورقة ، وإنا كذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب فى مسارب ، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعى واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل ، يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعى يطأطئ له وينحنى بهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فقال على يقول فى همس : « هذا أستاذى مهدى خليل ... ، وكان فى صوته رنة هى أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يسيراً إليه ... ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يُغنِ بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعى طول اليوم .

وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية - وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية - أصابه مرض مُشَفِّ أثبتته فى فراشه أشهراً - وأحسبه كان التيفويد فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثراً كان حاسةً فى صوته ووقراً فى أذنيه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء 'توقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى

يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو ... فإن صوته ليتضاءل شيئاً بعد شيء ، حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعتها الأخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة في جبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معا ، فوقف الداء عند ذلك ، ولكن ظنت في خلقه حيلة تجعل في صوته رنيناً أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحييت أن تكون قهقهة ...

وكانت بؤادر هذه العلة التي أصابت أذنيه هي السبب الذي قطعه عن التعليم في المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه وكان هو فيها المعلم والتلميذ .

وحظ الرافعي من الشهادات العلمية مثل حظ أبيه ، فإن الشيخ عبد الرزاق الرافعي على علمه ونضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للحكمة الشرعية في كثير من الأقاليم - لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف علمي بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ، فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لنير غرض تسعى إليه إلا أن يستكمل براهيته في جدال بعض العلماء .

وكان لأبي الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نواذر كتب الفقه والدين

والعربية ؛ فأكب عايتها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيهِ ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . . . وكان له من علته سبب يباعده بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى 'مجالسة أحد . . . وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه . . . وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية . . . وكان 'يعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث . . . وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس ، فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس . . . وفاته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث . . . وقال لنفسه : إذا كان الناس 'يعجزهم أن 'يسمعونى فلا 'سمعوا منى . . .

وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجزُ بوسائله ليكون أديباً من أدباء العربية فى غد . . . !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه هى دنياه التى يعيش فيها : ناسها ناسه ، وجوؤها جوؤه ، وأهلها صحابته وخلانها ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمَّارها ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فمألفهم ؛ فنشأ بذلك نشأة السلف : يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفّه أفراحهم ، وتترأى له أحلامهم ومناهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً لفخشان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم - فإن حظه من العامية المصرية

كان قليلاً ، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيري من خاصته ،
عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يقع له من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة
الأدبية إلى شيء من ذلك ، وكان يمزح معي أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لي
قاموس العامة . . . » .

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما في سورية ، وكان لم يسمع أكثر ماسمع
في طفولته إلا منهما - فإن لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر
أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية
فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سوري ، ولكنه كان بلغته ولهجة حديثه
هو وحده النخبة على هذا الأصل وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم يجد على الرافعي معرفته الفرنسية إلا قليلاً أو أقل من القليل (١) ، فمذ
انتهى من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها
بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير
لقاء ؛ على أنه كان يأسف أحياناً على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها في وقت
فراغ ؛ وهيئات أن يجد مثل الرافعي فراغاً من وقته !

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل على هذا الدأب في
القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة
لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل
منه إلى غاية .

(١) كانت اللغة الأجنبية في مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هي
الفرنسية ، ولم تدخلها الإنجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج
التعليم .

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلا يحياه ويستمتع لما يقوله ، ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ ... » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمتع الضيف ، فلا يكفّ عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمرّ في القراءة ...

وفي القهوة ، وفي القطار ، وفي الديوان ، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الإياب (ملازم) من كتاب أيّ كتاب ليقرأها في الطريق . وفي القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الإمام عليّ ، وكان لم يبلغ العشرين بعد ...

في الوظيفة

في أبريل سنة ١٨٩٩ عُين الرافعي كاتباً بمحكمة طلمخا الشرعية ، بمرتبة شهرى أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية ؛ وما كان الرافعي ليجعل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعى ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال في وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤذيها إليه عملاً أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى ، ولمكانته هو أيضاً ... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ ... هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم ...

وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة ؛ فمنها مَعْدَاه وإليها مَرَّاحِهِ في كل يوم ، يتأبط حقيبته فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء في الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يُعينه على العيش ، ليفرغ لنفسه ويُعِدَّها لما تهيات له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافعي في طلمخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهداً

وأكثر أجراً : وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعي في طنطا وإيتاي البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ، وتاريخه في الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته الأدبية ؛ ففي طنطا عرف الكاظمي شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود على ما سيأتي تفصيله ؛ وفي إيتاي البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى « جسر كفر الزيات » فيما بين إيتاي البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون « شاعر الحسن » من بعد ؛ وفي طنطا كان نضجه وتماجه وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ؛ ولكني أعرف أن روحا رفاقة كانت تطيف به في تلك الأيام فتنزعه من وجوده الذي يعيش فيه لتحلق به في أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها ، فتوحي إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره في الأدب ، وإليه كان آخر ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

وعرف حبيبته الأولى « عصفورة » فتعلم الحب ، ولكنه لم يتعلم مما يسمع في مجالس الشبان كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التي يتداولونها في مجالسهم فيتعلمون الحب منها فنًا له قواعد مرسومة وغاية محتومة ... ولكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع في همسات روحه ، وخواجات وجدانه ،

وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة
شائقة مما قرأ من أخبار العُذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه
فراح يفتقده ، وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة
نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى ... فهام بالحسن يُنشده شعره وينشد
فيه مثاله الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل
زهرة : أنت التى ... ؟ فلا يستمع إلى جواب ، والصوت البعيد دائب يهتف فى
أذنيه : إتنى هنا ، إتنى هنا يا حبيبى فاقصد إلى ...

لم يكن يحب إنسانة بعينها ينادىها باسمها ويعرفها بصفاتها ، بل كانت محبوبته
شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ،
وفى كل طالعة مشرقة بريقاً من فتنتها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى
الحبيبة النائمة فى قلبه وفى أمانيه ... فضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف
النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر ...

لم ينس الرافعى إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ،
فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رقت به سائحة من سوانح الماضى
تذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدى الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعى ، فإن للحب فى
تاريخه فصلاً ضافى الذبول كثير الألوان متعدد الصور له مكانه المفرد فى غير
هذا الباب ؛ ولكنى أتحدث عن الرافعى فى بكرة الشباب ، فما لى مندوحة عن
الإلمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعى فى بكرة الشباب .

عاش الرافعي لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يُكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيدته أغلال النظام الحكومي - كان إلى ذلك دقيقا في عمله الرسمي دقة تبلغ الغاية ؛ وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يُسند إليه ، حتى آل أمره إلى أن يكزن المرجع في هذا العمل لكتاب المحكمة جميعا يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر في تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم في مختلف البلاد ، ثم لوزارة العدل ونمساها وهي المرجع الأخير ، تكتب إليه في زاوية مكتبه من محكمة طنطا تسأله الرأي في حاسبة أو إشكال أو شيء مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأي لتبلغه في منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه كل العبء من هذه الناحية في محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن (يحال إلى المعاش) ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضى في طلبه إلا رجاء موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان في صلته بموظفي المحكمة الذين يشركونه في عمله نبلا كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأته مرة في صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشي وزارة العدل ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص في الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها ؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأي ويصف العلاج ، والمفتش دائم على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصي وما ضاقت به

أخلاق الرافعى ؛ على حين لم يكن على الرافعى فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعاتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يحدد منزلته أو ينال منه أى نيل ؛ وكان يُسرف فى ذلك إسرافا يدعو إلى الشك أحيانا فى تواضع الرافعى وكرم خلقه وحسن تصرفه . من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يودى عمله فى المحكمة - وعمله أن يحقق أخطاء الرافعى - كان الرافعى يلزم المفتش أحيانا أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه فى حجراته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثانى من المكتب . وكنت فى إحدى هذه المرات جالسا إلى جانب الرافعى - وكان يستدنىنى إليه ويشركنى فى عمله حين أذهب لزيارته فى الديوان - فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشدد الرافعى ذراعى بعنف وهو يقول : . اجلس يا أخى . . . ووجه إليه المفتش سؤالا ، فالتفت الرافعى إلى قائلا : « من فضلك ، تولّ عني جوابه فإنه فى حاجة إلى معلم مثلك ! » .

لم يكن اعتداد الرافعى بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ فى كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأسباب يأتى تفصيلها .

وكان من تقاليد المحكمة كلما نُقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ ولكن الرافعى كان يتخلف عن وفد الموظفين ويظل وحده فى مكتبه ، فإذا فرغ القاضى أو النائب من استقبالهم مضى إلى مكتب الرافعى فى حجراته ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا

الاتفاق الذى هيا لهما هذا التعارف ... ثم يذهب إليه الرافعى بعد ذلك فى مكتبه ليشكر له ويكرر التهنة .

حتى مدير المديرية - ومحكمة طنطا هى جزء من ديوان المديرية - لم تكن صلاته بالرافعى صلة المدير الحاكم بموظف صغير ، فكانت بين الرافعى وكثير من المديرين صلات من الود والصداقة فوق ما يُعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلا واحدا كان أقرب قرابة إلى الرافعى من أهله ومن خاصته ومن تلامذته ... ، هو المرحوم (محمد محب باشا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعى ومحب باشا أثر كبير فى أدبه سنتحدث عنه فيما بعد .

لم يكن للرافعى ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحيانا كان يذهب فى التاسعة أو فى العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يُتم ما أمامه من عمل على الوجه الذى يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس فى هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل فى غيبته ، وقد لا يعود ...

وكان هذا منه يفضى زملاءه فى العمل ، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون خمه ؛ ويبلغه ما يتحدثون به فيهن كتفه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح فى المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة ! ...

وحدث ذات مرة والرافعى فى صدر شبابه ، أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنة ، لم يجد بينهم الرافعى ، فلما

سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوهُ إليه ، فلم يجده الرسول في مكتبه ، فغضب الرئيس وثارَت ثأرتُهُ ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي ؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان ، فhez منكبهُ وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء ؛ ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة العدل يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح ، على شدة اتصال عمله بالجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأى ... وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة !

وأرسلت وزارة العدل مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفي ناصف بك . ولم تكن بين الرافعي وحفي ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذى يجمع بينهما فى أسرة أبولون ... وإلا ... وإلا كلمة قاسية كان الرافعي كتبها بأسلوبه اللاذع عن « شعراء العصر » فى سنة ١٩٠٥ ، ونشرها فى مجلة الثريا وجعل فيها حفي ناصف ذيل الشعراء ... وجاء حفي ناصف إلى الرافعي فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال الرافعي : « قل لهم فى الوزارة : إن كانت وظيفتى هنا للعمل ، فليؤخذونى بالتقصير والخطأ فيما يسند إلى من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال فى الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بجبل حتى يحين موعد الانصراف ؛ فلا على إن تمرت على هذا التعب ... قل لهم فى الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار ... »

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا

صاحبه ومضى ؛ فلما كان في خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة العدل يقول :
إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود ...
إن للرافعى حقا على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية . إن فيه قناعة
ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه ، دَعَوْه يعيش كما
يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء
أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخى فى غير هذا المكان . !

وبلغ التقرير وزارة العدل ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد
المحكمة من بعد أن يغدو الرافعى ويروح لا سلطان لأحد عليه وله الخيرة فى
أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى
موضعه ذلك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعى لم تكن بينه وبين حفى ناصف صلة ما . ولكن حفى
تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا ، فتقاربا وتوثقت بينهما
أواصر الود ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛
فلا يمضى أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفى
والرافعى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعى وحفى من
التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ،
وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة
البكر ، وإن كانت فكاهة حفى أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ
القلب ، وفكاهة الرافعى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس .
ولعل روح الفكاهة فى الرافعى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم
حافظ إبراهيم من صلة الود والإخاء .

حدثني المرحوم جورج إبراهيم - صديق الرافعي وصف فيه منذ حدثته - قال:
لقد كانت الصلة بين الرافعي وحفني أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا
يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان في قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى
مجلسهما أحياناً . فكنت أرى حفني يتواضع للرافعي ويتصاغر في مجلسه ،
على مقدار ما يتشامخ الرافعي ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له الرأي
في القضايا التي لم يدرسها حفني بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعي !
ظل الرافعي في وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله
الأدبية ، وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود
والبساط الممدود .. وما زاد مرتب الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الذائع
الصيت في الشرق والغرب ، الموظف الصغير في محكمة طنطا الكلية الأهلية ،
على بضعة وعشرين جنيهاً في الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة
في وظائف الحكومة ...

على أن الرافعي كان له مرتب آخر من عمله في المحكمة ، هو ثمن ما كان
يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه في مكتبه
لعمل رسمي ؛ وكانت ضريبة فرضها الرافعي من طريق الحق الذي يدعيه كل
شاعر على الناس ، أو فرضها أصحاب الحاجات على أنفسهم التماساً لرضاه !
ليت شعري ! أكان على الرافعي ملام أو معتبة أن يفعل ذلك ... ؟

شاعر الحسن

كَلِمَ الرافعي بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً
كـبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ...
وكان واسع الأمل ، كبير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فمن ثم
نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء
الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من
دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به - بكل أولئك تهيأ لأن يكون كما
أراد ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية .

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذي
آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التي
كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها .

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه
الغاية ، وأن الحياة سترده من الهدف الذي يسعى إليه في إمارة الشعر إلى هذا
الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته
وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعته الصباية ، وفنته
الحياة ، وتقاسمته لذات الصبا ، وتعنّاه الهوى ، وتَصَبَّاه الحب والشعر
والشباب - سيكون مكانه في غده هذا المكان في الدفاع عن الدين والذود عن
العربية والصيال في سبيل الله ؛ وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن
يكون شاعراً تصير إليه في إمارة الشعر منزلة تخمل ذكر فلان وفلان
من شعراء عصره .

ومضى الرافعى يسعى إلى غايته فى الشعر وقد تزود زاده من الأدب القديم ،
ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره
يتمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودى وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له
زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفى يده ضو لجانه ، قد قوى واستحصد واستوى
على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان فى الشباب
والحدائث ، وكان جديدا فى السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ
الرافعى ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر
وشعر ؛ فقرر فى نفسه أنه هو وهو ... وأنهما فى منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن
يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى فى ميدانه ، لا يكاد
حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعى : أنا وأنت ... وما فاته أن حافظا يغالبه
بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاء والأنصار ، ويفاخره بمكانته من الأستاذ الإمام
وبمنزلته عند البارودى زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ، فراح الرافعى
يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودى ، وعقد آصرة
بينه وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدث فى المجالس ، وينشر فى الصحف ،
ويذيع اسمه بين الناس ، وانتهر نهزة فذهب يستطيل بأنه « شاعر الحسن » وبأن
حافظا لا يقول فى الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما
من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعى وحافظ
صديقين حميمين ، منذ تعارفا فى سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله
فى سنة ١٩٣٢ .

ليس من همى أن أتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن ،

وشاعرية وشاعرية : فقد يبدو لي هنا بُعد ما بين المنزلتين في الموازنة بين الرافعي وحافظ في الشعر : وما يهمني في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ، فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبتته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

~ ~ ~

في إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعي وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعي يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمي ، ونشرت له الصحف غداة مقدّمه قصيدة عينية من بحر الطويل ، قرأها الرافعي فاستجادها ورأى فيها فنا ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فملكك نفسه وبلغت منه مبلغاً ، وقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعي يومئذ كاتباً بمحكمة طمخا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة وهو يُمنّي نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعي ويُجدي على أدبه . وكان في الكاظمي - رحمه الله - أنفة وكبرياء ، فأبى على الرافعي أن يلقاه وردّه ردّاً غير جميل ، إذ كان الرافعي يومئذ نكرةً في الأدباء ، وكان الكاظمي ما كان في علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلّته وفقره : واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعي وغلي غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعي مؤمناً بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفي والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعي

بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ،
وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء
المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ،
وتصادقا صداقة النظراء ، حتى إنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس
في سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعي يقول فيه : « ... ثق أنني أسافر مطمئنا
وأنت بقيت في مصر » .

هؤلاء الثلاثة : البارودي ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل من أعرف ممن
تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره . أما شوقي ، وصبري ، ومطران ، وغيرهم
من نشئوا مع الرافعي في جيل واحد ، فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة
تمتد إلى أيامه الأولى ، وما سمعت منه - رحمه الله - حديثا يشعر بصلة خاصة
كانت تربطه بواحد منهم في حياته ، فلعل عند غيري من أهل الأدب علما
من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة .

بدأ الرافعي يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره في الصحف
وفي مجلات السوريين التي تصدر في مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى
ذلك الوقت في أيديهم ، فمجلة الضياء ، والبيان ، واثريا ، والزهر ، والمقتطف ،
وسركيس ، والهلل ، وغيرها - كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية :
كالبستاني ، واليازجي ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس ، وغيرهم ؛
وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفي والتاريخ ، أما أدب
الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديقي الأديب المرحوم جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن

الرافعى فى أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتى بالمرحوم الرافعى قريبا من سنة ١٩٠٠ : كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمى معروفا لقراء مجلة الأثريا ، ولم أكن أعرف الرافعى أو أسمع به ؛ وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافعى متجر فى شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت يوما أشتري شيئا من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة ؛ فلما صرت إليه ، لقيتُ هناك فتى نحىلا فى العشرين من عمره ، يلبس جلبابا ، جالسا إلى مكتب فى المتجر قريب من الباب ، فما رآنى الفتى حتى نادانى فدعانى إلى الجلوس ، ثم قال لى : أتعرف أنى شاعر ؟ قلت : لا ، لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعى ، وهذه الكراسات كلها من شعري . وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلا : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجوده وأمزق الباقي ، وسأطبع ديوانى بعد قليل فتعرفنى ... ! »

قال : « وعرفت الرافعى من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرتُ أدنى أصدقائه إليه : يقرأ على شعره ، ويستمع إلى رأي فيه ، ويستشيرنى فى أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثتُ حتى أعجبت به وأحلمته من نفسى أرفع محل من الحب والتقدير . »

ظل الرافعى يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه فى المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقائه يومئذ صفوة من شباب السوريين فى طنطا : منهم الأديب جورج إبراهيم ، والصيدليان : نسيم يارد ، وإلياس عجان ،

والطبيب تودرى ؛ وكانوا يتخذون مجلسهم عادة فى وقت الفراغ فى صيدلية « كوكب الشرق » بطنطا .

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعى يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء فى حينها ، وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحى . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكاليل الشاء . والرافعى غيور شمس ، فما هو إلا أن رأى ما رأى حتى عقد العزم على إصدار ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التى أحدثت كل هذا الدوى ، فإن على الرافعى أن يحاول جهده ليلبغ بديوانه ما لبغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسروا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ !

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعى فى الموعد الذى أراد بُعَيْد ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فَصَّلَ فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ؛ وهى ، وإن كانت أول ما نعرف مما كتب الرافعى ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوى الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحى ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ إبراهيم اليازجى على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعى على كتابتها .

قال الأستاذ جورج إبراهيم :

« لما هم الرافعى أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى فى جلبابه والحر شديد ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألتنى أن أهين له مكانا رطبيا يجلس فيه ليكتب المقدمة ،

فجلس في غرفة من الدار ، ثم تخفّف من لباسه ... واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة ؛ فحذّرتّه أن تنال منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إني لأحب أن أحس الرطوبة من تحتي ... فينشط رأسي ... ثم استمرّ في مجلسه يكتب وليس معه ولا حوالبه من وسائل العلم إلا قلبه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة في ساعات ...

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخةً منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي ، والشيخ اليازجي يومئذ أديب العصر وأبلغ منشئ في العالم العربي ، وكان الرافعي حريصاً على أن يسمع رأي اليازجي في شعره وأدبه . ومضى زمان ولم يكتب اليازجي ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدمته بالنقد أو التقرير ، واحتفل به «المؤيد» احتفالاً كبيراً فنشر مقدمته في صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربي كله .

قال : « واستعجبتُ أن يهمل أستاذنا اليازجي هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعي لذلك غماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد لا يُغنى عن كلمة يقوله اليازجي ؛ فذهبت أسأله ، فقال لي : أنت على ثقة أنّ هذه المقدمة من إنشاء الرافعي ؟ قلت : هو كتبها بعيني فما أشك في ذلك . قال اليازجي : وأنا ما أبطأتُ في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظائرها من كتب العربية ... قلت : ياسيدي ، إنه ليس بشيخ ، إنه قتي لم يبلغ الثالثة والعشرين ... » .

وكتب اليازجي بعد ذلك في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء في تقريره الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتي :

«... وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتبسط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه...» .

ثم انتقد اليازجى بعض ألفاظ في الديوان ، وعقب عليها بقوله :
«... على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ، لأن المرأة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر في جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها في المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجلّين في هذا العصر ، ومن سيحلّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر » (١) .

بلغ الرافعى بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر فى سنة ١٩٠٤ الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفى سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنياً بالشعر ، متصرفاً فى فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفاً إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعى الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره

(١) لا يعنينى أن أنقل هنا ما كتب أهل الأدب فى الرافعى ، وإنما أثبت هذه القطعة بخصوصها لما كان لها فى نفسه من تأثير بليغ .

براقا تلتهم أضواءه وترمى أشعتها إلى بعيد ، ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول :

«... أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحق به الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل» .

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

«... وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان» .

وكتب حافظ ، وقال البارودي ، ونظم الكاظمي ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعي الشاعر . وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذي كان يرمى إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة في الأدب سنتحدث عنها بعد .

ليس كل شعر الرافعي في دواوينه ، وليس كل ما في دواوينه يدل على فنه وشاعريته ؛ فالجيد الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر ؛ وقد كان في نية الرافعي لو أمهلت المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه ، ثم يخرج منها وء ما لم ينشر ديوانا واحدا مهذبا مصقولا ، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأديبين ؛ ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقي عمله تراثا باقيا لمن يشاء أن يسدى يدا إلى العربية يُتم بها صنيع الرافعي .

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ، ولكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة .

شعراء عصره

قدمت الحديث عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتنى آثارهم أو جرى معهم على سنن ، وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة ، بعقد الأواصر وإنشاء المودات والدعاية لنفسه ؛ ثم بينت ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟ على أن الباحث لا يقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن وأوله حافل بثلة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ؛ فما مبلغ تأثير الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعي نفسه أن يتحدث عن شعراء عصره ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه ؛ وإنه ليكشف عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعي وعنفوانه وشدة في النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعي في النقد .

إن أدباء العربية عامة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرة من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعي

والعقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ، وبينه وبين غير هؤلاء - هي خصوصية مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة في موضعها في تاريخ النقد في العربية .

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدة حيبته إلى الكثير ، وألبت عليه الكثير ؛ على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي « شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ » .

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة اثريا بتوقيع () وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه من الدعاية لنفسه فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنظم كل من يعرف الرافعي من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب : الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

والطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي (١) ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ، ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ، ثم ... حفي ناصف !

وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف ، والمنفلوطي ، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبي ، ونسيم .

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخره .

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ،
ومحمد النجفي .

وقد افتتح الرافعي مقاله بما يأتي :

« قرأت في بعض أعداد « الثريا » كلمة عن « الأدب قديما وحديثا » فقلت :
كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان
رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما شدخ بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم
الشعر فأسر ، وأقرأ عنه فأسر ، فما لي لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون
في أسماء الشعراء كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر
أولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير !

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن
كنت أعلم أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمتهم كما لو كانوا أميين
لم يقرءوا فاتحتهم ، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف
الأسماء ؛ فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع ؛
على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحاب القائلين ، وفي سجل
بعض الجرائد والمجلات ، فليظني القارئ ما ضرب على رأسه الظن
وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ، وأقطع
عليه رأيا ، فإما وسعه فكم له به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو عند
نمسه ؛ ولذلك فقد ضمتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم
بالشعراء عادتنا المألوفة . »

ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبسا من شعره مستشهدا به
على ترتيبه في موضعه من طبقته .

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ .

« ... وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للبعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون « شوقي » عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر - يعنى نفسه - كما أسمع عنه ، فإنى أكون قد ظلمته إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ^(١) ، ولذلك فإنى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان قتي أو كهلا ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظم في عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة « الجامعة » تقریظا مسهباً جداً للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تُطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

(١) مقتضى حساب السنين على هذا القول ، أن يكون مولده سنة ١٨٨١ ، وقد

ذكرنا من قبل - نقلاً عن بعض ما كتب بخطه - أنه ولد في سنة ١٨٨٠

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقي بك ثانياً الطبقة الثانية وهو هو ، شوقي بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية ، ولكننا نعجب أكثر منه إذا رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوحيات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قَضَى أَرْيَحِيَّ القوم » وغيرها . ولا أدرى لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن « صبرى وسلمان » كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ... »

« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمي في العراق ، والبارودي في سيلان ، وصبرى من مهذبى شعره على ما يقال ، وحافظ في السودان ، والرافعي لم يقل الشعر بعد - على ما قيل لى ١ - وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية ، على نحو ما يذكر النحاة في باب (الجر) بالمجاورة ... »
وختم المقال بقوله :

« وسرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يُخَفِّضُوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيي ، فليبق كلٌّ في رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »
وذيلته مجلة « الثريا » بما يأتي :

ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :
« ... دونك مقالة بكرة لم يُنسج على منوالها بعد في العربية ، حريّة بأن تُصدّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يرو عنك شدة لهجتها ، فكلها حقائق ثابتة ؛ وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجميع ؛ وإني لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفء

للجميع ؛ وما إخال أحدا يستطيع أن ينقض حرفا مما كتبه ، وإن هم
لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارا بأننى أنزلت كل شاعر فى
المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جلا وطّلاع الثنايا ؛ فانظر إلى ما قيل
وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي فانشرها وإلا فاضرب بها عرض
الحائط . وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ،
سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فإن الموضوع طلى شهى ، وفى إطلاقك
الحرية للكتاب ما ينشط بهم حرية الجولان فى هذا المضمار ،

قالت الثريا : وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب ، وبتنا نقدم
رجلا ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ؛ إن لم يكن
لشئ فلكثرة ما حوته من رائع الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء
مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير
متحملين تبعثها ؛ وللكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب
بكل ما يردّها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم .

« ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم (١) »

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر : وقد تحدث
عنه المرحوم الرافعى مرة فى بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلمات عن
حافظ) وصف فيها أثره وما حدث من ضجة بين الشعراء فليرجع إليه من شاء
« وانظر الجزء الثالث من وحي القلم ، .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك
أن ينفية عن نفسه ، وإن كان معروفا لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب
الرافعى لا يخفى على أحد من قرائه .

وقد كتب الرافعى فى كلماته عن حافظ أن هذا المقال نشرته الثريا سنة ١٩٠٣ وهو
سهو حقيقته ما ذكرت .

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعي دراسة أوسع ، قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح .

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعي فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى نشبت بين الرافعي ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي فى النقد أن يبدأ من هنا .

ثانياً : إنه ثبت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعي فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء .

ثالثاً : إن فى هذا المقال لونا من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعي إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد ؛ فإن فيه شيئا من أخلاق الرافعي المزهو بنفسه ، المعتد بعلمه ، القوى بإيمانه ، المتفحم على مواطن الهلاك ؛ الرافعي القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء الغمالة على القمة : انزلوا إلى أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ، ولا يُسمع لكم صرخ ١٠٠٠ !

لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ١٠٠٠ !

بين أهد

« إذا رأيت رجلاً موفقاً فيها بمحاولة ، مسدد الخطا إلى الهدف
الذى يرمى إليه ؛ فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتبها ! »

إننى لأعرف - فيمن أعرف - أحدا تنطبق عليه هذه الحكمة انطباقها على
حياة الرافعى ؛ فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى وعرف طرفاً من
حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها
فى بيته ؛ فإلى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء
الذى هبأه لدراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله
عنهما شاغل مما يشغل الناس من شؤون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى فى الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طراقة
وفىها مجال للفكر والنظر ؛ ومادمت قد أخذت على نفسى أن أكتب عن الرافعى
فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعى ؛ ولا
أحسبني بذلك أتجاوز ما لى من الحق أو أتعرض لعب أو ملامة ، فقد خرج
الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء .

وزوج الرافعى مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقي المعروفة فى (منية
جناج - دسوق) وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب « البيان »^(١) ؛
وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوقي هى أول السبب
فى هذا الزواج .

حدثني المرحوم الرافعي قال : «... كنت في الرابعة والعشرين ، وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقي نوعاً من المعرفة التي تربط بين شابين ترافقاً في الطبع ، واتفقا في الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهر ياولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الإمام ، إذ كان من تلاميذه الأدنين » وكنا نلتقي أحياناً ؛ فسرني منه مأسره مني ؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين ؛ إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عزٌّ وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له - وكان لي - أصفى ما يكون الصديق للصديق ...

لم أكن أعرف له أخاً أو أختاً ، ولم يجر في بالي قط أن الصلة بيننا ستجاوز ما بيننا ، حتى كان يومٌ جلست فيه أتحدث إلى نفسي ، فكأنني سمعت صوتاً من الغيب يهتف بي أن صديقي عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجي ... وانتبهت وأنا أسأل نفسي : أله أخت ؟ ياليت ... ! لو كان إني إذاً من السعداء ...

« وكانت نفسي في الزواج ، فما هي إلا أن تحرّك في نفسي هذا الخاطر حتى سعت إلى صديقي عبد الرحمن ، وقلت له وقال لي ، وجرّنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبي : من لي يا أخى بالزوجة التي أريد ؟ ووصفتُ له الفتاة التي تعيش في أحلامي ؛ فلما فرغت من حديثي قال صاحبي : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هي هدية أقدمها إليك . قلت : من ؟ قال : أختي ! » .

قال الرافعي : « وغشيتني غشية من الفرح ، فما تلبثتُ حتى مددت إليه يدي فقرأنا الفاتحة ، وما وقع في نفسي وقتئذ أنبي أمد يدي لأخطب عروسي لنفسي ، ولكنني أمدتها لأتعرّف إلى العروس التي خطبتها على الملائكة وأثبتتُ نبأ الخطبة في لوح الغيب » .

وبني بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة - ثلث قرن -

لم يدخل الشيطان بينهما ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة ...

قال الأستاذ جورج إبراهيم : لقد حضرت عرس الرافعى ، وعجبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدت اضطرابه وخجلته ، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته ويفيط نفسه على حظه وتوفيقه ، فما شكا إلى مرة واحدة همما ناله ، ومضى عام ... وجاءت ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافعى كان ينم على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد عزمْتُ على أمر ... سأطلق زوجى ! وراعى هذا النبأ ونال منى ؛ قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إن إخوتها يحددون حقها في تركه أبيها لا يريدون أن تستمتع منها بشيء ... قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ! قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ ... مصطفى ، إذاك جبار ، أو لا فاذا ذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعى ؛ أو لا هذا ولا ذاك ، فاذا ذكر أن أهل « طرابلس الشام » لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة وإن تتكرر من بعد ... فكان بعض أهلك يا صاحبي ...

قال : وأطرق الرافعى هنيهة ثم قال : أحسب أنني أفعلها ... ! ؟

قال : ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه ... ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضى شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

* * *

كان الرافعى يعيش في بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب ؛ وما كان منكورا لأحد من أهله أن

الرافعى ليس موظفاً كسائر الموظفين : عمله فى الخارج وحسب ؛ بل كانوا جميعاً يعملون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضا عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والأطمئنان . كان فى بيته كالمملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش فى جو من الاحترام والرعاية والطاعة فوق الأحزاب وفوق المنازعات ؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أى شغل أو تشغى على هدوئه وتذكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه ، منقطعاً لفنه وعمله الأدبى ، فدار كتيبه له هو وحده ، وطعامه مهياً فى موعده وعلى نظامه ، وفرشه ممد فى موضعه لساعته ، ونظامه الذى يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعى مضبوط .

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجته وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء . وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعى ؛ إذ يتصاغر لهم ويناغهم ويدلهم ويبادلهم حباً بحب ، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالى أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ناصحاً برفق حين يحسن الرفق ، مؤدباً بعنف حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان .

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فإن واجباً على أن أتحدث هنا عن شيء من « حب الرافعى » ، أراه يتصل بهذا الموضوع :

فى فترة ما من حياة الرافعى - سيأتى الحديث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد - كان للرافعى هوى وغرام ، ووقع له فى هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه مادافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتمل على الخلاص فما أجده الحيلة إلا أهماً على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه .

وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقى ويغلبنى على إرادتى ؟
إن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى - والحب عند الرافعى لا يأبى الشركة - وإن لها
على حقاً ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى !
ماذا يكون من أمرى وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟
أقول لها : نعم قد ضيعتُ حقك وأعطيتُ من قلبى الذى لأملك لمن لا تملك ؟
ويلى ! إنها الخيانة والإثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، وأفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه
ثم قال : وأنت يا زوجتى ، هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولكن ...
واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة ... ثم أذنت له ... وكتب الرافعى رسالته
الأولى إلى صاحبه التى غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت
بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبه فقرأته زوجته كما قرأت رسالته . وصار هذا دأبهما
من بعد ... لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه فى
ذلك ملامة ما دامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف فى الأدب العربى تم بها نقص العربية
فى فلسفة الحب والجمال ، هى « رسائل الأحرار » و « السحاب الأحمر » و « أوراق
الورد » ؛ ولكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى ... قصة هذا الوفاء وهذه التضحية
لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الكتب فى فلسفة الجمال والحب ... !

من الشعر إلى الكتابة

ملكة الإنشاء . إنشاء الجامعة المصرية . تاريخ آداب

العرب . إجاز القرآن . حديث القمر . شيوخته في الأدب

بلغ الرافعي الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ،

وجرت ريحه رُخاءً إلى الهدف المؤمل ، فامتد نظره إلى جديد ...

وأخذ يروض قلبه على الإنشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع

مقالات مصنوعة فتنته وملكته إعجابه ، قهياً لأن يُصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء

سماه « ملكة الإنشاء » ، يكون نموذجاً للتأديين وطلاب المدارس ، يحتذون فنه

وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه . وأحسبه كان جاداً فيما وعد

لولا أمور نشأت من بعدُ وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين

قراءه حتى نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الرافعي بعدم نشر هذا الكتاب ؛

وحسبُ الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذي

لم يُنشر ، مقالاتٍ ثلاثاً نشرها الرافعي في الجزأين الثاني والثالث من ديوانه ،

وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلانا ونموذجاً لكتابه ؛ فإن في هذه المقالات

الثلاث كل الغناء للباحث ، تدله على أول مذهب الرافعي في الأدب الإنشائي ،

وطريقته ونهجه (١) .

(١) تقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » وفي الجزء الثالث

ص ٨٠ « رسالة فكاهية » وفي ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع » .

إنشاء الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعى كان جادا فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » ، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه . فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٧ كان قد مضى على الرافعى يومئذ عشر سنين فى مدرسته التى أنشأها لنفسه وكان فيها المعلم والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلم لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالما فى الأدب ، أو راويا فى التاريخ ، أو أستاذا فى فرع من فروع المعرفة ؛ وإنما كان يدرس ليتزود للشعر زاده ، وليبلغ من العلم مبلغا يعينه على أن يقول وينشئ . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلع إلى ما يقال هناك فى دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذى يتشوف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟

مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئا فى الأدب يفتقر إليه الرافعى ، وما تحدث أساتذتها حديثا فى الأدب لا يعرفه الرافعى . ماذا ؟ أهذا كل ما هناك ؟ ... وأيقن الرافعى من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ... وطال انتظار الرافعى وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروسا للأدب ، وما استطاع الرافعى أن يقنع نفسه بأن فى الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ؛ فكتب مقالا فى الجريدة يحمل على الجامعة وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب فى الجامعة . ورن المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب فى (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة للفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلا لتقديمه إليها سبعة أشهر . وقرأ الرافعى دعوة الجامعة ، فما رضى ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء مُغر لمثل الرافعى الأديب الناشئ ، والموظف (٥ - حياة الرافعى)

الصغير ، والزوج العائل : أبي وهيبه وسامى ومحمد ؛ ولكنه كان يطمع فى أكثر من مائة جنيه ، ويطمع فى أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة .

« إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم ، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فإذا طُبع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر... ؟ »

« لم تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتبس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجماعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكف يهون على الرقاب ؟ » (١) وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ؟ إنه فن لم يتناوله أحد من قبل . وإن مراجع البحث لكثيرة ، وإن من وراء ذلك جهدا لا يطيقه إنسان ! وكتب الرافعى مقاله الثانى فى « الجريدة » نعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبى على الدعوة التى دعت ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فصالة سبعة أشهر ، إنما مَسَّتْ بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه ، فالتسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة ... ومضى الرافعى يتجنى ويتدل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر . وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدة إلى سنتين ، والجائزة

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه .

إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .
ووجد الرافعى بذلك ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه ...

تاريخ آداب العرب

إن كثيرا من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعى بيدٍ على العربية أويروا له صنيعا فى الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » وإنه لكتاب حقيق بأن يُذكر فيذيع فضل الرافعى على الأدب والأدباء .
انقطع الرافعى لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذى عينته الجامعة .

لم يكن الرافعى طامعا فى جائزة الجامعة ؛ ولذلك لم يتقدم إليها قبل طبعه ، ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .
وكان أسبق المؤلفات ظهورا إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعى ، « سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقا مطبعيا » (١) .

وكانت مقالات الرافعى فى « الجريدة » ، وكتاب « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك فى وضع ما وُضع من الكتب فى هذا العلم .

وأعان الرافعى على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابته مكنت ثلاث

(١) حكاة الرافعى .

بطنطا ، كلها حافل بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هي : مكتبة الرافعي ، ومكتبة الجامع الاحمدى ، ومكتبة القصبي^(١) .

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغريبة الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية ...

ليس من همى هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعي « تاريخ آداب العرب » ؛ فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، وما منهم أحد إلا له فيه رأى محمود وثناء مستطاب ؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية يومذاك ، إذ قال فى مقال نشرته له « الجريدة » سنة ١٩١٢ : « ... هذا الكتاب الذى تُشهد الله على أننا لم نفهمه ... » لكنه عاد فصّح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد من ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي « فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيّمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب^(٢) .

نال الرافعي بكتابه هذا مكانا ساميا بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتا غير قليل ؛ وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

(١) هى المكتبة التى انشأها وجمعها المرحوم الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الاحمدى قبل المرحوم الشيخ الظواهري الكبير .

وقد حدثنى عنها أبى ، كما حدثنى عنها المرحوم الرافعي ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادير المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ، وهى الآن محبوسة فى حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء ، من حجرات زواية القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد ، لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم قدرها ، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها ، فإن هناك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها ، وحسب العربية ما لقيت من أهلها فى عصور الجهل والانحطاط .

(٢) ص ٩٠ و ٩١ فى الشعر الجاهلى وص ١٩٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين

أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة (١) وقد كتب عنه مقالا ضافيا في الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا ؛ وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل . . . وأما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنني وأنا أقرأه أقرأ من قلم المبرد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظا سابعة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تؤدي ببعض أجزائها . . . » .

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان - وهو أشهر كتّاب العربية في ذلك الوقت - (٢) مقالة في صدر المؤيد جاء فيها : « لو كان هذا الكتاب خطأ محجوبا في بيت حرام إخراجهُ للناس منه ، لآستحق أن يُحجَّجَ إليه ؛ ولو عُكِفَ على غير كتاب الله في نواشئ الأسفار ، لكان جديرا بأن يُعكف عليه ... » .

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السَّنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبلُ ومن بعد لغير هذا الكتاب .

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع ، وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين ... !

وفي السنة التالية ، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ،

(١) عبارة الأستاذ لطفي السيد إلى الرافعي .

(٢) توفي في ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

وموضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم « إعجاز القرآن » ، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية ، وقد طبعه على نفقته المغفور له الملك فؤاد رحمه الله . ومات الرافعى وفى مكتبته أصول الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ، ومعها تعليقات كان ينوى إضافتها إلى الجزء الأول فى طبعته الثانية فعاجلته المنية ^(١) .

هل كان للرافعى خيرة فى المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ما شرع يكتب « تاريخ آداب العرب » ؟ .

وهل كان يعنى ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر ، إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء ؟

هل كان عن قصد ونية أن يتخلى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها ، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم ؟ ...

الحق أن الرافعى لم يكن له خيرة فى شىء من ذلك ، ولا كان يعنيه ، ولا توجهت إليه نيته ؛ ولكنه ألّف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابه إلى الناس ، لم يلبث أن ارتد إليه الصدى مما يقول الناس ؛ فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، وإذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتّاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذى يكتب

عن إعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ،
حديث قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطقُ يبين . . . ووجد
الرافعي كأنما اكتشف نفسه !

وهنا بدأ الرافعي الكاتب الذي يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ
الرافعي الشاعر يتصاغر ويختفي رويدا رويدا حتى نسيه الناس أو كادوا ،
لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغانيه العذاب ،
ثم ترك دنياهم إلى العالم الثاني ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ .

لقد عرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها بين أدباء الجيل ، وأن له
غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون
لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وأن ينفخ
في هذه اللغة روحاً من روحه يردّها إلى مكانها ويردّ عنها ، فلا يجترئ عليها مجترئ
ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف
عن دخليته .

ونظر فيما يكتب الكتاب في الجرائد ، وما يتحدث به الناس في المجالس ،
فرأى عربية ليست من العربية ، هي عاقية متفاحية ، أو مُججمة مستعربة ، تحاول
أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألسنتهم ، فقرّر في نفسه أن هذه اللغة
لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب
الكتاب وينشئ الأدباء ؛ وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلبه لذلك إلا أن يتزود
له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعي يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون
في مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المنتقاة ، واللفظ

الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافي ، لتكون له عوناً على ما ينشئ من الأدب الجديد الذي يريد أن يحتديه أدباء العربية .

* * *

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه في الشعر إلى مذهبه الجديد في الأدب والإنشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعي يصرّح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرة في نفسه . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب في قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه في سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعي . والحق أن الرافعي بطبعه شاعر في الصف الأول من الشعراء لا أعنى الشعر المنظوم ، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذي هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان - رحمه الله - بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنيّ المصنوع ، فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معاني السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلاً : « أسمعت هذا الشعر ؟ رأيت شاعراً في العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعاني في قصيدة منظومة . . . ؟ »

هذه العبارة التي كان يسمعها جلساء الرافعي كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعي : إن في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن

نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم ، ولا يُعجزه البيان في المنشور . نعم ، كان شعر الرافعي أقوى من أدواته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ...

أقترى في العربية شاعرا يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من «أوراق الورد» في قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويخل بالميزان ؟ .

لا أحسب أن الرافعي كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود في الشعر العربي من أسباب الضعف في الشعر ؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأي ، بل أحسبه في بعض نقدااته الأدبية أنكر مثل هذا القول على أديب من الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغرض من قدر الشعر في العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيرا عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به .

* * *

ذلك هو السبب الثاني الذي عدل بالرافعي عن الاستمرار في قرض الشعر معنيًا به مقصورا عليه .

لم يهجر الرافعي الشعر هجرا باتا بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كلَّ هممه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعتة داعية من دواعي النفس أو من دواعي الاجتماع . وسنرى فيما سيأتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما هس الحب قلبه واتقدت جذوته في أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعته نفسه ؛ وعند ما اتصل بيلاط الملك فؤاد - رحمه الله - سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

حديث القمر

قلت إن الرافعي بطبعه كان شاعرا ، ولكن شعره كان أقوى من أدواته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ، فتزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء ، لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجا في هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت في أول هذا الفصل أن الرافعي كان على نية إصدار كتاب مدرسى سماه « ملكة الإنشاء » يكون عوناً للمتأدبين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء . فذلك بعض ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد .

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان في سنة ١٩١٢ ، عرف فيها شاعرة من شوارع لبنان ، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل في الحب (١) ؛ فلما عاد من رحلته ، وجد في نفسه حاجة إلى أن يقول فقال ، فكان حديث القمر !

وهو أول ما نشر الرافعي من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بى أن أصفه لقراء العربية ، فهو مشهور متداول وهو أسلوب رمزى في الحب ، على ضرب من النثر الشعري ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فنى مصنوع لا أحسبه مما يُطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام ، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام في لفظ جزل وأسلوب بليغ .

(١) نتحدث عنها فيما بعد ، عند الحديث عن الرافعي العاشق .

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادي وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرارٍ في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم .

شيوخه في الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعي فإني أسأل نفسي : عمن أخذ الرافعي هذا المذهب في الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القدامى والمحدثين ؟ هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثني به الرافعي أو أخذ من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً في هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظني أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذه في الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطورات الزمن هي ردة من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه في الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب بمذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكنني أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغاني ، وكان يُعجب بأدبهما و يُعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضي وإعجاباً لا ينتهي ، وكان لا بد له حين يهتم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته . أن يفتح جزءاً من الأغاني ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترةً ما قبل الكتابة في جو عربي فصيح .

وأحسبه إلى ذلك قد تأثر كثيرا في صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلتي « الضياء والبيان » .

ومما لا يفوتني إثباته في هذا المجال أن مجلة « الهلال » قد استفتت أدباء العربية يوما منذ سنوات ، في أي الكتب العربية تُعين الأديب الناشئ على مادته ؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي .

وسمعتة مرة يقول : إن كلمة قرأتها لفكتور هو جو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعتة لنفسى ؛ قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهو جو تعبيرا جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسستها الملائكة بالليل » .

قال الرافعي : « وأعجبتني بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حذوي

من بعد في الإنشاء » .

أفيحق لنا بهذا أن نزعّم أننا عرفنا واحدا من شيوخ الرافعي في الأدب

والإنشاء ... !

في سنوات الحرب

كان الرافعي - رحمه الله - شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلح في عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . وقد كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيرا من المآسى الفاجعة يسأله أصحابه الراى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبا ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها ، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل .

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت ناره في الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فلم يكن ضحاياها في مصر بالجوع والمتربة أقلّ عديدا من ضحاياها هناك في الميدان . . . كيف كان يعيش العامل المسكين في تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا ، فوجدته جالسا فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية . . . !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حُمِلت إلى الميدان لتخزن فى دار المئون وقتا ما ثم تقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رمادا فى الهواء . . . !

ونظر الرافعي حوالبه فارتدَّ إليه البصر حسيرا مما يرى ويسمع ، فاحتبس

الدمع في عينيه ، ولكن قلبه ظراً يتحدث بمعانيه .
ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ،
وتتشكل صورته ، وتحشد آثاره ؛ والرافعي دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل
ما يحمل من همّ الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض .

* * *

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء
له في نظام الكون إرادة وتدير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت
في طريقى ... ؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل : ربّ ، لم كتبت عليّ هذا ... ؟
لماذا حكمت بذلك ... ؟ لماذا قدّرت وقضيت ... ؟ ما حكمتك فيما كان ... ؟
ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن ... ؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفىء إلى الرضا ، فيعود
معتذراً يقول . رب ، لقد ظهر حُكمك ودقّت حكمتك فمغفرة وعفوا ... !

وقفل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع
الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم
أبداً في حيرة وضلال .

في لحظة من تلك اللحظات ، أغمض الرافعي عينيه وراح يفكر ، وفي
رأسه خواطر يموج بعضها في بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول :
« ربّ ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك ... ! » ، وأفاض الله عليه ورفع عن
عينه الغطاء .

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ،
ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ، ولكنه كان يتسم ،
وعاد يقول : « حكيم أنت يارب ! ليتهم وليتنى ... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله

فى شىء من أغلاط الناس !... كل شىء فى هذا الكون العظمى ىجرى على قدر منك وتدير حكيم ! ،
ثم شرع يؤلف كتابه « المساكين » .

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف فى المنشور ، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء ، ويعرف به الرافعى فى الصفحة الأولى منه فىقول : هو كتاب « أردت به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس ... »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :
« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتسدل على أركانه مرقا متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفقها بخيوط من الدمع ، ويمسكها برقع من الأكباد ، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم ؛ وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنه المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا

صورة « الشيخ على » الرجل الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش في نعمة الرضا ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبة الحسناء الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه . . . من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع .

وأول أمر الرافعي في تأليف « كتاب المساكين » أنه كان في زيارة أصهاره في « منية جناح » فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا رجل يعيش وحده ، ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوبا ، ولا دار تؤويه ، ولا حقل يغل عليه : يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رmqه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعاه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق . رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس وآمال الحياة . ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره ، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة .

ويصف الرافعي الشيخ على فيقول :

« . . . هو حلیم لنفسه . غضوب لنفسه ؛ وكذلك هو في الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفي كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ؛ فالتاس كما هم وهو كما هو ، يرويه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ؛ ويتحاشونه رافة ورحمة

ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سليط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يُمَغَص بطنه بالداء أو يُمَغَص ظهره بالعصا... ! وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة ، غير أن أمرهما مختلف جدا ، فلم تقهره الدنيا ؛ لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو ؛ لأنها لم تظفر به .

«... وهو رجل سُدت في وجهه منافذُ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يُخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تَعْدُوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كلَّ ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف ، وكلَّ ما رَدَّت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ، وكلَّ ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف .

«... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا... وأنت إذا سطعت له بالجوهر الكريمة النادرة ، فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق ، وإن هَوَّلت عليه بألوان الخبز والديباج ، حَسِبَكَ مائِقا لم ترقُط نضارة البرسيم وألوان الربيع...»

هذا هو الشيخ عليّ الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح .

وقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ عليّ من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي (٦ - حياة الرافعي)

كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله . وإيمانه ذاك هو الذى كان يُفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأخرج ساعاته ، فكنت لاتراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام .

* * *

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى :
« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ،
وجوته كما للألمان جوته ، .
... هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التى حطت
على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ على الجناحى .

اغاني الشعب

اسلمى بامصر . نشيد الاسقلال . البحر المنفجر

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطنى أو طائفى من الذبوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعى ؛ فهو بذلك خليف أن نسميه « شاعر الأناشيد » وقد ولع منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية ، يفتن فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها ؛ ففى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعه « الوطن » التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دى يمجّدها قلبى ويدعو لها فى
وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى
دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه
الشعبية . وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى
نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها
أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى ، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذى
لم يسلكه قبله أحد ؛ فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن
يأخذوا بيده فى هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقى فى ذلك الينبوع ... » (١)

(١) شرح الرافعى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما نسب الشرح
إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وهو باب من الدعاية التى كانت يدعوها لنفسه
فى أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارئ حديث الرافعى عن نفسه فى هذه العبارة
لضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه .

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني ، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرهما ، وأذاع في الصحف كثيرا مما نظم من « أغاني الشعب » .

وعرف الرافعي في نفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية في باب هو من الشعر في ذلك العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغاني الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيتها ؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطا بعيدا ، وأنجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرهما في طي الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد .

وإنك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره ، فتؤمن غير مضمحل أن الرافعي هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزل . . . » ثم لم يقل أحد من بعده شعرا يترنم به في الحرب ؛ أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعي .

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة من حباته الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد .

وأشهر أناشيده : « اسلمني يامصر » و « إلى العلا إلى العلا بني الوطن »

ودحمة الحمى ... ولكل نشيد تاريخ .

* * *

نهضت الأمة نهضتها الرائعة في سنة ١٩١٩، ودوى صوت الشعب هاتفا : إلى
المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من
داخلها ، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأى واحد ، إلى هدف واحد ؛ وإذا
مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود في وجوده يتمثل في كل مصرى ،
ويستعلن على كل لسان في مصر .

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر
عن أمانيتها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ،
وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ،
وبيانها من معاني نفسه .

وتلفت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذى يؤملون أن تتحدث
الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وسمت لجنة النشيد جائزة وضربت أجلا ...
وتبارى الشعراء فى الافتتان والإجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم
الرافعى فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم
يتقدما بشيء إلى لجنة النشيد : هما «شوقى» أمير الشعراء ، و«حافظ» شاعر النيل
أما حافظ فلأنه من المحكمين فى اختيار النشيد ، وأما شوقى ... فمن يدرى ؟

وكان على رأس «لجنة النشيد» الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر والى^(١)
فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدم الرافعى ، ويتقدم الهراوى ؛

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ويتقدم عبد الرحمن صدقي ، ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، و ممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقي وحافظ .

ونسأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشعارين الكبارين ليحملوهما على الاشتراك في المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوقي ... يرحمه الله - لقد كان حريصا على أن يقول الناس في كل مناسبة ؛ لقد قال شوقي ... ولكن ماذا يقول في ذلك اليوم ؟

وكان لشوقي نشيد أنشأه منذ عهد لتفتتح به «فرقة عكاشة» موسمها التمثيلي ، فإذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟ وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصر مكانكمو تهيأ فيها مهّدوا للمجد هيا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ، فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصا على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمثوا إلى عدائتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية ؟ وكان الرافعي على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات في «الأخبار» ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسي ، وكاتبها الأول هو المرحوم أمين الرافعي ؛ فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة صاحبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي وقال في نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازني والعقاد في «الديوان»

وكتب غير المازنى والعقاد ، وشوقي رحمه الله رجل كان - على فضله ومكانته وعلى منزلته فى الشعر - ضيقَ الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعى شىء من يومئذ ، إن لم يكن من قبلُ يومَ نشر الرافعى مقاله فى « الثريا » عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحدا من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته أو يكتب عنه مثل ما كتب الرافعى عن شوقي فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفى أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين .

* * *

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعى فى ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ؛ لتنظر فى نشيد الرافعى وحده .

وأصدرت اللجنة الأصلية حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقي ، وفاز من بعده الهراوى وعبد الرحمن صدقى ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعى هو النشيد القومى المصرى . . . وسبقت بين المغنين جائزة ، ليصنعوا لحنا لنشيد الرافعى :

إلى العلا ، إلى العلا ، بنى الوطنُ إلى العلا ، كلُّ فتاةٍ وفتىٍ
وفاز الموسيقىقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !
ليس من همى هنا أن أوازن بين نشيدى شوقي والرافعى ؛ فقد مات نشيد
الرافعى (إلى العلا . . .) بعد أن سبقه نشيد شوقي إلى الموت بعشر سنوات ،
ولم تجِد كل المحاولات فى بعثه ونشره . . . وإذا كان لى أن أقول شيئا هنا فى
الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعى

واحتفائهم به في كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي .

لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا في سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أني رأيت من بعدُ نشيدا احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعي يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذياه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى ...

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا في سعد زغلول ؛ فهو المصرى الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنسانا تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : مَنْ الرجلُ الذى يقول أنا الأمةُ صادقا لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومى عند الرافعي ، فرأى رؤياه في منامه ... فلما أصبح ألف نشيده « اسلمى يا مصر ، وما كان همُّ الرافعي عند ما ألفه أن يجعله نشيدا قوميا ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعي في خطابه إلى سعد في جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعدادة ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدرا من مصادر إمداده ،

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقيلَ يدك ، ويجدون في كل زمن من شرح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خطَّ قلمُ الأزل بيده كتابَ نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبيُّ الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعى لم يكن يعنى بإنشاء نشيده « اسلمى يا مصر » أن يجعله نشيدا قوميا ، فإنه لمطمئنٌ إلى أن نشيده « إلى العلا ... » ماض فى طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقةً فى نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيدا قوميا ليجعلوا صوتَ سعد فى هذا النشيد صوتَ البلاد ، وليتخذوا ما فيه من معانى المجد شعارا لكل مصرى ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصرى .

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ، فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثانى أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد أن صار نشيدها الرسمى .

نشيد الاستقلال

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد « اسلمى يا مصر » هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومى يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة .
فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد ، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد ؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيد الجديد :

حماة الحمى ، يا حماة الحمى هلموا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت فى العروق الدما نموت ، نموت ، ويحيا الوطن
كما تقدم بنشيدته الآخر: « اسلمى يا مصر »؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فإن للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تنسى الأحقاد وتمحى العداوات .

* * *

ليس ما ذكرت هو كل جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديرا به ، فما أستطيع أن أحصى كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبى أن أذكر بنشيدته الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار « الشبان المسلمين » ، فهنا ،

في هذا التشيد يُعرف الرافعي الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلبه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب .

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » و « نشيد الطلبة » الذي أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا - فذلك فنٌّ من البيان له فصل بعنوانه في تاريخ الأدب العربي .

البحر المنفجر

في أناشيد الرافعي عامة ، تعرف له طابعا وروحا ونغمة هي سر نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل في أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة في سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو في خلوته الشعرية يحاول شيئا من هذه الأناشيد لسمعت لحنه له رنين يشترك فيه صوت الرافعي ، ونقر أصابعه على المكتب ، وخفق نعله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافعي كان أصم لا يسمع قصف المدافع ، فإنه كان لا يستوى له النظم إلا في مثل هذه الحال .

واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش مفتش التحقيقات بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعي من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف في القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة ماري قدسي معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعي يوم جلس إليها وهي تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ، ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « أسلمى يامصر » وهو يسمعها بعينه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه

وينفخ شذقيه ؛ وفي أذنيه وقر ثقيل

هذه النعمة التي كانت تتمثل للرافعي في سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد ، كان لها أثرها الفني في عمله ، وهي هي التي كانت تُشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد في موازين الشعر العربي النعمة التي كان يريدتها في أناشيده كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْدًا مَجْدًا مَدْرَسَتِي مَدْرَسَتِي مَجْدًا مَجْدًا

عن علي عن تربيتي مَدْرَسَتِي حَمْدًا حَمْدًا

لم يجد له نعمة تلاممه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذي يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ، ولكن صاحب « المقطم » أشار عليه أن يسميه « البحر المنفجر » . وتفعيلاته « فَعَلَّ ، فَعَلَّ ، فَو ، مكررة في كل شطر ، مع بعض علل في الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته .

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان : « أغاني الشعب » ، لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربي كان يعيش في هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان . . . !

الرافعي العاشق

الحب عند الرافعي . هو وهمي . شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء . هي وهو . تعقيب . رسائل الأحران . السحاب الأحمر . أوراق الورد .

- ١ - « إن المرأة للشاعر كحواء لآدم : هي وحدها تعطيه بحبها جديدا لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تنخطى به السماوات نازلا ... »
- ٢ - « إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »
- ٣ - « ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بابهاها وثرثرتها ... »
(الرافعي)

أتراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفّي القول وأبلغ الغاية ...
وهل يكون لي أن أدعى أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعي العاشق ... ؟

وهل خلت فترة في حياة الرافعي من الحب ؟
ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخا معتجرا العمامة مطلق العذبة
مسترسلا اللحية مما قرءوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص على
تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما لا يدركه الشيوخ .
هذا الذي يكتب عن إعجاز القرآن ، وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ،
ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم ...
هذا الذي كانت تتصل روحه فيما يكتب - من وراء القرون - بروح الغزالي ،
والحسن البصري ، وسعيد بن المسيب ؛ فما تشك في أن كلامه من كلامهم وحديثه
من إلهام أنفسهم ...

هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقرى ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد ...

... هذا الرجل - كان عاشقاً غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ! إن الحديث عن حب الرافعى لحديث طويل : فما هى حادثة أروىها وأفرغ منها ، وحيبة واحدة أصفها وأتحدث عنها ؛ ولكنها حوادث وحييات ، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يُشرق فيه صباح ولم يحن مساء إلا وللرافعى جديدٌ فى الحب : بين غضب ورضا ، ووصل وهجر ، وسلام وخصام ، وعتب ودلال ، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشاب الرافعى وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شابٌ فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وبأخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء ... !

* * *

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب «الرسالة» وبين الرافعى وأجله عام : هل لك فى موضوع طريف عن الرافعى أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعى فى الحب لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك .

قال : ولكنه حديثٌ يُغضبُ الرافعى !

قلت : وعلى أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعى فأفضيت إليه بعزى . قال : أو تفعلها ؟ أفكان لهذا

مجلسك مني كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس
بشمن ... ؟

قلت : لو أنه كان سرّاً لم يعلمه غيري ماعقدت العزم على شيء ، ولكنه « سر »
على لسانك إلى كل من تتحدث إليه ! ...

وما كان للرافعي سرّاً يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم ،
فكأنما أذكرته - بما قلت - بعض ما كان ناسياً ؛ فعاد يقول : وماذا تريد
أن تقول في حديثك عن حي ؟

قلت : حديثاً لو همّ غيري أن يجعل منه مقالا لقراءته لما كان الرافعي هو
الرافعي عند من يقرؤه ، ولكن أحسبني أنا وحدي الذي يستطيع أن يقول
إن الرافعي كان يحب فما يغير شيئاً من صورة الرافعي كما هو في نفسه وكما هو
عند من يعرفه ؛ إني أنا وحدي الذي يعرف الحادثة وجوّها وملايساتها
وما كان في نفسك منها ؛ ولعلّ يوم عرفت كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات
وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك في الحب ومداك . أما غيري فهل تراه
يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعي يحب ... ثم تكون الفضيحة
التي تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعي إلى حديثي ثم أطرق هنيئة وعاد يسألني : وهل أقرأ ما تعدّه
قبل أن تنشره .

قلت : لك ماتريد .

قال : أنت وشأنك !

* * *

وأجمعت أمري ، وأعددت فكري ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية

بطبع ، وحي القلم ، وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت . . . ومات الرافعى !
فإن يكن فى الحديث عن « الرافعى العاشق » حرجٌ فلا على ؛ فقد استأذنته
فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ؛ ولدى شهودى
من كتبه ورسائله وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعى قد خفت
صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى
لمؤمن شديد الإيمان بأننى ما أزال فى رضاه ومنزلى عنده ، وإن كان بيننا هذا
البرزخ الذى لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثى !

الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث .
أما الحب الذى أعنيه - وكان يعنيه الرافعى - فشيء غير الحب الذى يدل
عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل . . .

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعى هو
حيلة النفس إلى السموات والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ، هو نافذة
تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانية
السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنور فيه الأفق المنير فى جانب
من النفس الإنسانية ، هو نبوة على قدر أنبيائها : فيها الوحي والإلهام ، وفيها
الإسراء إلى الملا الأعلى على جناحي مَلَك جميل . . . هو مادة الشعر وجلاء
الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الرافعى ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقا بإرادته لبحث في الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أُغلق الباب من دونه فظل يرسف في أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب . وكانت « عصفورة » أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ، وهى فتاة من « كفر الزيات » لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة ؛ فهفا إليها قلبه ، وتحرك لها خاطره - وكان للرافعى فى صدر شبابه على « جسر كفر الزيات » مَعْدَى ومراح ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، وجاشت نفسه بمعانى الشعر .

ومن وحي هذا الحب كان أكثر قصائد الرافعى الغزلية فى الجزء الأول من الديوان ؛ ومنه كان ولوعه فى صدر أيامه بلقب شاعر الحُسن ! وبلغ الرافعى بعصفورة إلى غايته ، واشتهر « شاعرُ الحسن » وترنم العشاق بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها - ثم مضى كل منهما إلى طريق ، وأتم الرافعى طبع ديوانه .. وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد - كذلك انتهى حب الرافعى وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجب من ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلى أن الرافعى كان كلما أحس حاجة إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى نتحاب لأن فى نفسى شعرا أريد أن أنظمه ، أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟
(٧ - حياة الرافعى)

على أن الرافعي كان له إحساس عجيب في مجالس النساء ! وكان لهن عليه سلطان وله عليهن سحر وفتنة . وهو في هذه المجالس فيك مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرزان في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أدواته في استمالتهم حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعرا في عين ساحرة ، فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشئ وينظم وتنتهي قصة حب .

وكان يسمى كل جميلة « شاعرة » لأنها تمنحه الشعر ، و « الشواعر » عنده طبقات ، على مقدار ما يبعث فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ فقلانة شاعرة كالمتنبى وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومي ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبد الله عفيفي أو شاعر الرعاع ...

وحين يجلس في الشرفة من قهوة « لمنوس » بطنطا وتمربه الجيالات في رياضتهن أوفى حاجتهن ، تسمع ثبثا حافلا بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهي بفلان الذي يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !
هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعد عن حب الرافعي الذي أنشأت هذا الفصل للحديث عنه .

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خالقا جديدا ؛ كانت دعاية من مثل ما قدمت فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلف في قلبه جرحا يدعى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية .

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها

وما خبرها ؟

هو وهى ... !؟

— « لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس ، ولكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشاخ : كأه ما خلق ذلك الخالق المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه . . . كوني من شئت أو ماشئت ، خالقاً مما يكبر فى صدرك أو مما يكبر فى صدرى ، كوني ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفعى نفع المطر الذى يلبس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلبس بالعين ، ولكن دعيني فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين . كوني ما أريدت نفسك . ولكن أشمري نفسك هذه أنى لإنسان . . . » (هو)

— « إن أمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنى وإلا ضل ضالك أيها الحبيب . . . » (هى)

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته . . . »
« كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه مانشر وطوى منه ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحي للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛ فكل ما فى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه » (١) .

لم تكن « هى » (٢) أولى حبائبه ولكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلف وراءه أربعين سنة ونيفاً حافلة بأيام الهناءة ، مشرقةً بذكريات

(١) رسائل الأحزان .

(٢) كذلك كان يرسم اسمها ولا يصرح به ، فإذا أبدل القارئ حرفاً بحرف فقد عرف من « هى » ، وقد ماتت « هى » ، عذراء فى سنة ١٩٤١ - بعد موته بأربع سنين وبضعة أشهر - وكانت خاتمتها مأساة !

الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرٌ غلام يخطو إلى الشباب (١) .
سعى إلى مجلسها يوم « الثلاثاء » سعى الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتمس
فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء خاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل « الثلاثاء »
هو ندوة الأدب وجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليها ، وتحدثت
إليه ، وكان كل شىء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولمسه الحب لمسة ساحر
جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته
إلا لتعذر إليهم فتعود إليه ... ثم قامت تودعه إلى الباب وهى تقول : « متى
تكون الزيارة الثانية » ؟ . فتهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... !
ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما اقتربا من بعدها إلا على ميعاد ؛
ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف ، لتتألى هى نفسه
بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها
وصواحبها غير مُصَيِّفٍ (٢) مشغلة فى الليل والنهار .

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن
منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبت إليه ، على
أن يكون له عوض مما فاته يوم وحده ...
كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف فى سبيله شىء ، ولكنه حب ليس من
حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية .

(١) أحسب سنّها فى ذلك الوقت كانت بضعا وعشرون سنة .

(٢) يزعم الرافعى أن (مصيف) هى تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم وصوابه
صنى (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً على
استعماله لأنها هى رضيته وكانت تتجيب به إليه ... فلا كان سيديويه وأبو على
وأبوحبان إن رضيت هى .

لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح، وقد وجدتهما، ولكن في نفسه لافي لسانه وقلبه، وأحسَّ وشعر وتنوّرت نفسه الآفاق البعيدة، ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذى يصف نفسه ويبين عن خواطره ...

بلى، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعره وبيانه، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعرا وكتابة، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتا، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان.

و «هى» أديبة فيلسوفة شاعرة؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه «من خصائصها أنها لا تعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعروض وجمال العبارة؛ وهذا هو الحب عندها ...»

«... ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام المفنّن المشرق المضى بروح الشعر؛ فهو حلاها وجواهرها؛ وما السوق حبها من دنائير غير المعاني الذهبية؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد، ولكن خفقة قلب على قلب، (١)

وكذلك تحابّا؛ وتراءيا قلبا لقلب، وتكاشفا نفسا لنفس، ومضى الحب على سنته، ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون

أسعد بما هو لو أنها... لو أنها كانت زوجته... (١) ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت. وقالت له نفسه كلاما وقال لنفسه كلاما آخر، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق، فلم تكد القصة تبلغ نهايتها وتنحل العقدة، حتى جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة...

وراح الرافعي يوما إلى ميعاده. وكان في مجلسها شاعر (٢) جلست إليه تحدثه ويحدثها؛ ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثا بذاته، وجلس الرافعي مستريبا ينظر؛ وأبطأت به الوحدة، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه، وقالت له نفسه: «ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف...؟»، فاحمر وجهه وغلى دمه؛ ورمى إليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب... واستمهله فما تلبث، وكتب إليها كتاب القطيعة...

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة، ولكن الرافعي حين وجد كبرياه نسي حبه، وكان هو الفراق الأخير...
كان ذلك في سنة ١٩٢٣.

وثابت إليه نفسه رويدا رويدا، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل
الأحزان!

(١) انظر الفصل الذي عقدهناه بعد بعنوان «من شؤنه الاجتماعية» فقد أشرنا هنالك إلى بعض وسائله ليستدرجها إلى الرضا به زوجها، على أنها وقد كانت مسيحية لبنانية الأصل، وهو المسلم السلفي المتحرج - كانت أبعد عنه في عرف الحياة، ما يأمل!
(٢) هو المرحوم اسماعيل صبرى.

ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، لم يلتقيا وجهها لوجه ، إلا مرة ، في حفل أدبي في طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر (١) ...

على أن الرافعي لم ينس صاحبه قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك وما تبرح خاطره لحظة ؛ وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين « فلانة » (٢) ثم يطرق هنيئة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول ؛ « هل يعود ذلك الماضي ؛ إنها حماقتي وكبريائي ، ليتني لم أفعل ، ليت ... ! » . ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام في سنة ١٩٣٦ تستشفى فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها في لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة في « دمشق » لتزورها في مستشفاهها (٣) وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه (٤) :

« بالصدق يا صديقي أنني كلما استعدت بذاكرتي وصية « فلانة » المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، اعترتني حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت في مثل هذه الحالات يُعدّ كنزا ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإني

(١) كانت مدعوة لتخطب في المهرجان السنوي لجمعية الإحسان السورية في طنطا فالتقيا على المسرح ولكن لم يتحدث أحدهما إلى صاحبه حديثاً إلا أن يكون لحظ الأعين ، على أن الرافعي لم يطق البقاء طويلاً بعد ، وخذلته أعصابه ، فأثر الفرار قبل انتهاء الحفل ، بل أحسبه أثر الفرار قبل الابتداء ! .

(٢) كذلك نسميها « فلانة » منذ الآن ، ضنا بسرّها الذي لم تاذن في نشره .

(٣) مستشفى العصفورية .

(٤) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاء

من أنباء صاحبه .

أتهمك قانونا . . . بأنك كنت سبب جنونها ، فماذا كان عليك لو لبيت الدعوة ؟
آه ، لقد كنت قاسيا وفي منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ،
وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا ، بل
حين تعتقد أن الرجل . . . لا ، السكوت أولى الآن . . .

أما هذه « الوصية » التي تشير إليها الكاتبة في رسالتها ، فلست أعرف ماهي ؛
فلم تقع لي كل رسائل الكاتبة ، ولست أعرف أين كان يخبئها الرافعي من
مكتبه ، ولعل ولده « الدكتور محمد » يدرى ، فإن كان ، فإن عليه حقا للأدب أن
يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتي يوم تكون فيه هذه الرسائل
شيئا له قيمته في البحث الأدبي .

* * *

قلت : إن الرافعي قطع ما بينه وبين صاحبه منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا
فيها إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لا يحملها ساعي البريد ،
لأنه كان ينشرها وتنشرها في ثنايا ما تنشر لها الصحف من رسائل أدبية ، يقرأها
قراءؤها فلا يجدونها إلا كلاما من الكلام في موضوعها من الحديث أو المقالة أو القصة ،
ويقرأها المرسل إليه خاصة في فهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك :
حشوا من فضول القول في حديث أو مقالة أو قصة . هي رسائل خاصة ولكنها
على أعين القراء جميعا وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفي أكثر من مرة
والرافعي يملأ على مقالاته - كان يستمهلني برهة ليعيئ في درج مكتبه قليلا
فيخرج ورقة أو قصاصة يملأ على منها كلاما ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ،
وأعرف ما يعنيه فأبتسم وابتسم ، ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث
أن نجد الرد في رسالة تكتبها « فلانة » فيتلقاها الرافعي في صحيفتها كما يفض العاشق

رسالة جاءت في غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء...
هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضاياها ، وأحسب ذلك نوعا من
الكبرياء التى ربطتهما قلبا إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة
الوجد والحنين !

وكنت أسير مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فلما انتهينا إلى
القرب من مبنى جريدة « الأهرام » ، قال لى : « ملّ بنا إلى هذا الشارع » ،
ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ، ولكنى أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف
الرافعى معتمدا على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه
دارها ، من يدرى ؟ لعلها الآن خلف هذه النافذة ... ! »
قلت : « مَنْ ؟ » قال : « هى » ، ! .

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعا ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »
قال : « لعلها الآن فى السيماء . إذا كان الصباح فاغدُ على مبكرا لنزورها
معا ، إن بى حيننا إلى الماضى ... ليتنى ... ولكن أترى من اللائق أن
أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيرا بقلبك ... ! »
قال : « إذن فى الصباح ، وستكون معى ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك
على قلبك ... أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! »
قلت : « لا إنها عجوز ، فما حاجتى بها ... ؟ » ، وضحكتُ مازحا .

فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وى ! عجوز ! إنها أوفر شبابا منك ! »
قلت : « قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ اثنتى عشرة سنة ... ! »

قال : « صدقت ... اثنتى عشرة سنة ... »

وسكتَ وسكتَ حتى أوصلته إلى دار أخيه على شاطئ النيل عند فم الخليج ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته مواعده ! فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول : « يا بنى ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما (هذه) فأظننى لا أعرفها ... إننى أحذر على الماضى الجميل أن تتغير صورته فى نفسى ... بحسبى أنها فى نفسى ... »

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه النبأ أنها سافرت إلى الشام لعله فى أعصابها ... !

شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء

- ١ - « إن في الرجل شيئاً ينقذ المرأة منه وإن ملك بحبها ، وإن هدمت عينها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهماً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم إذا كان كريماً ؛ فوالذى نفسى بيده ، لا تموذ المرأة بشيء من ذلك ساعة تجن عواطفه وينفر طائر حمله من صدره ، إلا عاذت - والله - بماذا يحبها ويصحبها ويمد على طهارتها جناح ملك من الملائكة » .
- ٢ - « ... ويسرف على بغضها أحياناً فأتلّف عليها في زفرات كعصاة الحريق حين ينطبق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جذرائها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبه في مثل غمرات الموت وسكراته يتطرح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين رقعة تفجأ وبين عافية تتحول ، وكأني لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... ! »
- ٣ - « لفتها وما أريد الهوى ولا أعمده قلبى ، ولا أحب أن فيها أموراً ستؤول مآلها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا يفضى إليه ، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضى إليك ، ولكن حين توجد المعجزة نبطل الحيلة ؛ ومتى استطرّدك القدر الذى لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر » .
- ٤ - « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سلبلى أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرقة ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرقة ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التى أشهد لها ... ! »
- ٥ - « ... دعنى أقول لك : لاني أبغض من أحبها ... وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم » .
- ٦ - « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنسانى إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم في الحب ! »
(الرافعى)

أترى صوتى يبلغ إليها حيث تقيم بالشام شاردة الخيال مستطارة القلب (١) ؟
أم ترى صوتى يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا هذا القدر من عمر الزمان
كأنه من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟

إنه ليخيّل إلى أن هذا الحديث الذى أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب

(١) كتب هذا الفصل في سنة ١٩٣٧ حين كانت فلانة في الشام تستشفى ، وقد نشرته مجلة « الرسالة » وقتئذ ، ثم نشر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكانت لم تزل في الشام تستشفى !

إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذى أحبها أعنف الحب وأرقه
وما تراءى لها مع ذلك فى عمره الطويل إلا الرجل القاسى الذى حطم قلبها
بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة ، فنفذت روحه من أقطار
السموات لتليها على وفيها المعذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! ... فهل كنت ... ؟ ولكن ...
ولكن لا سبيل إلى ما فات ! ...

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حبا أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛
ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى
الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح فى مناجاة طويلة
كأنها تسبيح وعبادة ، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد فى غمراته خلقا بلا
إرادة فليس له من دنياه إلا « هى » ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !
والرافعى رجل - كان - له ذات وكبرياء ، فأين يجد من هذا الحب ذاته
وكبريائه ؟ هكذا سأله نفسه !

وأحبها أديبةً فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق فى واديه ،
وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق فى آفاق الشعر والحكمة والخيال ، فما التقيا
مرة حتى كان حديثهما فنونا من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلًا من لغة
العشاق فى همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب ياعزيزتى ... »
قالت : « إن فلسفة الحب ... »

قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه ... »

قالت : « دع عنك يا حبيبي .. إن أحلام الحب هي شيء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ »

فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب ؟ وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذي في نفسي ! »

وتحدث ضميره في ضميرها فابتسمت وهي تقول : « أنا ما أحببتك رجلاً بل فكراً وروحاً ونفساً شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي ؛ فلا تلمس في طباع أنثى وإلا ضلّ ضلالك أيها الحبيب ... ! »

قال : « فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تُطيف أبداً بك ، وروحاً ترفرف حوالبك ، ونفساً تغترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ... ؟ »

قالت : « دع عنك ذكر عيني يا حبيبي ؛ إن الحب ليس هناك ، إن الحب .. » قال : « لا تحدثني عن الحب ، يخيل إليّ أني أعرفه لأنني أجد مسّه على قلبي كذع الجمر ، ولكن آه ، ولكنك أنت ... »

وقالت له نفسه : « إنك يا صاحبي تضرب في بيداء ؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب ، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ فلن تجد بذلك منها الحب ؛ إن الحب من لغة القلب ، أما هذه ... »

وكان يحبها أديبةً فيلسوفة شاعرة ، فعاديبا عديده وبينها أنها فيلسوفة شاعرة !

وهي امرأة كانت - إلى أدبها وفلسفتها - « فتنة خلفت امرأة ، فإذا نظرتُ إليك نظرَتها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأتِ إليّ فأنا آتية إليك ... وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادتها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ... »

« رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ،
فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ... »

« أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة ؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك
تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع ، فلا تعثر فيهما بالسر ولكن
بالحب وتنظر نظرة الغزال المذعور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا
يتوجس في كل حركة صائدا يطلبه ... (١) »

والرافعى رجل كان - على دينه وخلقه ومروءته - ضعيف السلطان على نفسه
إذا كان يزاء امرأة ؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك
دمه وتنفعل أعصابه ؛ وما كان - رحمه الله - يرى في شدة الإحساس بالرجولة
وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طرقي النبوغ ؛ أو أحد
طريقي النبوة كما كان يقول ؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها
في نفسه إلا أن يسرع في الفرار . وكثيرا ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه
الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... ! »

وقالت له نفسه : « ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء
ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ... ! »
فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده بل وجد
الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد في كل أولئك ينايع من الشعر
والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضيء بها فكره ، وكان آخر حبه

الآلم ، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...
وقالت له نفسه : « ها أنت ذا قد بلغت من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق
إلا الغاية الثانية وإنك عنها لعف كريم ... ! » .

وهي فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شيء من
تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع ،
يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتات لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر
الشعر وعطر المرأة الجميلة ؛ أفتراهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى
منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث ؟

والرافعي غيور شمس كثير الأثرة ، لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة
وقالت له نفسه : « أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا
هوى وحيبا ... ؟ » .

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أن له ذاتا
وكبرياء ، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه في امرأة ؛ ومن أجل أنها فيلسوفة
وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب في قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أثى وأنه
رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد
الآلم في حبها فوجد ينبوع الشعر الذي كان يفتقد ؛ ومن أجل أنه الرافعي
الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وُحِيلَ إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة ١٩٢٤ أنه يبغضها ،
وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس عاما بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه

القدر في مَدْرَجَةِ الفناء ، وأنّ نفسها كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...
وأحس في نفسه حديثاً طويلاً يريد أن يُفَضِّي به ، وشَعَرَ كأن في قلبه ناراً
تَلْظِي ، واصطُرعت في نفسه ذكريات وذكريات ، وَخَيَّلَ إليه أنه يكاد
يَخْتَنِق ؛ فصاح من كل ذلك مغیظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إني أبغضك ...
إني أبغضك أيتها المحبوبة ! » .

ليت شعري ، أكان الرافعي يعنى مايقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه
يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبراً من كبريائه العاتية فسماه البغضَ
وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر
ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شيء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعي صاحبه يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه
من وثاقها ، وما هذه الثورة التي ألهمته كتابيه « رسائل الأحران » ، و « السحاب
الأحمر » ، إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛
فلما ثابت إليه نفسه نزا به الحنين إلى الماضي ولكن كبريائه وقفت في سبيله ،
فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزي بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبه إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوة إلى حفلة خيرية لتخطب ،
وكان الرافعي مدعواً لمثل مادعيت له . وعلى غفلة آلتقت العيون : فدار رأس
الرافعي وذهب به ؛ وعاد الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت
نفسه زلزالاً شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت
الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقاً إلى
الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودّع
صاحبه بعين تختلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت « هي » تدير عينيها في المكان فما استقرتا على شيء ؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعي ؟ » ، فما وجدت جوابا وكان الرافعي وقتئذ جالسا إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب وكان آخر لقاء

* * *

ولقيتُ الرافعي في خريف سنة ١٩٣٢ ، فسرحتنا في الحديث عن الحب ، فكشف لي عن صدره في عبارات محمومة وكلمات ترتعش ، ثم قال : « وإن صوتا ليهتف بي من الغيب أن الماضي سيعود ، وأنتي سألقاها ، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : في يناير سنة ١٩٣٤ » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهرا سيكون هذا اللقاء إن قلبي يحس ، بل إنني لموقن بعد أربعة عشر شهرا ، في تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضبا ، سنلتقي ثانية ويعود ذلك الماضي الجميل ، إنها تنتظر ، وإنني أنتظر » وظل على هذا اليقين أشهرا وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد !

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهرا بعدها ، وما تحقق أمله في اللقاء حتى لقي الله !

* * *

هذا هو الرافعي العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما هي ، أما صاحبتة التي كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ؟ وماذا كانت غايته ؟

هي وهو ... ؟ !

« أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شائكة فجلسنا مع الجالسين لم تقل شيئا في أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلوبهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقى بعد فراق طويل ، كأن في كليتنا قلبا ينتظر قلبا من زمن بعيد ؟

« ... ولم تكده العين تكدهل بالعين حتى أخذت كتابها أسلمتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ... ؟

« وقلت لي بعينيك : أنا ... وأنت لك بعيني : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمتنا ؟
« وتعارفنا بأحزاننا كأن كليتنا شكوى تهم أن تفيض ببثها ؟

« وجذبتني سحتتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها ؛ فإذا هو إعجاب ؛ فإذا هو إكبار ؛ فإذا هو حب ؟

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفا كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمتنا مرة ثانية ...

(هي)

* * *

« ... بماذا أصف مكانا للحب كأنما صر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصانا من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لبعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنني بازاء سر وضعي في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك ...

« وهاجنتي من يقظتي واقتحمت على من حذري ...

« وخليتني وعينيك ، وخليتني وما كتب على ...

« واثمت روعي لتشمك ، فما كنت تكلمين ولا تضحكين ولا تخاطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي ...

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعاقب أمامنا ويلثم بعضها بعضا من حيث لا يراها إلا عيناي وعيناك .

« وترامت النفسان فلأنا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر .

« وقلت لي بجملة لك : أنا ... وقلت لك بجمليتي : وأنا ...

(هو)

إنى لأعرفه عرفانى بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطنى
بنفسه زمنا فإنى لأسمع نجواه وأقرأ سره وأعرف ذات صدره ، فما أصف من
حبه إلا مستيقنا كأنما أنقل عن لوح مسطور فى فؤادى ، أو أثبت من حادثة
فى تاريخ أيامى ماثلة فى نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها
شئ . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث
وجلوته على القراء فى بيان سافر كإشراق الضجى ، ولكن ... ولكنها هى ...
أما هى فما فى يدى شئ من خبرها إلا ما حدثتني به الرافعى أو حدثتني رسائله ،
فما أتحدث عن حبه إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققا يضع كلمة
إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس فى يده من
حقيقته شئ إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأى وملايسات الحادثة .

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم ،
وحسبى هذا مقدمات إلى النتيجة ؛ وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن
يصل إلى آخره .

لقد التقيا وما بينهما شائكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها
حتى ارتبطا قلبا إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرهما
الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه ،
فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدثت عن أحلامه . فكان
الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن
نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفوا من
ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هى فى

المستشفى تتمرّض من وهن في أعصابها !

* * *

لم تكن « هي » ، تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أدبية تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذي تعجب به ويفتنها بيبانه ، فأحبته (عقلاً جميلاً) كما تسميه في بعض رسائلها ...

وكان سعيه إليها يلتبس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلوها البيان ، هكذا تقول في بعض رسائلها ...

* * *

وهي فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تُضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حوالياً لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلف والتجيب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعي وتحدث إليه ، وقصّت عليه من أحزانها ، فاخضلت عيناه وأطرق ، فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سأدعوك أبي وأمي متيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسأدعوك

قومي وعشيرتي ؛ أنا التي أعلم أنّ هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ؛ وسأدعوك أخى
وصديقي ، أنا التي لأخ لي ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى
المعونة أنا التي تتخيل فى قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت
لا تدرى !... » (١).

وأحبته (صديقا) تفرع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

وهى الفتاة التى لم تعرف فى حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من
دنياها إلا الجذ الصارم ؛ ولم يكن لها من عمل غير الاستغراق فى الفكر ،
أو الاستغراق فى الفن ؛ وإنها لأثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعى رجل - كان - لا يحمل من هم ، فما يدع المزاح والدعابة وإن
الدنيا لتضطرع حواليه وإن كانت القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل
فى أجدد الجذ وأخرج الساعات هزله فى أصنى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه
ذوهم إلا سرى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذى تسيطر عليها
روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ...

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له فى نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنه

(١) ما بين القوسين « من عبارتها فى بعض رسائلها ، وقد ضمنها بعض ما
يتداوله القراء من كتبها ، ونشرها الرافعى فى بعض فصول كتابه « أوراق الورد »

الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ، ولحته
يتسم ، فحذبتها إليه ابتسامته لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاة الرجال ؛ ونظر إليها
ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛
وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها ؛ وأحست في نفسها إحساساً
ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب له (١) :

« سأستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك
وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ؛ وسأسمع إلى جميع الأصوات
على أثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمدح الصائب
من الآراء ليتعاضم تقديري لأرائك وأفكارك . . . وسأبتسم في
المرآة ابتسامتك .

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول
عن الآخرين إليك لأفكر فيك . . .

« سأخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف
تخزن ، وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة
وحرارة إلى الانفعال النبيل . . .

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخورا ، لأنك أوحيت إلى ما عجز
دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذى لا تعلم ! أتعلم ذلك ، أنت الذى
لا أريد أن تعلم . . . ! » .

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذى فجر لها ينبوع

(١) من الرسالة التى أشرنا إليها فى الصفحة السابقة .

الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذي وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافا إلى الرفيق الأنيس الذي كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حبا يستأثر بنفسها ويسيطر عليها في غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلَّها الهوى وأضلَّه ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع محلا لو أنها منعتة بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع ؛ وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقريّة ؟ » ، وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبه ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعدُ أنه يحبها حبا لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعدُ أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجراً مما كان ...

وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التي استعصت على الأحياء ...

تعقيب (١)

... هذه قصة الرافعي وفلانة ، كما رواها لي ، وكما يعرفها كثير من خاصته .
وإني لأعلم أن كثيرا ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة
هذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ، وسيقول قائل ، وسيدعي مدع ،
وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل ؛ ولا على من كل أولئك ما دمت أروى
القصة التي أعرفها ، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير أي تأثير يُردُّ
إليه أكثر أدبه من بعد . وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة
الحب والجمال في كتبه الثلاثة : رسائل الأحران ، والسحاب الأحمر ، وأوراق
الورد ؛ وحسبي أنني قد تمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على
أسلوب من العلم جديد !

على أنني مسئول أن أبرئ نفسي أمام قدس الحق ؛ فأعترف هنا بأن مارويت
من هذه القصة كان مصدره الرافعي نفسه ؛ مما حدثني به وحدث أصحابه ، أو
مما جاء في رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته ؛ وما بي شك فيما روى
من هذا الحديث ، فما جرت عليه الكذب ، ولا كان هناك ما يدعوه إلى
الاختراع والتزويد كما يزعم من يزعم ؛ ولكنها حقيقة أثبتها للتاريخ ، لعل باحثا
مدققا يوفق في غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له .

على أن الرافعي قد أقراني رسالة أو رسالتين بخط «فلانة» إليه ؛ وهما وإن

(١) نشرنا هذه الفصول في مجلة « الرسالة » ، قبل أن نذيعها على القراء في كتاب ،
وقد تناولها بعض القراء بكثير من الشك وغير قليل من الدهشة ، وكتب أدباء في مصر
والشام وبغداد يحاولون التشكيك في بعض ما أذعت من الحقائق أو يحاولون التعليل لها
وتحدث إلى آخرون معقبين أو مستفسرين ، فلهؤلاء وأولئك جميعا كتبت هذا التعقيب

لم تدل دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ، لا تنفيانها كذلك ، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفي ؛ والحذر طبيعة المرأة !
ثم إن الرافعي لم يخصني وحدي برواية هذه الحادثة ؛ فإن عشرات من الأدباء في مصر قد سمعوها منه ، ومنهم من يعرف « فلانة » معرفة الرأى والنظر ، ومنهم من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة ؛ ومنهم من كان الرافعي يقصد بالحديث إليه أن يكون بريدا بينهما ينقل إليها حديثه شفة إلى شفة . وفي الناس بُرْدٌ إن لم تزد على ما سمعت من حديث الحب لم تنقص منه شيئا ! فلو أن الرافعي كان يتزيد فيما روى لي ولأصحابي من حديث هذا الحب لخشي مغبة أمره ؛ وإن « فلانة » يومئذ ذات جاه وسلطان !

وئمة برهان آخر لا يتناوله الشك : هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعي من كتاب من كتبها المعروفة لا أسميه ، إلى كتابه أوراق الورد ^(١) ؛ يزعم أنها رسالة منها إليه في كتاب ، جوابا على رسالة بعث بها إليها - وكانت هذه بعض رسائلهما في المراسلة كما رويت من قبل ^(٢) - وأوراق الورد معروف مشهور ؛ وكتابها معروف مشهور كذلك ؛ ومما لا يحتمل الشك أن تكون « فلانة » لم تقرأ هذه الرسالة في كتاب الرافعي ولم ينبها أحد إليها ، وأبعد منه في الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك في كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعي ؛ ولا شيء وراء ذلك إلا أن تكون قرأت ، وفهمت ، وسكتت ؛ ولا شيء بعد إلا أن يكون بينهما شيء يؤيد مارواه الرافعي من قصة هذا الحب ... !

(١) أوراق الورد ص ١١٣ - ١٥٠ ، وتقرأ فقرات منها في هذا الكتاب قد أشرنا فيه إلى موضعها ص ١١٦ - ١١٨ (٢) ص ١٠٤ - ١٠٥ من هذا الكتاب

• • •

على أن اعتراضات ثلاثة توجهت إلى ما رويت من هذه القصة ، لا بد من التنبيه إليها : أما أحدها فمن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ؛ فهو ينكر على أن أستند إلى هذه الرواية ، ويروى لي أنه صحب الرافعى فى أولى زياراته لفلانة ، وشهد ما كان من تأثر الرافعى وانفعاله وجذبه ؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعى وفلانة صلة بعد هذه الزورة ، ويصحح ما رويته عن الرافعى - وكان من سامعيه - بأنه حب من طرف واحد ، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشبهه للرافعى ما شبهه ؛ فما يحكيه هو صورة ما فى نفسه لا صورة ما كان فى الحقيقة ... !

فالرافعى عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر ؛ وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعى وفلانة بعد الزورة الأولى لا ينفى أن الصلة كانت حقيقة ولم يعلم بها ؛ فحديثه من ثم لا ينفى شيئا ولا يثبت ، ويبقى بعد ذلك ما يستنبط من رأى على هامش القصة .
وقريب مما يرويه الأستاذ جورج ، ما تستنبطه جريدة المكشوف فى بيروت فى حديث تناولت به بعض مانشرنا من قصة حب الرافعى .

• • •

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف - محرر المقتطف -
على ما رويناه ، قال :

« لقد سمعت هذه القصة من الرافعى كما رويتها ؛ فما أشك فى صحة ما تكتب ،
ولكنى أسأل : هل كانت « فلانة » تبادل الرافعى الحب ... ؟ »

« هاك خبرا يدعوك معى إلى هذا السؤال :

« فى يناير من سنة ١٩٣٤ - أو ١٩٣٥ - دعتنى « فلانة » إلى مقابلتها ؛ فلما شخصت إليها رأيت فى وجهها لونا من الغضب ، فدفعت إلى رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعى إليها لأرى رأى فيهما ؛ ثم قالت : ماذا ترانى أفعل لأذود عن نفسى ؟ أترانى أتقدم فى ذلك إلى القضاء ؟

قال الأستاذ صروف : « فاعتصمت بالصمت من لا ونعم ، وتركت لها أن تستشير غيرى ؛ ولست أدرى ما كان بعد ذلك ا » .

قلت : وهذه رواية جديدة بأن تذكر - ومعدرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف - على أنها لا تدل على شىء فى هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها فى سنة ١٩٣٤ أن يتحجب إليها الرافعى ؛ فماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين ؟

أىكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف - صلة بما كان فى نفس الرافعى من يقين بأنه سوف يلقي فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة (١) .

أعنى : هل حاول الرافعى - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلبا يستجيب لدعائه ؟

على أن هذا الخبر - أيضا - لا ينفى شيئا ولا يثبتته ؛ ولكنه يفتح بابا إلى الاستنباط والرأى .

ولكن مما لا شك فيه أن الرافعى لم يكن يعلم شيئا عن وقع هاتين الرسالتين

(١) اقرأ ص ١١٣ من هذا الكتاب .

في نفس صاحبته : ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل على مبلغ استيائها من هاتين
الرسالتين ، وإلا لما ظل يتعلق بالأمل في لقاءها إلى شتاء ١٩٣٥ ، وكنت معه
لما هم بزيارتها (١) .

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكي مبارك . وما كان لي أن أثبتته هنا
لولا أن أثبتته هو في كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب (٢) ، ولولا أن
أشار إليه في مقالات نشرها في مصر وفي العراق وفي بيروت !

والدكتور زكي مبارك أديب مشهور ، وليكن آفته - ولكل أديب آفة -
أنه يدس أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه : وهو قد شاء أن يحشر نفسه في
هذه القصة التي لا يهيمه منها إلا أن يعلن للناس - والإعلان عن نفسه
بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى « فلانة » جنباً لجنب في الجامعة
المصرية بضع سنين !

وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زكي مبارك جنباً لجنب إلى فلانة أو إلى
نساء الأرض جميعاً - كما يريد أن يتعامل عنه الناس في أكثر ما يكتب - ولكنه
يزعم أن ما كتبناه عما كان بين الرافعي وفلانة ليس من الحقيقة في شيء ، لأنه
كان يجلس مع فلانة جنباً إلى جنب في الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوماً أن
حباً كان بينها وبين الرافعي !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة في أدب الدكتور زكي مبارك ، فليقرأ
هذه الحجة ؟ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكي مبارك لا يجلس

(١) انظر ص ١٠٥ - ١٠٦ من هذا الكتاب .

(٢) كتاب « وحي بغداد » للدكتور زكي مبارك .

إلى (فلانات) ولا يجلس إليه (فلانات) إلا ليحدثنه عما كان لهن من جولات
في ميادين الحب يسألنه الرأي والمعونة !
وليدع القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن العُرى والعِراة ، وعن « الأديب
العرِيان ... » الذي روى هذه القصة .
وعفا الله عن أهل الأدب !

هذا كل ماتلقيت من اعتراض المعترضين من أهل الأدب أو من أهل
الدعوى ؛ وعلى أيّ الوجوه انتهى رأى الأدباء في تحقيق هذه القصة ، فإن بما
لا شك فيه أن الرافعي كان يحب « فلانة » ؛ وهذا حسبي ؛ فما يعنيني من هذا التاريخ
إلا إثبات المؤثرات التي كانت تعمل في نفس الرافعي فتلهمه الشعر والبيان ؛
أما هي وما كان منها وحقيقة عواطفها ، فشيء يتصل بتاريخها هي بعد عمر مديد !
ونعود إلى تنمة القصة بالحديث عن كتب الرافعي في فلسفة الجمال والحب ؛

رسائل الأحزان

« هي رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ، ثم لأنها من اسان كان سألما يترجم عن قلب كان حربا ؛ ثم لأن هذا التاريخ العزيز كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا إلى قبر ... ! »
الرافعي

خرج الرافعي من مجلس صاحبه مغضبا على ما رويانا : في نفسه ثورة توج ، وفي أعراقه دم يفور ، وفي رأسه مبرجل يتلهب : وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعي البريد ، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوء لفكره ، ولا راحة في أعصابه : وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبه أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه : وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحدا يبثه أحزانه ويفضي إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاما بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغرب ، بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه ؛ وثقلت عليه الوحدة وضائق بها نفسه ، ففزع إلى قلبه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من «رسائل الأحزان» إلى صديقه الذي خصه بسرّه ... إلى نفسه ...

وترادفت رسائله من بعد مسهبة ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبه ، في أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و... وذلة المحب المفتون يستجدي فانتته بعض العطف والرحمة والحنان .

بدأ الرافعى كتابة « رسائل الأحزان » فى يناير سنة ١٩٢٤ ، وانتهى منه فى مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤ .

* * *

يخاطب الرافعى نفسه فى « رسائل الأحزان » على أسلوب « التجريد » فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفا من الرسائل يدير عليها أسلوبا من الحديث فى رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعى ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أو قل : إن الرافعى فى هذه الرسائل جعل شيئا مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبتة ثم نشرها كتابا تقرأه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهى رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

وفى بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفها الآلية بين نداء القلب وكبرياء الخلق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته ؛ « إنه يحبك » يعنى : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذا الأسلوب تحدث الرافعى عن نفسه بضمير الغائب فى رسائل الأحزان .

« أنا ... » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعت فى نبره معنى شموخ الأنف ، وصغر الخد ، وكبرياء الخلق ؛ لا يؤدى فى لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم ... » !

يا عجباً للحب ! كل شيء فيه يحول عن حقيقة حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعى يقول فى رسائل الأحران : « هو » ويعنى : « أنا ... » لأنه لا يريد أن يبتذل كبريائه فى لغة الحب ... !



إننى أحسب الرافعى لم يكتب رسائل الأحران لتكون كتاباً يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأه هى ، وهى كل حسبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ؛ وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئاً فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشروء الخاطر .

ولم يكتبها - كما يزعم - رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها فى فن من فنون الرسائل لم يؤثر مثله فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحران » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان

المصنوع تكلفه كاتبه يحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقية قصة لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وُصِّلَ الكتاب رماداً في بقايا النار . . .

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعي أنشأ في العربية أدباً يستحق الخلود .

* * *

قلت : إن الرافعي أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هي ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التي قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردت صاحبة ردّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثت بها إليه مع بائع الصحف والمجلات . . . ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب . . . !

وسياتى يوم يُدرس فيه أدب فلانة صاحبة الرافعي ، وسيجد الباحثون يومئذ لونا لذيذا من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها ؛ وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسة مما نشر ونشرت في الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٣٦ .

أيها الباحث الذي سياتى أوانه ، ابحث عن حشو القول وفضول الكلام (٩ - حياة الرافعي)

في مقالاتها ومقالاته ، واقرن تاريخنا إلى تاريخ وسببها بسبب ، لتنشر لنا رسائلها
ورسائله في كتاب ...

أراني لم أتحدث عن « رسائل الأحران » كما يتحدث كاتب من الكتاب عن
كتاب من الكتب ، فليس هذا إلى ، وإنما قدمت وسائل القول لمن يريد أن
يقول ؛ وأحسب أن كلاما سيقال عن رسائل الأحران من بعد غير ما كان
يقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين لن يكرر مقالته التي قالها فيه من قبل ،
يوم أشهد الله على أنه لم يفهم منه حرفا ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي
لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوروبا ... »
لأنه سيجد مجالا للقول في غير معانيه وبيانه .

ولكن في رسائل الأحران شيئا غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن
الرافعي - رحمه الله - كان ولوعا بأن يضيف إلى كل شيء شيئا من عنده ؛
وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب .

سيجد الباحث في رسائل الأحران عند بعض الرسائل وفي هامش بعض
الصفحات من الكتاب ، كلاما وشعرا لا يتساوق مع القصة التي رويت ؛ إلا أن
الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحيانا فيستطرد إلى ما لا يريد أن
يقول ، ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها
أشبه ، أو لأن تعبيره جميلا وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه
من الحادثة ، فإن رأى الباحث شيئا من ذلك فلا يداخله الريب فيما أثبت من
الحقيقة التي أرويها كما أعرفها .

وسيجد في بعض الرسائل حديثا وشعرا عن لبنان وأيام في لبنان؛ وما عرف الرافعي صاحبتة إلا في مصر وإن كان مولدها هناك. فليذكر من يريد أن يعلم، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان. وكان بعض من أحب قبلها فتاة أدبية عرفها في لبنان، وهي سمية صاحبتنا هذه؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في «أوراق الورد»، وهي التي أنشأ من أجلها كتابه «حديث القمر»، على أن عمر الحب لم يطُل بينهما، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك - وما تزال - فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذكر أيام هناك، فهو بقية من ذكرى صاحبة «حديث القمر» أقحمه في رسائله حرصا عليه وبخلا به على الضياع.

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثا في فكره. ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب، على أن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألح عليه الحب، أم زفرة مبعوض يتلذّع بالبغض قلبه. والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في عمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب، بغضا يردُّ عليه كبرياءه وينتقم له؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ...!

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبتة، فكتبت إليه... وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر «السحاب الأحمر».

السحاب الأحمر

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة ، إذ هو يقال روحين على تحليل أحزانهما المترجمة . وأكبر خصمين في عالم النفس ، متحابان تباغضا ... » الرافعي

تُرى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحران فأثارت نفسه بعد هذأتها وردته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يُغسل بالماء والصابون وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها ، ؟ من لي بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحران في نفسها وما ردت به ؟ إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذي لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب ، وفساد الرأي في الهوى ، وطيش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعي المعرفة ، ولقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدق فيَّ طويلا ثم سكت وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبت بما على المكتب من أشياء ، ثم قال : « رأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عيني والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليّ وهو يقول : « ضع النصاب

بين عينيك والمصباح وانظر ، ألسـت ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً
ينزف؟ في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر تقرأوها في السحاب
الأحمر

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أن الرافعى حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة
لست أعرف مآتها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في
شيء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافعى رسائل الأحران ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن
حبه وآلامه ، ولست أشك أن صاحبه حين تأدّت إليها رسائله قد فهمت
ما يعنيه وعرفت ذات صدره ، وأحسبها - وهي الأدبية الشاعرة - قد سرّها
أن تكون هي قلبك الوحي لما في رسائل الأحران من كل معنى جميل .
أفترأها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنع الغضب
لتفتنه وتزيده وحيّاً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه
وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش
الحب ، ولؤم المرأة ... ؟

على كل أن ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول
الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصبح بملء ما فيه : إني أبغضك

أيتها... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره . فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين ، وهذا صفيّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي ، وذلك أستاذه ومثله العالي في دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أمّ ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب في رأى العين ، وفي رأى القلب ، وفي رأى العقل ، ويحدثهم حديثه... فما تليح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعي في جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبه برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه .

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبه وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعي به أن ينصرف عنها ، قد شرع له في الكتاب مسالك من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبه .

في الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعي عن فتاة « عرفها قديماً في ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبه التي أملت عليه « حديث القمر » ، وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها في نفسه ؛ فتسأل نفسك ؛ أى شيء رده إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها في نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محال الزمان بها في قلبه وأثبت ! فلا تلبث أن تجد

الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفْهَم ثم يَسْفَل في معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل ... »

« إن من المرأة ما يُحَبَّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ... »

« من المرأة حلو لذيد يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريحه يشبع منه بلا أكل ... »

أترأه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيرا منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعي أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة في الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبه ليردّها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبريائه فيزعم لصاحبه أنه لم يكن يعنها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » في الفصل الثاني ، فتسمعه يقول . تتم آمالنا حين لا تؤمل ! ، فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يملئها الحب المغيظ المحقق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً في نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد في معاني البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض في كلماته ؛ فما ينتهي الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغض ، وأشأمهن على الناس مر إذا عدت مبغضيتها لا تعد إلا الذين أحبوها ... » ، وإني لأعرف

الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول :
« إننى أحبك يا أشأم النساء ؟ ! »

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاحب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمر له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ،
وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق
بين الزوجين الحبيبين ، أى خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك
تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن
تشعر الأرواح المفارقة أحببها بمسّ الفناء لأن أرواحا أخرى فارقتها ؛ ففى
الموت يُمسّ وجودنا ليتحطم ، وفى الفراق يمسّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض
الروح فى كفه حين موتها ، وهو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !
« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة
من وجودنا فترجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى
من المناحة على معنى من الموت ... »

« ترى العمر يتسلسل يوما فيوما ولا نشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم
نبه القلبُ فىنا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ
كتطايير عدة سنين من الحياة ... » .

ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب (١)، وعن المنافق، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبه؛ أقترأه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة؟

وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدته ضل ولداها الصغيران ثم أهتدت إليهما:

« الحب! ما الحب إلا لهفة تهر هديرها في الدم، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب الأم على طفلها... حب الأم في التسمية كالشجرة؛ تغرس من عود ضعيف، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُتفنى عداد أوراقها ليالي وأياما. وحب العاشقين كالثمرة: ما أسرع ما تنبت، وما أسرع ما تنضج، وما أسرع ما تقطف، ولكنها تُنسى الشفاه التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة... »

«... لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هي الباقية وهي المنتجة، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوة وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها... »
« وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمره ففسى الله حيناً، ويغويه الحب في الأرض بثمره أخرى فينسى معها الأم أحيانا! »

(١) هذا الفصل في السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعي عن صديق من خريجي جامعات أوربا، هو الدكتور حسين الهراوي، وكان في صدر شبابه - كأكثر واردات أوربا - زيفاً في الدين، وزيفاً في الخلق، وزيفاً في الرجولة؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه؛ وله مقالات في الإسلام وفي الرد على جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين.

وتراه في الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس هو كل ما في الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ علي ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه فتستمع في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .

إن الرافعي بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعا دائما بين طبيعته التي هو بها هو ، وفطرته التي هو بها إنسان ، وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل من فصول السحاب الأحمر .

وفي كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأي الرافعي في القضاء والقدر ، وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما قلّ من إرادته . فتراه يؤمن بأن الإنسان في دنياه ليس له كسب ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه . وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر ، وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا ياماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زُعاقا لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لست على أرض من الملح ، ولكنك ياماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحَة ... ! »

قلت في الفصل السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شيء

من البيان المصنوع تكلفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه ...

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . أ حذف منه فصلاً أو فصلين في أوله ، وشيئاً من فضول القول في سائرهِ ، تجد فناً في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي ، فجرّدهُ من قصته أو أنسبه إليها ، فإنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهي على البيان ، وشعراً وحكمة مازال الأدباء يدورون عليهما حتى وجدوهما في أدب الرافعي .

في رسائل الأحزان أراد الرافعي أن تعرف صاحبتَه من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه ؛ وفي السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال وما له عندها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أقتراه في السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيات أن يخفي الهوى ! .

أستمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويؤرث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلي على متدلل ما تنقضي عني فنونه

كيف السلو وفي فؤا دي لا تفارقي عيونه ؟ !

يرحمك الله يا صديقي !

أوراق الورد

« ... إنه ليس معي إلا ظلالها . ولكنها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كأن لا ينفي . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجما إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائق مترجمة بجملتها إلى لغة فكري . »

« كان لها في نفسي . مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعي لها خضوعا لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعي لها خيال خضوعا لا يضرها . »

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحب ... »
« كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إلى صوابي خطره . »

« لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ، ولن يحسن عندي ما لا يحسن ، وإن أطلب الحب إلا في عصيان الحب ، أريدها غصبي ، فهذا جمال بلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي . ودع جرحي يترشش دما ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذي ينبت ثم العضل وشوك الخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم ... »

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لامن شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها ... فتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعث ولكن له في القلبين عمل كلام طويل ... »
(الرافعي)

هدأت نائرة الرافعي هونا ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضي ، وبقية من اشواق واللهفة على ما كان ؛ وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعد بالشعر والحكمة والبيان . ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه ، والأمانى التي بعثرتها الكبرياء بددا في أودية النسيان تتخايل له في شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة

تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام . وأتمَّ نظم قصيدته البارعة في « أوراق الورد » سنة ١٩٣١ .

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنشورة في فلسفة الحب والجمال ، أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، في فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد .

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ؟ إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتفا من حديثها وحديثه .

بلى ، إن في أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، ويترسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام ، إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد . . . فلما أتم تأليفها وعقد عقدها ، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي « فلانة » وليست كل رسائله في الكتاب إليها ؛ فهناك الأخرى ، هنالك صاحبة « حديث القمر » ، تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكريات السعيدة معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحى منها الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالآلم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبتة « فلانة » كان قلبه في أثنائها خالسا لها ، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتابا للفن أولا ثم لها من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقها وما زال متبها في هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان .

بلى ، إنه كان يحبها حبا لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها ، فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعا ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك وما يستجد على خواطره من بعد في معاني الحب والبغض والود والقطيعة .

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ؛ ثم يصور فنه وبيانه في لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئا من بعد مما كان بينه وبين صاحبتة على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة في البحث والاستقراء .

فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحاملة لتواثب بين السطور في خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيقلت ؛ فهو فصل يؤدى أداءه في قصة هذا الحب العجيب .

وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى

النظرة وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ، فهو ذكرى
من الماضي البعيد ؛ وكان حبا في القلب فصار حديثا في الفكر ، ثم استتبع
شيء شينا

وما قرأت من قول مزوق ، وبيان منمق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة
تستجر فكرة ، وعبارة تتوگا على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر .
ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فن من الفن ؛
ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة في قرن ؛ ففيها قلب ينبض ،
وذكرى تعود ، وبيان مصنوع .

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ،
وخرجت منه بشيء .

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة في الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل
الحب في العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعي ، وإحاطة هي إحاطته ، وسعة
أطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هي باب في الأدب العربي لم
ينسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه
الرافعي العالم المؤرخ في كتابة « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب
في تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو
شيء مما كان بينه وبين صاحبه . يقول إنه كان في مجلسها يوما ومعهما وردة ؛
فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له
احذر أن تجعل حظك من الورد أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة

البنان ، واحذر في الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية في صدري ، ولكن على معان في القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوما معاني الأشواك فسمّها أوراق الورد ... وكذلك سمّاها » .

ويمضي في هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه في الحب ، ورأيه في الحب ، وشيء مما كان بينه وبينها ، ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ في أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم . ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحتُ طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى ، وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...



من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً ، ومن أراد رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً ، ومن أراد تسليّة وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراد نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً ؛ ومن أراد قصة قلب ينبض بمعانيه على حاله في الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانه على حاله في الحب والسلوان - وجد كل شيء .

وهو في الفن فنٌ وحده ، لا تجد في بيانه ومعانيه ضرباً له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء في معاني الحب ؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية في الحب ، لا يعرف قراءه في العربية . وكم قارئ استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضي فيه صفحات قليلة

حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ...
وكم قارئ كان لا يعرف الرافعي الشاعر الثائر العنيف في حبه وبغضه وكبريائه ،
فلما قرأ « أوراق الورد » عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه في الأدباء
إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية
وإن كان في مكتباتهم ، لأن القارئ الذي يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم في
المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضمّ فكرا إلى فكره لا ليتسلى ويهرب من
فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعري أفي العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من
أوراق الورد أو يجمع معانيها في قصيدة ؟ أبحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه
يوم تسمعون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه
كنز ، ولكن منذ يصبر على المعاناة في استخراجِه والبلوغ إليه إلا أن يكون
صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر
على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض
إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر .

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شباننا
لوضعوا أيديهم على أثمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء
ومادة في الشعر والبيان .

وكان الرافعي - رحمه الله - يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في
أدب الإنشاء ، ويباهي ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّي عن صاحبه بقليل إذ تعزّي
(١٠ - حياة الرافعي)

بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد . وكما تجد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت ، وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن مطلقته العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها في كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكره في عيني هذا الحبيب الصغير ؛ وكذلك لم ينس الرافعي ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكراها معه ، ذكرى حية ناطقة تتمثل معاني وكلمات في كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

يرحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حيا ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ...

يرحمه الله !

في النقر

الرافعي وطه حسين - تحت راية القرآن - كلبلة ودمنة - شاعر الملك -
الرافعي والأبراشي باشا - الرافعي وعبد الله عفيفي - الرافعي والمقاد -
على السفود - وحي الأربعين

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن شيء مما كان بين الرافعي وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإنني منه لفي حرج شديد ؛ لقد مات الرافعي ولكنه خلف وراءه صدى بعيدا عما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر وفي صدره عليه حفيظة أو له عليه معيبة ؛ ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعي الرافعي وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلا واحدا كتب برقية إلى ولده ، هو الدكتور طه حسين بك ؛ فلا جرم كان بذلك أنزه خصوم الرافعي وأعرفهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعي دنياه ؛ فهل رأيت أحدا منهم كتب شيئا عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التي تألفت لتأيينه قد استطاعت أن تحمل واحدا من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأيين الرافعي ، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع في مدرجة النسيان ... ؟

ليت شعري أكان الرافعي من الهوان في المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع لجنة التأيين وتنفض وتحدد الموعد لحفلتها ثلاث مرات ثم لا تجدد من

يتقدم إليها ليقول في تأبين الرافعي ، فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ...
حتى إذا مضى العام فاحتفلت فلسطين ، واحتفلت سوريا ، واحتفل العراق ،
واحتفل العرب في المهاجر من وراء البحار بذكرى الرافعي ؛ أقامت لجنة التأبين
في مصر حفلتها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغي أن تكون ؛ تخرجاً من
التهمة بالعقوق ونكران الجميل !

ولكنه هو - يرحمه الله - الذي ألَّب على نفسه هذه العداوات حيًّا وميتًا ،
لقد كان ناقدًا عنيفًا حديد اللسان ، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال
خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من
جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء : لا منفعة
فيهما معا إلا بقيامهما معا ، . وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلَةٍ خبيثة لهذا
الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة ، ... فكان بذلك كله ناقدًا عنيفًا ، يهاجم
خصومه على طريقة عنتره : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع !

اقرأ له في أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطيرة
إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ؛ ونحن
نرُدُّ على هذا وعلى هذا بردٍ سواء ، لا جهلنا من نجهله يلطف منه ، ولا معرفتنا
من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول
المؤلم ، أو التهكم ؛ فما ذلك أردنا ؛ ولكننا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع
المهتدي أن يضل ، فما به زَجْر الأول بل عظة الثاني ... » .

وأول ما أعرف للرافعي في النقد ، مقاله في « الثريا » عن شعراء العصر
في سنة ١٩٠٥ (١) ؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر ، وكان

(١) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب .

نشر مقالا يعارض به رأى الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول : « قد وُكِّت أمر تأديبه إليك ١ » .

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها فى سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ (١) ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتى البيان والزهرى (١) ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ : ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ (١) فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما : ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد ، وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك ؛ إلى ما لا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره .

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه ، وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها جديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ...

وإنى لأشعر أن على واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإنى لأشعر بجانب ذلك أنى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع .

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا على ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعى شجاعته فمات لم يذكره أحد منهم

(١) المعركة تحت راية القرآن .

أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفاء لهذه العداوات ، ولست لها بأهل ، ومالي طاقة
بالدفاع عن نفسي ، ولا لي أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علي نفسي ... !
ولكن ... ولكن من عذري يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ...
ولكن ما أنا إلا راوية يكتب مارآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكن فلاناً وفلاناً
اليوم أناسي وصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث .
ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى محو فيه أو إثبات ولكن ...
ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الإنسان ما كان ...

فهذا عذري عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثي بما يغضب أو يسوء ؛
فإن كان لي عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فإني على الأبهة لأن
أعوى من هذا الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعي في هذا الفصل هو تاريخ الأدب في جيل من الأدباء ؛
فإن كان من حق أحد أن يعتب علي لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب
لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالي عندهم حاجة ولا لهم علي
يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا علي من غضبه أو رضاه ، وإني
لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعي وطه

في سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هي صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين في الأدب وفي السياسة معا ؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شيء يثير ثائرة في الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكن إرهابات كانت تنسبق ذلك بوضع عشرة سنة . . .

كان طه حسين في سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق في الجامعة المصرية ، وكان الرافعي الشاعر ماضيا في الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقالیه المشهورين في « الجريدة » ينقدهما أساليب الأدب في الجامعة ، تنبّهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب في سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الراوية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة فنفس على الرافعي أن يؤلف كتاباً في تاريخ آداب العرب ، فكتب ينقده ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقرر هذا المعنى ثانية في نقد « حديث القمر » وثالثة في « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعي كان يطمع في أن يكون إليه تدريس الأدب في الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه في مقالیه بالجريدة ، ولكن طه يومئذ كان طالبا في الجامعة ؛ فمن الإسراف في المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعد إلى النفاسة أو المنافسة على كرسي الآداب في الجامعة ؛ ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه !

وثمة حديث آخر يشير إلى أول ما كان بين الرافعي وطه ، رواه لي صديقنا الأديب عبد المعطى المسيرى ، صاحب « القهوة والأدب » . قال :

« زار الرافعي إدارة « الجريدة » مرة لبعض شأنه ، فى سنة ١٩٠٨ (أو سنة ١٩٠٩) ؛ فلما همّ أن ينصرف طاف بمحررى « الجريدة » يحییهم - وبينهم طه حسين - ولكن الذى كان يصحب الرافعى فى طوافه لم يعرفه طه ولم یقدّم أحدهما للآخر ؛ وعرفه الرافعى على الرغم من ذلك ؛ إذ كان مثله لا یخفى واسمه على جبینة ولكنه لم یحيّه ولم یظهر له المعركة ؛ رعاية لعاطفته ، وخشية أن يفهم طه أن الرافعى لم يعرفه إلا بعلته فیألم وتتأذى نفسه ؛ ولكن طه طوى صدره على شىء للرافعى من يومئذ ؛ لأن الرافعى انصرف دون أن یحيیه كما حیّا زملاءه العاملين معه فى الجريدة ! . »

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحا جديدة ، واتخذت لها أسلوبا فى الدين وفى العلم وفى الأدب قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال ، وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب ، ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت فى الجهاد راية ...

والرافعى رجل - كان - فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة فى غد ...

ونال الرافعى رشاش من بعض المعارك وإنه لبعید عن الميدان ، فأحس فى

نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودس كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، (قال الرافعي) : فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان ... وتربص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحران ، فسعى راجلا إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعي ، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل في صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه .

لمن ياترى كانت الغلبة ؟ الرافعي يقول : أنا .. وطه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث .

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه في « رسائل الأحران » في السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداء وأعلن الحرب . ورد عليه الرافعي يقول : « يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم »

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، في مقال طويل (١) . وطارت الشرارة الأولى فاندلعت ألسنة النار ، فما خمدت حتى أحدثت

(١) المعركة تحت راية القرآن .

أزمة وزارية ، وأنشأت جبهة بين سعد وعدلى ، وأوشكت أن تؤدى بعلى ماهر إلى المحاکمة ، وهزّت دوائر البرلمان ، ثم انتهت فى النيابة العمومية ...

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين فى الأدب وأسلوبين فى الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحوالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والجمود ؛ وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة . والرافعى رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه فى السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً فى السياسة تؤاخذ به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها ؛ وكم جرّ عليه هذا الجهل السياسى من متاعب ! وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة .

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلبه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا - وزير المعارف يومئذ - أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى بالجامعة ؛ على شرط الواقف !

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي على الأسلوب الذي رآه لهم ؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرج به للناس باسم «في الشعر الجاهلي» ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجماً في كلية الآداب ، فقرأوا رأياً جديداً في الدين والقرآن رجع ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتب السياسة الأسبوعية . فقال الآكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي ؛ وظل الرافعي ساكناً ؛ إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلي القاضي ، في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق ؛ فكان فيهما الإنذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلبه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة «كوكب الشرق» ثم مقالات ثلاثا بعده ؛ ولم يكن قد قرأ الكتاب ؛ ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول ؛ خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المزدحم في النقد ؛ ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفهم أكثر مما يريد أن يثار وينتقم .

ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثأرته لأمر جديد ...
لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق

مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأيا من الرأى فى الأدب ، أو يُمَحِّص رواية من الرواية فى التاريخ . لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخَّص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصا من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخَّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعى ما قال طه ، فغضب غضبه للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتباً يزعم أن له مذهبا جديدا فى الأدب ، فعاد مبتدعا مُضِلًّا له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوىِّ الثائر لعرضه أن يُنتَهَك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماؤ الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته فى طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرة مهتاجة تفور بالغیظ وبالحمية الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !

ونسى فى هذه المقالات كلَّ اعتبار مما تقوم به الصلّات بين الناس ، فما كان يكتب نقدا فى الأدب ، بل يصبّ لهيبا وحمما وقذائف لا تُبقي على شيء . وكان ميدانه فى جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة وجريدة سعد ، وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبل رأيا فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشد أزره ، وإن لم يكن له فى السياسة باع ولا ذراع .

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجبا للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد .

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير فى وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ؛ ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة رأى الإسلامى العام . . .

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشد أزره كل السلطات .

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقرح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئا ، فكتب كتابا إلى مدير الجامعة ، يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . ولكن الرافعى لم يقنع فمضى فى النقد على جادته !

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لمنع تداوله ، لعل ذلك يردّ الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شىء حتى بالجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمرّ فى حملته على الدكتور طه حسين ؛ ولا ظهير له يومئذ غير الدكتور زكى مبارك . . .

ليس من شأنى أن أنص الحكم فى هذه القضية ، فإن وثائق الدعوى مازال بين أيدي القراء ، وليس يهمنى لمن كانت الغلبة ؛ فهذا كتاب للرواية لا للرأى ؛ ولكن الذى يجب أن يعرفه القراء ، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعا سلبيا فأوى إلى الصمت ؛ ويزعم الدكتور زكى مبارك

« أن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان - في هذه المعركة - بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر ، حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان ! » وهو قول لا أدري أيقصد به الدكتور زكي مبارك أن ينتصر لطله أو للرافعي ؛ ولكنه قول صديق عاقل على كل حال ... !

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الرافعي في كوكب الشرق صحيحة مدوية وصلت إلى كل أذن : فما أحسب أحدا في أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شيء ؛ وكان المصريون وقتئذ مكومة أفواههم عن السياسة والحديث في شئونها ؛ فلعلهم وجدوا في هذه المقالات ما يعزيهم عن شيء بشيء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وصديق الأحرار الدستوريين ... !

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعا في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعا قد صار لهم في شئون الأدب رأى ، أو لهم في الذود عن الإسلام حمية ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسي جاء اتفاقا ومصادفة في الوقت نفسه ، ليكون تأييدا لقول الله وانتصارا لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها - لسبب أدبي أو لسبب سياسي - قد بعثت روحا دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألفت قلوبا إلى قلوب كانت متنافرة ، ونهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذود عن دين الله .

وإني لأذكر مثلاً بما كان من إقبال الناس على هذه المقالات ، أنني - وكنت طالبا في دار العلوم - لم أكن أطيق الانتظار حتى يجيء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل

فقطع الطريق من المنيرة ، إلى باب اللوق ، راجلين لشترى من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس .

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلّى زيور عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب تؤيدها برلمان سعد ، وعكف نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ، وما يزال في آذانهم صدى يرنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته في محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . . . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشاد عدلى رئيس الحكومة وسعد رئيس النواب : فهبت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقدت المشكلة . . .

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب عبد الحميد البنان ^(١) بشكواه إلى النيابة العمومية ؛ فتسقط التبعة عن الحكومة ، وينفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء ، وكان بعد ذلك ما كان . وإذا كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستوري . . . ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ .

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله فيه أثر أي أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولما كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء مما كان .

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » ، وهو جماع رأي الرافعي في القديم والجديد . وهو أسلوب في النقد سنتحدث عنه بعد .

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظل قائمة مابقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما ؛ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبدا مادام في العربية حياة وقدرة على البقاء .

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمز طه في أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي في فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما في جعبته . وكم مقال من مقالات طه حسين قرأه عليّ الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعنيني . وكم مقال أملاه عليّ الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف من يعنيه به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعي : أرجو أن تعدّل في أسلوب هذا المقال - مما ينشر في الرسالة - فإني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشيء تنشره في الرسالة وعليّ تبعته عنده .

ولما ثارت في الجامعة مسألة المسجد والمصلّى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، قبيل موت الرافعي بأشهر ، كتب مقالا للرسالة غمز فيه طه

وَحَيًّا شَبَابَ الْجَامِعَةِ ، وَلَمْ يَجِدْ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ بُدَا مِنْ نَشْرِهِ . وَفَتَنَ الرَّافِعِي بِمَقَالِهِ ذَلِكَ وَحَسُنَ عِنْدَهُ وَقَعُهُ ، فَأَنْشَأَ تَتِمَّةً لَهُ بِعَنْوَانِ « شَيْطَانٌ وَشَيْطَانَةٌ » يَغْمِزُ بِهَا الدُّكْتُورَ طَهَ حُسَيْنَ ، وَلَكِنْ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ وَقَفَ لَهُ وَاحْتَجَّ حُجَّةً ، رِعَايَةَ لَصَدِيقِهِ الْقَدِيمِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَقَالٍ يَكْتُبُهُ الرَّافِعِي فَرَدَّهُ لَهُ الرِّسَالَةُ . وَقَدْ اغْتَاطَ الرَّافِعِي لِذَلِكَ غِيظًا شَدِيدًا ، وَأَحْسَبُهُ مَاتَ فِي نَفْسِهِ حَسْرَةً مِنْهُ ! لَوْ كَانَ لِي أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ أَجَدَ صُورَةَ هَذَا الْمَقَالِ لِنَشْرَتِهِ بِحَقِّ التَّارِيخِ الَّذِي لَا يَحَابِي الْأَحْيَاءَ وَلَا الْأَمْوَاتَ ، وَلَكِنْ أَيْنَ أَجَدُهُ ؟ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ يَقُولُ : لَقَدْ رَدَدْتُهُ إِلَيْهِ . وَالدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ يَقُولُ : لَمْ أَجِدْهُ عَلَى مَكْتَبِ أَبِي . وَمَا كَانَ بَيْنَ هَذَا الْمَقَالِ وَبَيْنَ أَجْلِ الرَّافِعِي إِلَّا قَلِيلٌ (١) .

وَلَمْ يَتَلَقَ الرَّافِعِي وَطَهَ وَجْهًا لَوْجَهُ فِي النِّقْدِ بَعْدَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ حَوْلَ كِتَابِ « فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِي » ، وَلَكِنْ الْمَعَارِكُ بَيْنَهُمَا ظَلَّتْ مُسْتَمِرَّةً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، تَنْتَقِلُ مِنْ مَيْدَانٍ إِلَى مَيْدَانٍ .

وَلَمَّا اشْتَرَكَ الرَّافِعِي فِي الْمُبَارَاةِ الْأَدَبِيَّةِ فِي سَنَةِ ١٩٣٦ ، وَنَالَ فِي بَعْضِهَا مِنَ الْجَائِزَةِ دُونَ مَا كَانَ يَطْمَحُ ، لَمْ يَنْسَبْ ذَلِكَ لَشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ عَضْوًا فِي اللِّجَةِ ... وَطَهَ خَصِمَ عَنِيدٌ ...

* * *

أَمَّا بَعْدُ فَهَذَا شَيْءٌ لِلتَّارِيخِ أَثْبَتَهُ عَلَى مَا فِيهِ ، لَيْسَ فِيهِ رَأْيِي وَلَا رَأْيُ أَحَدٍ مَعِيَ ؛ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مِمَّا حَكَاهُ لِي الرَّافِعِي أَوْ قَرَأَتْ فِي كِتَبِهِ ، فَكَتَبْتُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ وَمَالِي فِيهِ إِلَّا الرِّوَايَةُ ، وَذَلِكَ حَسْبِي مِنَ الْعُذْرِ إِنْ كَانَ عَلَى مَعْتَبَةٍ أَوْ مَلَامٍ .

(١) كَتَبْتُ هَذَا الْفَصْلَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ لِي مَسْوَدَةُ هَذَا الْمَقَالِ ، وَقَدْ نَشَرْتُهُ مِنْ بَعْدِ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ « وَحْيِ الْقَلَمِ » .

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ... ! هنا ميدان الخصومة بين الرافعى وأدباء عصره ؛ فمنذ نَحَله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعى ليجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النّيل من العريّة فى أرفع أساليبها ، وسبيلا إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ؛ وبابا إلى الزرارة بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعى نفسه ووقف قلبه على تنفيذ دعوى التجديد ، فجعل همّه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليرد عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسمُ كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ - ١٩٢٦ .

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتابا ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقا مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافعى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعائة ، حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلا واحدا هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل مابقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافعى وجمعه كتابا للرد عليه هو وحده . وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت

أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين في الأدب وفي الدين وفي القرآن ، ويحتمل فيها الجدل بين حكومة عدلي وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة : وإنها جلسة ممتعة خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبي .

* * *

وليس الكتاب على استواء واحد في أسلوبه : ففي المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعي هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر الناقد البريء : فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذي كنت ترى ، وطالعتك من صفحات الكتاب صورة جهمّة للرافعي الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مظلول ، مُزبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفتر ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتي كتاب ، فإن هذه المقالات وإن صوّبت إلى هدف واحد قد اختلف دواعيها وأسبابها ومن كتبت له ، وقد كان بينها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام .

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد في تدريس

الأدب ، وتقرأ له - من الكتاب نفسه - ردّه في سنة ١٩٢٦ على طه في طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فقرأه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين .

ليس يعينى هنا أن أخص رأى الرافعى في الجديد والقديم ، فراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الحديث .

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه في سائرّه ؛ ويبدأ هذا الجزء بعد الصفحة المائة ، وفيه تفصيل ما كان بين الرافعى وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحران » ، إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب فى البيان متباينة ؛ ففيها التهمك المتر ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردّ الرأى بالرأى ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الواقعة بين فلان وفلان ، وفيها الزلغى إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيها فن بديع طريف ، فيما حكى الرافعى عن كلية ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنت نظرت إليه في جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليم من التهمك يفتنّ الرافعى فيه فنونا عجيبه حتى يبلغ نصف المقال : ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبى ، لولا عبارات وأساليب هى لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر... بكلى إنها نموذج عال فى النقد العلمى الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليلة ودمنة

إن مبالغة الرافعى فى التهمك قد شققت له فنونا من المعانى والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكنت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء ؛ وأبدع هذه الأساليب حديثه عن كليلة ودمنة وما تحلّهما من رأى فيما تناول من فنون الأدب . وكليلة ودمنة كتاب فى العريية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العريية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعى ، وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقا ومصادقة ، فى مقالة من مقالات الرافعى ، فى طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليلة ودمنة ليقول على لسانهما كلاما من كلامه ورأيا من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه - على المزاح - إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته ، فنشره

بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ... »

« قال كليلة : أما تضرب لى المثل الذى قلتَ يادمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع ... » ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين^(١) ...

ثم استمر ينقل - عن نسخته الخاصة - من كليلة ودمنة ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة ، وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لونا طريفا من أدب الرافعى ، لو أن الظروف واثته لأتمه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديدا له خطر ومقدار ، على أن الرافعى لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتابا ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجبا بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنة مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فنا ومقدرة ! ...

وانتهى الرافعى من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة ، وظلَّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحى الأربعين » ، فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » . ثم نشر فى الرسالة سنة ١٩٣٥ الفصل العاشر

(١) المعركة تحت راية القرآن .

بعنوان « كفر الذبابة ! » ، ^(١) يعنى بها مصطفى كمال (كمال أتاتورك) وحركته الدينية ، غفر الله له !

وقد كان فى مُنية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كلية ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولكنه لم يوفق ، وكان فى ذلك خير ؛ فهذه الفصول فى موضعها من الكتب التى نُشرت بها أجمل وأخفّ ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع .

* * *

هذا بمجمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب « المعركة تحت راية القرآن » ، وما احتواه . وهو وكتاب « على السفود » خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدل ؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورِمَامهما ، ولهيّهما المستعرّ ، ودخانهما الخانق ، وغبارهما الكثيف ...

لو تجرّد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما أنتجت العربية فى النقد ، وأحسن مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولكن واأسفاه ، إن الإطار يحجب ما فى الصورة من جمال ، فمنذا - غير مالك الصورة - يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلو الصورة فى جمالها على أعين الناس ؟

شاعر الملك

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في النقد ؛ إذ كان هو أول ما بين الرافعي وعبد الله عفيفي ؛ فإني لأقدم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي مهّدت للرافعي من بعد أن ينشئ كتابه « على السفود » ، في نقد ديوان العقاد .

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية ، هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذى عوج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ، فتهيئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حراساً على سلطة الأمة ؛ فنشأت بذلك قوة يازاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

في تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي أن يكون شاعر الملك ، فلقى ذلك العطف الكريم بحقه من الشكر والرضا وعرفان الجميل .

وشاعرُ الملك ، أو شاعرُ الأمير ، لقبٌ قديم في دولة الأدب ، وله في تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسي وأبو العتاهية في بني العباس ، والبحترى في إمارة المتوكل ، والمتنبى في بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العد ، ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثي ، وليس بعيداً عنا

أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقاءه في مصر بعد خلع الخديو عباس فنفته إلى الأندلس .

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم عبد الحلیم المصرى ؛ فلما مات تطلعت الشعراء إلى موضعه ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ، إذ كان ما يزال فى نفسه شىء يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقي من المنافسة الأدبية فى صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير .

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر مانشر من الشعر هو ديوان النظرات فى سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة فى آماذ متباعدة لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر يفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك ، فى سنة ١٩٢٤ ، فى إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور فى كتبه الثلاثة التى أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على السريحة الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان . .

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ حتى وقع بينه وبين الإبراشى باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة . وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومة بينه وبين عبد الله عفيفى ...

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمت إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الخمسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . اقرأ قصيدة الخضراء - يعنى الراية - وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، وقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فنا فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفت من فنونه ، فإذا أحققت هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتت عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها .

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسى ناضجة تامة : من الاحتيال ، والروغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . تبلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للخروج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام إلهوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدرى رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء .

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء

على الموظفين في محكمة طنطا الأهلية ، حيث كان يعمل جنبا إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتابه « إيجاز القرآن » على نفقته ؛ كما أذن في إرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا ؛ فظل يدرس في جامعة ليون على نفقة الملك إلى سنة ١٩٣٤ حين شاء الإبراشي باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإتفاق عليه ما بقي . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات العيش ورسوم الجامعة ، كان يكتب « للرسالة » بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسده وتنتهك أعصابه ... !

* * *

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الإبراشي باشا أمر - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبت به الدسائس فترمى به إلى تهلكة ...

حدثني الرافعي قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق ، ويحتفي بي ، ويسط لي وجهه ومجلسه ، ويشج صدرى بما يروى لي عن عطف الملك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسي تزداد عمقا وتمتد طولا وتبسط سعة ؛ ثم جاء الإبراشي فلم تدعني داعية إلى لقائه ، حتى كان يوم وجدوني فيه منطلقا إلى هناك ، لأسأله في أمر من الأمور (١) ... قال : « وذهب إليه الساعي بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار ، فجلست وما أظن

(١) يأتي تفصيل ذلك بعد .

إلا أنها دقائق ثم أُدْعِيَ إليه ... وطال بي الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهي منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسي فضجرت ؛ فعدت أستاذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسي مكانى ، فعاد إلى حاجبه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ويسألك أن تمر به غدا في الساعة كذا ...

قال الرافعى : « وآذاني ذلك ونال منى ، ولكنى اعتذرت عنه . فلما كان الغد جاءنى النبأ ينعى إلى زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعى بك ؛ فأدنى الهمم وثقل على ، وضائق نفسى بما فيها ، وتوزعتنى الوسوس والآلام ؛ وما نسيتُ وأنا أمشى في جنازة الفقيد العظيم أن على موعدا بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريق عدوّا إلى القصر وفاءً بالوعد الذى اتّعدت ، وجعلت من وراء ظهري ما على من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزّوتنى في أخى وابن عمى وصاحب الحقوق على . لقد كان الذى مات زعيما من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنى جعلت الوفاء بالوعد فوق ما على من الواجب للزعيم الذى مات ؛ وإنه لأخى ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقى ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لى فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جمراتٍ تلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسى ذلك أطالع وجوه الداخلين والخارجين في غرفة الباشا ولا يؤذن لى ... !

قال الرافعى : « وهاجت كبريائى وثارت حماقتى ... لا أكذبك يا بنى ، إن في حماقة ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلى فى أصلاب أجدادى من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إلى صارت حماقة ؛

فهذه الحماسة عندى يا بنى هى تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تخطت إلى هذا الزمن البعيد فى تاريخ الأجيال ...^(١)

قال : « ولما بلغ الحق بى مبلغه نهضتُ وفى يدي عصاى ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيط محقق ، فإذا أنا أمام الإبراشى باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربى يحدثه ... ، فلم أعبأ ، ولم أكثرث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعى وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لى نفسى ، وثارت لكبريائى . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق فى الحديث معه ، ولكنى لم ألق بالآلى شىء من ذلك . وما كان فى نفسى إلا أننى قد قلت ما ينبغى أن أقول لأحفظ كرامتى وأصون نفسى ، ولا على بعد ذلك من غضبه أو رضاه ... »

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إلى وألح فى الاعتذار ... وصدقته حين ابتسم ... ! »

وأسرها الإبراشى باشا فى نفسه ؛ فلما كان الموسم التالى نظم الرافعى قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصفت حروفها مشكولة فى مطبعة دار الكتب - كما جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزينة ، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفى المحرر العربى بديوان جلاله الملك ، ونشرت القصيدتان جنباً لجنب فى جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما فى مدح الملك ، فما يفرق بينهما فى الشكل

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هى كلمة الرافعى بنصها كما حكاها لى وقد كتبها فى مذكرتى بعد حديثه بساعات فالיום أنقلها من هذه المذكرة .

إلا توقيعُ الشاعرين في ذيل الكلام .

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزجر ، وقال لمن حوله : أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني ، (يريد الأبراشي) أهذا شعر يُقرنُ إلى شعري ؛ أيراني وإياه على سواء ؟ أيجب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقتي ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفريد أن يمهّد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكاني ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لاجتقعه ، فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ... وتحدث بنيتّه إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته لبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السفّود !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتذكر وأخفى نفسه ...

الرافعى وعبد الله عفيفى

لم يكن عبد الله عفيفى خصما للرافعى على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن عبد الله عفيفى فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الإبراشى باشا ؛ قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعى وجها لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعى وعبد الله عفيفى .

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعى زيادا عن الدين وحفاظا على لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيف والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأى وقلة المعرفة . . . وما بدُّ من أن يكون فى نقد الرافعى أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيف ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعّم أن الرافعى لم يكن موفقا فى النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والقصد فى التهمة وضبط النفس . . . !

وثمة شىء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات ؛ هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتا قارئا فى

موضعه لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع . . .

* * *

كتب الرافعي مقالات ثلاثا بعنوان « على السفود » ، في نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفي في مدح الملك — والسفود هو الحديد التي يشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالة ، وفيه الإشارة والرمز إلى ما حوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى ، وإذ لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات ، ولا كان يريد أن يعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه في الكتابة وفي نمط الكلام ، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته ، لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عريية اللفظ ، بقدر ما يعنيه أن يتأدى معناه إلى قارئه في أى أسلوب وبأية عبارة ، فكثير الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامية ، والنكات الذائعة ، والأمثال الشعبية ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من كل لوازمه في النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات في أسلوبه تتم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعرا من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكى ، وأن هذا الشعر الذى يُمْلِئُه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه في مدح الملك . أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب وألقى القول على سجيته في صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغى أن يكون عليه الشعر الذى يقال في مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ، فجاء في بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق

الأدبي العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء، وكأنما ركبته طبيعة غير طبيعته خيلت إليه أنه يكتب فى نقد شاعر من الماضين يمدح ملكا من ملوك التاريخ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغى أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك ...

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر، فمالت الأفواه إلى الآذان، وتهاوس القراء همسا غير خفى، ثم جهروا يتساءلون: من يكون هذا الكاتب؟ ولكن أحدا منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب، وأنفذوا دسيسا إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب «العصور» يسأله فلم يظفر منه بجواب.

ونُشر المقال الثانى والثالث، فلم يلبث أن انكشف السر؛ ونم الرافعى على نفسه بلسانه فى مجالسه الخاصة... أو نم عليه أسلوبه وطريقته فى النقد. وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر فى أسلوب السياسى البارع: «... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت فى شاعر من شعراء الملك وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب؟ أفتتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك...؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر؟ أم هى دسياسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه...؟»

وغص الرافعى بريقه، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة، وأحس الإبراشى باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التى مسها الرافعى بحماقته منذ بضعة أشهر...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبيتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلوات ، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين .

لقد كثر ما استغلَّ خصومُ الرافعي السياسةَ لينالوا منه ، ولقد كثر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلوات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي ، وما كان معه يوما على صفاء ؛ على أنه كان تلميذا معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافعي .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي ، فصلا مؤثرا ... بعبارات بليغة ... في صحيفة من صحف الشعب^(١) يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب ، وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلبه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأتُ هذه المقالة مع الرافعي ، ونظرت إليه فإذا هو يتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ..

(١) هو الدكتور طه حسين في جريدة الوادي ، وكان يصدرها في تلك الوقت . للدفاع عن سلطة الشعب بعد أن فسد ما بين طه حسين والأحرار الدستوريين فعزلته حكومة اسماعيل صدقي من وظيفته في الجامعة !

أرأيت ... ! صدق ! لقد جنت السياسة على الأدب (١) .

• • •

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات شوقي أمير الشعراء في خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي لو كان مصرياً خالصاً المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر ، لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ولا تعين على إبراز الشعاعية الكامنة في كل نفس .

هو رأى أبداه فيما أبدى من الرأي ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الخط من مقداره ، وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأى أبداه الرافعي مجرداً من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفي عناصر بحثه ؛ ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون .

أما طائفة فمالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه . ذلك سلامه موسى ! ...

(١) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا : « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نرجو أن نستطيع تهيئته للنشر قريباً ، إن شاء الله !

وأما ثانية فقالت : وهذا قول يعنيننا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثنى أحدا إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين .

وانتضى عبد الله عفيفي قلبه ليكتب في جريدة « البلاغ » مقالات أسبوعية بعنوان « مصر الشاعرة » يذكر فيها من شعراء مصر في مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه رذًا على دعوى الرافعي . ومضى في هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة ؛ ولكن عنوان « مصر الشاعرة » ظل على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسبه في هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان في الرد على الرافعي ! ...

وقد ظل الرافعي إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الإبراشي وبين عبد الله عفيفي . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفي في الصحف مدحة ملكية ، في موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعي فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جلسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر . وقد ذكرتُ فيما قدمتُ من هذه الفصول أن الرافعي كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة » ؛ فمنهن كالمتنبي ، ومنهن كالبحتري ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفي .

فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع « البلى » من نساء الطبقة الثالثة ، التي تبدو ملفوفة « محبوكة الأطراف » في ملاءتها السوداء ، غضة بضّة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفي ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت وعلى تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى . وللأستاذ عفيفي فى نفسى على الرغم من ذلك كلُّ إجلال واحترام !

* * *

حاشية : كتبت هذا للطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فلم تكد تلك الطبعة تظهر لقرائها حتى كتب إلى المرحوم عبد الله عفيفي رسالة عليها الشعار الملكى يطلب إلى فيها أن أحدّد زمانا ومكانا للقائه ؛ فلم يغب عنى أنها دعوة للحديث فى موضوع يتصل بما نشرت عنه فى هذا الكتاب ، فقررت أن يكون جوابى على هذه الدعوة أن أذهب إليه ، تكرمةً له . وكنت يومئذ من العمل فى زحمة ، فمضت أيام قبل أن أذهب إليه ، واستبطأ المرحوم عبد الله عفيفي جوابى فتحدث إلى بعض أساتذتى يسأله أن يكون رسولا إلى ، ثم استبطأه فبعث رسولا ثانيا . . . وحسب الرسولان بما لأحدهما على من حق الأستاذية فى المدرسة وما للآخر من حق الرياسة فى عملى بالحكومة وقتذاك - أنهما يملكان أن يقودانى بزمام إلى حيث ألقى السيد عبد الله عفيفي وأعتذر إليه ، ولكنى رددتهما ردا جميلا ، ولكن المرحوم عبد الله عفيفي - فيما يبدو لى - كان حريصا على أن يلقانى ليتحدث إلى حديثا ما ، فبعث إلى رسولا ثالثا مترفقا فى حديثه ؛ فلبيت الدعوة ولقيت الرجل فى منزل الأستاذ

عبد اللطيف المغربي بالعباسية ، وجلست إليه أستمع إلى ما يقول . . .

قال : « لقد ذكرتني بما لا ينبغي في كتابك وكان حقاً عليك أن تسألني قبل أن تكتب عني لتعرف وجه الحق فيما رويت ! »

قلت : « إني فيما كتبت لم أكن صاحب رأي ، وإنما أسندت ما كتبه إلى راويه ! »

قال : « ولو كان راويه كاذباً دجالاً »

قلت : « صه ! ذلك رجل مات فدع عنك ذكره وحدثني بخبرك ووجه الحق فيه ! »

قال : « قد علمت أنك على نية إصدار كتاب عن المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء ؛ فصحيح عني بعض ما رويت واذكر أنني لم أكن صنيعة الأبراشي باشا ، وإنما عرف مكاني وهياً لي أسبابي توفيق نسيم باشا . . . ! »

قلت : « ولكن ذلك ليس من شأني ؛ فماذا يعني أن يكون الذي هياً لك الأسباب هو الأبراشي أو توفيق نسيم وإنما حديثي عن الرافعي أو عن المؤثرات السياسية في الأدب ! »

فعرض الشيخ على شفته وتريث برهة ، ثم لطف أسلوبه ورقاً ، وقال : « أنا أعني . . . » ثم عاد إلى الصمت ليستأنف حديثه بعد قليل قائلاً : « أنت تعرف أن الموظفين في القصر ينبغي ألا تعلق بأسمائهم شبهات سياسية ، فليست أحب أن يذكر اسمي إلى جانب اسم الأبراشي باشا . . . »

قلت : « قد فهمت ! . . . » فهل فهم القراء ؟

نعم ، فقد كان الأبراشي باشا يومئذ موضع السخط ، على حين كان المرحوم

توفيق نسيم باشا في موضع الرضا والحظوة ؛ فلا بأس أن يذكر أن عبد الله عفيفي كان صنيعة توفيق نسيم لا صنيعة الأبراشي !

وقد قلت في التمهيد لهذا التاريخ إنني راوية لأصاحب رأي ، فلا ذكر إذن أن كل ما كان بيني وبين عبد الله عفيفي رحمه الله من الخلاف هو : من الذي اصطنعه !

الرافعي والعقاد

... إنه ليتفق لهذا الكاتب من أواليب اليات

مالا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها !

عباس محمود العقاد

... ذلك كان رأي العقاد في أدب الرافعي قبل بضع عشرة سنة من هذه

الخصومة التي أروى خبرها ، وشتان بين هذا الرأي بيديه العقاد سنة ١٩١٧ في

مقال ينشره ليعرف بكتاب من كتب الرافعي أنشأه في ذلك العهد ، وبين رأيه

الآخر في المهذار الأصم مصطفى صادق كما يصفه في سنة ١٩٣٣

لقد مات الرافعي - رحمه الله - فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من

عداوات ، وما أريد أن أوقف فتنة نائمة يتناولني لهيها أول ما يتناول ، فما لي

طاقة على حمل العداوة ، ولا اضطبار على عنت الخصومة ، ولا احتمال على

مشقة الجدل ؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جرده الجاحدون

فنهضت للوفاء به ؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم

أو يسيء ، فما ذلك أردت ولا إليه قصدت ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة

أحملها كارها ، وأضطلع بعثها مضطرا ، لاؤديها إلى أهلها كما تأدّت إلى . وإني
لأعلم أني بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسي بالموضع الذي أكره ،
وأعرض بها لما لا أتوقع ، ولكن حسبي خلوص النية ، وبراءة الصدر ،
وشرف القصد ؛ ولا علىّ بعد ذلك مما يكتب فلان ، ولا مما يتوعدّ به فلان ،
فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت ،
أو يربط بي رابطة كانت بينه وبين فلان فانقصمت ، أو يتخذ من الاعتراض
على زلني إلى صديق يلتمس ودّه ، أو يجعل مما يكون بيني وبينه سبيلا إلى
غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه - إن كان أحد يريد
ذلك فليمض على إرادته ، وإن لي نهجي الذي رسمت ، فلتفترق بنا الطريق
أو تلتق على سواء ، فليس هذا أو ذاك بما نعي من المضيّ في سبيلي ،
ومن الله التوفيق !

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي ومعركة جديدة من معاركه ،
وإني لأشعر حين أعرض لنبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد ، أني
كمن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شخاء ثم مسحت على قلبيهما
الأيام فتصافيا ، فإنه ليدكر بما لا ينبغي أن يذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف
بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوة في سالف الأيام فقد انقطعت
أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخا لا تجتازه الأرواح إلى آخرها إلا بعد
أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية ؛ فهنا ناموس وهناك ناموس ،
ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تخلّص ضوضاء الحياة إلى آذان من في القبر ،
ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار في دنياهم .

هنا رجل من الأحياء ، وهناك رجل في التاريخ ، وسنأتنا وهناك ؛ فما
أتحدث اليوم عن خصومة قائمة ، ولكنني أتحدث عن ماضٍ بعيد ، والرافعي الذي
يحيا يذكرنا اليوم بيقينا غير الرافعي الذي كان ، فما ينبغي أن يتحدث ذكرنا ماضى
البعضاء ؛ وهذا عذيرى فيما أذكر من الحديث .

لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل إصدار الطبيعة الملكية من إنجاز القرآن غير
الصفا والود ؛ فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئا كان
هو أول الخصام ...

حدثني الرافعي قال : « سعت لدار المقنطف لأمر ، فوافقت العقاد هناك ،
ولكنه لقيني بوجه غير الذى كان يلقاني به فاعتذرت من ذلك إلى نفسي
بما ألهمتنى نفسي ، وجلستنا نتحدث ، وسألته الرأى في إنجاز القرآن ، فكأنما
ألقيت حجرا في ماء آسن ... ففضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال ،
كان ثارا بينه وبين إنجاز القرآن . ولو كان طعنه وتجرسه في الكتاب نفسه
لهان على ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه
وعن إنجازاه وإيمانه بهذا الإعجاز ... أصدقك القول يا بنى : لقد ثارت نفسي
ساعتئذ ثورة عفيفة ، فكدت أفعل شيئا ، إن القرآن لا كرم وأعز ...
ولكنني آثرت الأناة ...

قال الرافعي : « وأخذت أناقشه الرأى وأباده الحوار في هدوء وإن في صدرى
لمرجلا يتلهب ؛ إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب
في الهجوم على فكرة إنجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف
وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعا به ؛ فأخذت معه في الحديث ، على هدوئى وثورة
أعصابه ... ولم أفهم إلا من بعد ما كان يدعو إلى ما ذهب إليه ...

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ؛ ينافح عنه ويدعو إليه بقلبه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب أو أديب من الأدباء ، وأن له على سعد حقاً ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للرافعي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ...

قال الرافعي : « ... من هنا يا بني كانت ثورته ، كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكتاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفت ذلك من بعد ، فما بدا عليّ ما في نفسي من الانفعال ، ومضيت معه في الحديث في وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابي ، فهل تُراك أحسن رأياً من سعد ؟ » .

قال الرافعي : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأي سعد ؟ قال الرافعي : « وطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه ^(١) . فقبضت عليها يدي ثم قلت ؛ أقترارك تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وأنت تأكل الخبز في مدحه والتعلق بذكره ... ؟ قال : فاكتب إليّ هذا السؤال في صحيفة من الصحف تقرأ جوابي كما عرفته الآن ...

قال الرافعي : « وابتسمتُ لقوله ذاك وأجبتُه : ياسيدي ، إن الرافعي ليس من الحماقة بحيث يسأل هذا السؤال في صحيفة من الصحف فتشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون في سؤال وفي صمتك تهمة لي ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد !

(١) كان الرافعي أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة في ورق !

قال الرافعي : « وما قلتُ ذلك - وإن ورقته في يدي أشد عليها بأناملي - حتى تقبّض وجهه ، وتقلّصت عضلاته ، ثم قال في غيظ وحنق . ومع ذلك فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعدا لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوّره ، ثم نحلتّه إياه لتصدّر به كتابك فيروج عند الشعب !

قال الرافعي : « وما أطق الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكة سلطاني على نفسي ، فهممت به . . . فدخل بيننا الأستاذ صروف . فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ، فخرج والباب يبصق في قفاه (١) ! ،

هذه رواية الرافعي ، حدثني بها غير مرة في غير مجلس ، كما تحدث بها إلى غيري من أصدقائه وخاصته ؛ فمالى فيها إلا الرواية والتصرف في بعض الكلام ، تأديبا مع العقاد وكرامة لذكرى الرافعي .

وقد بدالى أن أستوثق مما حدثني به الرافعي ، فقصدت إلى الأستاذ فؤاد صروف - محرر المقتطف - أسأله الرأى في هذه الرواية ؛ إذ كان من شهود الحادثة على ما رواها الرافعي ؛ فقال :

« . . . هذا الحديث في جملته وفي موضوعه لا اعتراض لى عليه ، وبقدر ما تطاوعنى الذاكرة أستطيع أن أجزم بأن شيئا من ذلك قد كان ؛ ولكن الذى

(١) عرضنا لدعوى العقاد أن الرافعي إنما اصطنع كتاب سعد ونحله إياه ليروج به عند القراء ؛ إذ كان اسم سعد كالطابع التجارى لبضاعة لا تبور ؛ وقد رجعنا إلى الأستاذ محمد ابراهيم الجزيرى سكرتير سعد الزعيم فأكد لنا صحة هذا الكتاب ، وزاد إن سعدا نفسه هو الذى كتبه بخطه لم يكل إلى أحد من سكرتيريه كتابته ؛ وقد أشار إلى هذا في مذكراته عن سعد .

رواه لك الرافعى من حديث العقاد فى هذه المناظرة ليس على نصّه ؛ قد يكون هذا مؤدّى ما قال ولكنه ليس به ، والرافعى - رحمه الله - كان أصمّ ، ولم يكن كل الحديث بينهما مكتوباً ، وقد قال العقاد فى مناظرته كلاماً لم يكتبه ولم يسمعه الرافعى ولكنه تخيّل على ما أحسب ، فكانت روايته للحادثة من بعد معنى يرويه لا لفظاً يحكيه .

«...، ولكنى مع ذلك لا أنكر ما كان من حديث العقاد فى هذه المناظرة

عن القرآن وإعجاز القرآن ، ورأيه فى ذلك يعرفه أصحابه !

« ثم لا أدري من أين جاء الرافعى أنى دعوت العقاد أن يغادر المكان ؛

فما كان ينبغى لى هذا ولا هو من آدابى وإنيهما لضيقتان فى دارى ؛ وأحسب

أن الرافعى قد فهم ذلك خطأ حين رأى العقاد يغادر المجلس ! »

قلت : وقد أطلعنى الرافعى على ورقات قال إن العقاد كان يحدثه كتابة

فيها ، وفيها عبارات تبرهن على صدق الرافعى فى روايته ! . كما أشار الرافعى

فى كتابه « على السفود » ، إلى طرف من هذه المحاور ، وإلى هذه الورقات التى

يحتفظ بها برهاناً على بعض ما يصف به العقاد (١) .

على السفود

وفرغ الرافعي من مقالات عبد الله عفيفي التي كان ينشرها بعنوان « على السفود »؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور وما يزال في نفسه شيء مما كان من المحاورة بينه وبين العقاد؛ فسأله الأستاذ مظهر تمة هذه السلسلة في نقد الأستاذ عفيفي، فاعتذر الرافعي وقال: حسبي ما كتبتُ عنه وحسبُه. قال مظهر: فاكُتب عن غيره من الشعراء؛ إن في هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة!

فتنبه الرافعي إلى شيء في نفسه، وجلس إلى مكتب في دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود في نقد العقاد؛ وتوالت مقالاته من بعد في أعداد المجلة متتابعة في كل شهر؛ فلما تمت هذه المقالات، نشرها الأستاذ إسماعيل مظهر في كتاب قدم له بمقدمة بإمضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذي لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربي »

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعي والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه ومحورها الذي كانت تدور عليه، إلى ميادين أخرى جعلتُ كلا من الأدبيين الكبيرين ينسى مكانه ويغفلُ به ليلغ في عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمَّم أو يرى في ذلك معابة عليه. وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعي في مقالاته على السفود...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية في الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة
المرذولة في النقد وفي أساليب الجدل ؛ هذان اثنان منهم ، وكان للرافعي مع كل
واحد من الاثنين الآخرين معركة ، على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها
عن حدود الأدب اللاتقي هي المعركة بينه وبين العقاد !

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذي دار بين الرافعي والعقاد في
دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن : وكان للعقاد
فيهما رأى غير رأى الرافعي ، فكانت غضبة الرافعي الأولى لكرامة القرآن
والعقاد ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقاد يجحد فضله : ثم كانت الغضبة الثانية
للتهمة التي رماه بها العقاد حين جبهه بأنه اقترى كتاب سعد ونخلته إياه في
تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعي بإعجاز القرآن إيماناً
لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد في كتاب الرافعي ، ثم تهمته
له بأنه مفترٍ كذاب ... !

ترى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذي أثار الرافعي فدفعه إلى الخروج
عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات « على السفود » ... ؟
الرافعي يقول : إنها غضبة لله وللقرآن . وللتاريخ رأى لست أدري أيُفارق
هذا الرأى أو يلتقي وإياه على سواء ... ؟

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل في هذا الخلاف ،
فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض
في فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب

الخصام ... الرافعى يقول : هذا أسلوب من الرد قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأذبه ؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربية ، لا تراهم يستمعون لرأيه عند ما يهيم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ولا يستقيم بيانها على لسانه ؟ ... هكذا يقول الرافعى ! ...

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :
« ... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« ... ونقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !
« وعسى أن يكون السفود (مدرسة) تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالا يحتذى الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة ! ... »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فنعيم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالا يحتذى النّقد فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النّقد هذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية .

والحق الذي أعتقده أن في هذا الكتاب - على ما فيه - نموذجاً في النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها ، ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليئاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أديم الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من مُجَرِّ القول ومر الهجاء ، ولئن كان هذا مذهباً معروفاً في النقد للرافعي وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية في هذا الجيل - إننا لنريد للناقلين في العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعف لساناً من ذاك ... !

ذلك رأى قلته للرافعي - رحمه الله - فما أنكره عليّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعني اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء . ولقد همّ الرافعي منذ سنوات أن يجمع كل ما كتب في النقد بعد كتاب « المعركة » في كتاب واحد ؛ فأبدت له الرأي أن يضم إلى هذا المجموع مقالات « على السفود » بعد أن يجزّدها بما يعيبها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا الرأي واطمأن إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته .

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفني البديع مغموراً في الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحماة المنتنة وهيهات أن تقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع في النقد يكتنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء .

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن في الكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكاة ؛ ولكن الرافعي مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر ...

قال الرافعي : « ... قال لي قائل : لقد قلتَ في العقاد ما كان حريا أن يقفه وإياك أمام القضاء ! ... قلت : ولكنني كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ! إنني كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه في النقد ، وإن معي لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعي أمام المحكمة فيخسراً كثيراً يرجح ؛ ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن به وحكمتُ لي محكمته ... ! »

ذلك حديث الرافعي ... فهل كان هذا حسبه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيراً من قراء « على السفود » يضعونه في غير هذا الموضع الذي أضع ؛ مؤمنين بأن في الأدباء طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب على السفود !

انتشر كتاب « على السفود » وتناوله القراء على أن كثيراً منهم لم يعرف كاتبه إلا بعد سنين ... وكان في هذا خير للرافعي ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفد هو الأمة كلها ، قراؤها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام الكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارق من الوطنية ، ولو كانت عداوته في مسألة أدبية لاتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن .

ثم كانت هُدنة بين الرافعي والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلاً وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية ، حتى كان خريف سنة ١٩٣٢ .

مات المرحوم شوقي في أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فاهتزت لموته الجامعات الأدبية (١٣ - حياة الرافعي)

في مصر والشرق ؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به . وتهيأت ، المقتطف ، لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكا أن يصدر ، وأبرقت إلى الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد .

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلات الود ما يتيح له أن يعرف شيئا من حياته يُعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافعي مستعدا لهذه الدراسة ، ولا تهيأت له من قبل أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل . وإن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب ، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلّي له فكره أياما وليالي ، يبحث ويوازن ، ويزاوج ويستنبط ؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب ؛ ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب ويرسل مقاله في الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحدا من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله ؛ فأنصف شوقي ، وجلّي عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد .

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطات في النحو أو اللغة ، أن شوقي أخطأ في رفع جواب الشرط من قوله :

إن رأتني تميلُ عنى كأن لم يك بيني وبينها أشياء !

وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهها من التعليل

وبابا من العذر .

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه ؛
فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحداً لساناً في
نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف ، حتى تناول
قلبه ليكتب كلمة يردّ بها رأى الرافعي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي ...
وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعري أفعلمها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو من هو في عداوته ؟ أم
تحدياً للرافعي ... ؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباهاياً بشوقي ، مفاخرأ
بأدبه وفنه وعبقريته ، شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال
سألته نفسي يومئذ ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم ؛ ولكن
جواب هذا السؤال معروف لكل من يذكر ما كان بين الرافعي والعقاد ، ثم
ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب !

وقال لي الرافعي : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ » .

قلت : « أنا وهو على رأى واحد فيما يردّ به ! » .

فمطشفتيه ساخرأ وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون
من علماء النحو في العربية ... ليس الرأى ما يقول العقاد وتوافقه عليه ... » .

وتملكه عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يردّ بها رأى العقاد ويصرّ
على تخطئة شوقي في رفع جواب الشرط من هذا البيت ، ويتهم المتأخرين من
علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يُفيض ويسترسل في بيان
الأوجه التي يجوز رفع جواب الشرط فيها ، وما يصيب منها وما يخطئ .

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع ؛ فإن لي أن أردّ كل شيء إلى أسبابه فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية ، ولكنها انكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية ... !

ولست أكنم هنا أن الرافعي كان يسيء الظنّ بفهم العقاد لقواعد اللغة ؟ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لي مرة : إن الذي يعين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكنني أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد ، فبقى في نفسه شيء يحمّسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحي الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين » ، ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فعدوت على بيت الرافعي لأهنته ، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مطلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمة بدّ من الحديث في الأدب ، وفي الشعر ، وفي المطبوعات الجديدة ؛ وهو حديث يحلو

لرافعى ويخلو لمخوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضحا إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح فى بيت المضيف وفى بيوت الجيران !

وسأل الرافعى مضيفه : « ماذا عندك من الجديد فى الكتب ؟ »
وضحك مخوف وهو يغمز بعينه ويقول : « وحى الأربعين ! »
ووجد الرافعى طلبته ، فدعا بالديوان الذى يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد ! ...

وجاء الديوان فوضعه الرافعى بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم فى ديوانه برأى قبل أن تهياً لى أسبابه ؛ وإنى لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عني أول ما تقع على أردإ ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بينى وبين العقاد لسابق عداوة ، وأتما بريئان من التهمة وسوء الظن ؛ فهأكما الديوان فقلباً فيه النظر ، وتداولاً فيه الرأى ، ثم دلانى على أجود ما فيه لنقرأه معا فنحكم له أو عليه مجتمعين ، ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأى فى هذا الجيد المختار هو الرأى فى الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة ! »

ورضينا رأى الرافعى ، فأخذنا الديوان تقليبه صفحة صفحة ، ونقرأه بيتاً بيتاً ؛ والرافعى منصرف عنا إلى كتاب بين يديه . . . ومضت فترة ، واستبطناً الرافعى فيما دعانا إليه فقال : أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ! ولن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان معا من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره . . .

وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه ، ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا
الرأى فى أشياء ، وكان الأستاذ مخلوف أكثرنا حماسة فى النقد ، ومضت
ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأى يبدىه ، ثم طوينا الديوان وأخذ مخلوف
يتحدث فى موضوعه ...

وقال الرافعى مخاطبه : وما دمت على هذا الرأى فى الديوان فلماذا لاتنشره
إن لك لسانا وبياناً ، « وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية ... ! »
وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعى ... وتنبأ لكتابة نقده ...
ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » فى صدره مقالاً مجوداً للأستاذ مخلوف
فى نقد ديوان وحى الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء فى بضعة عشر موضعاً ،
وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال ... ومضى يومان وكتب العقاد فى صحيفة الثلاثاء
من جريدة الجهاد رده على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدراً أن العقاد سيتناوله
بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...

لم يرد العقاد رد الأديب على ناقد ، ولكنه راح يتهكم عليه ويسخر منه
ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذا كان مخلوف من مدرسى
اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها سانحة ليطعن على
مدرسى اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ويلحد فى كفايتهم وعلمهم ، ويعود
بالسبب فى ضعف اللغة العربية فى المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف ، ولم
تسلم مدرسة دار العلوم التى تخرج فيها مخلوف ، ولم يسلم واحد من مدرسى
اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته فى هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب
ينقده ويحاول رده إلى انصواب فيما رآه خطأ فيه ... !

وكتب مخلوف مقاله الثانى يردّ مطاعن العقاد ، ويتمم ما بدأ فى نقد وحي الأربعين ؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصا على مودته ...

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعةً من مدرسى اللغة العربية نصلى الجمعة كل أسبوع فى مسجد المنشاوى بطنطا ، فلقينا هناك مخلوفا فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسى ، وكلهم قرأ مقال العقاد فى الطعن على مدرسى اللغة العربية بسبب مخلوف ، وقليل منهم من قرأ مقال مخلوف . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعى ما زحاول قد لقيته بعد ذلك : « لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفا من إخوانه ، وفيما نال مدرسى اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذى هجّمت مخلوفا إلى هذه المعركة ، فانتهدت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه ؛ وكانت سببا فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسى اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعى منزلة ، ولدار العلوم فى نفسه مكان ؛ ولكنه أجابنى : « وماذا علىّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ »

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه ، ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! »

وقصدت فيما قلت - ومعذرة إلى الأستاذ العقاد - أن أهيج الرافعى للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم

من ورائها نفع ومتاع ولذة... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعي بأن يكتب ما في نفسه من ديوان وحي الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشتري له نسخة على حسابي من الديوان ، لأنه يأبى أن يدفع قرشا من جيبه في كتاب من كتب العقاد...!

ونفذت الشرط ، وتهيا الرافعي للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعاني ليملي علي مقاله الأول في نقد الديوان...

صدر « وحي الأربعين » في سنة ١٩٣٣ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج ، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية ، فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب ، وأشعر من نظم ، حتى ليثول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين لقب أمير الشعراء!

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء أولاً يكون ، ولكن هذه هي كانت منزلته عند الشعب يومئذ ، فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد في أي منشآته الأدبية والسياسية إلا كان في رأى الشعب « دسيسة » وطنية .

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يوثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعي رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه في الأدب

وطريقته ؛ وسواءً عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون مادام ماضيا على طريقته ونهجه ، ولقد قدمت القول بأن الرافعى كان يتربص بالعقاد لينزل إليه فى معركة حاسمة تنقعه غلته وتبرئ ذات صدره . فما إن تهيأت له الأسباب بصدور «وحى الأربعين» حتى تحفز للعراك ؛ وكان ما بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذى ألهب حمية الرافعى ، فنزل إلى الميدان مستكملا أهفته مزودا بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديسا أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسى والعقاد الأدبى ... !

... وأرسل الرافعى يستدعنى إليه ذات مساء . فرحت إليه بعد العشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه «وحى الأربعين» وإن عليه عباءة حمراء فى لون عرف الديك ، وفى عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه ل يبدو فى مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : «لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لى فيه لرأيا ؛ فهل تساهرنى الليلة حتى أملئ عليك ما أعددت فى نقده ؟»

كانت هذه أول مرة يملئ الرافعى علىّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصة سعيدة لى ، أشهد فيها الرافعى حين يُلقَى الوحى ، وأصحبه فى سباحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعانى . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يدا غير يده تحمل له القلم حين يكتب لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وماتعود قبلها أن يكتب وفى مجلسه إنسان ؛ وإن أثقل شئ عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه أن يعرف أن عينا تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ ، متبرما

المهمة ، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد ، وإن خطه لأردأ خط
تُ في العربية ... حتى اصطفاني لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهم
أية مقال إلا دعاني ليليه عليّ ، حتى انتقلتُ من طنطا فعاد إلى ما كان من عادته ،
على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدي يشركه في جلوة الوحي
جلوة الكتابة !

... وجلس فأملئ عليّ مقاله من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر
كف ، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت لهذه القصاصات بضعا
عشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهرا من جريدة البلاغ . وكانت ليلة
ملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمّل في ليلة غيرها ، فقامت منهوك القوة
بان ، وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في عنفوانه ، كأنما كان عليه عبء
ماه عن كتفيه ...

وكان بين البلاغ والعقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعي مودة ، فما كادت
تصل إليه مقالة الرافعي في البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم ، حتى أعلن عنها
بشر القراء أن ينشرها في غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين ...
كان نقداً مُراحمياً اجتمع فيه فن الرافعي ، وثورة نفسه ، وحدة طبعه ،
حرارة بغضائه .

أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية : إن هذه المقالة هي
خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات
ليلة يُعفيه من تبعثها أنه إنسان !

من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعى وأنزله غير ما كان يُنزله من نفسه فليقرأ مقال الرافعى فى نقد « وحي الأربعين » ليرى الرأى المجرد فى شعر العقاد عند الرافعى ...

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها ردّ العقاد على الرافعى ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعى حسابه ، فتغير وجه الحق ، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر ، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ، والمهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى ، وكان أكثرها سباباً وشتيمة وأقلها فى الرد والدفاع ، على أن العقاد لم يرد رأى الرافعى فيما أخذ عليه من مآخذ إلا فى مواضع قليلة ، وترك الرد فى أكثر ما عاب عليه الرافعى ، مستعيضاً عن الرد بالشتم والسباب ...

وإذا كان السبب مفهوماً فى طعن العقاد على الرافعى وشتيمته إياه ، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك إسماعيل مظهر مع الرافعى فيما وجه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يذكر أن إسماعيل مظهر صاحب العصور ؟ هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروّجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الرد على مقال الرافعى الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة سانحة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعى وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود » .

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافعى ، هو اتهمه فى وطنيته ، وإيهاه قراءه بأن الرافعى لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد

السياسي الوفدي عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك
بها من تهمة حين يقولها العقاد !

إن للعقاد مفاجآت عجبية في النقد ، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال
في أساليب السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع الرأي بالرأي
والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد في الرد على الرافعي ، فوجدت أسلوباً في الرد يؤلم
ولا يفهم ، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج ؛ فما فرغت من قراءة المقال حتى
تمثل لي الرافعي مُرَبِّدَ الوجه من غيظ وغضب ، مُزَبِدَ الشدقين من حنق
وانفعال ؛ فسرني أن أسعى إليه قبل ميعادي لأراه في غيظه وحنقه وانفعاله ،
فاتهرزت ساعة فراغ في الظهر ، ففضيت إليه في المحكمة ؛ فما كاد يراني مقبلاً
عليه حتى هتف بي وهو يتسم ابتسامة المسرور ثم قال : « أقرأت مقال العقاد ؟ »
قلت : « نعم » قال : « فماذا رأيت فيه ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلماً ! »
فضحك وقال : « والله مارأيت كاليوم ! لقد ضحككت حتى وجعني قلبي من شدة
الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً ولم يرد على شيء ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعلاه
عند القراء شاعراً كما يشتهي أن يكون ، وإن حسب أنه بذلك يكسب المعركة ؛
وقد حق عليه ماقلت فيه ، وإنه ليعترف ؛ إن فراره من الرد إلى السباب
والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز ... »

قلت : « إذن فأنت لاتنوي الرد ؟ »

قال : « وأي شيء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »

قلت : « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه ، ولن يسموه إلا

انسحاباً من المعركة ... ! أفترض أن يقال عنك ... ؟ »

وبدا على الرافعى كأنه اقتنع ، وهاجته كلمتى مرة أخرى إلى النضال .
ومعذرة ثانية إلى العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعى جديرة بأن يحتفل لها الأدباء
وأن تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها لمتاعا ولذة وفائدة ، وما كان
لى أن أقنع وقد هجمت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهى
من أول شوط !

وقال لى الرافعى : « هل توافينى الليلة لأملى عليك ؟ » .

فواعدته : وذهبت إليه فى المساء فأملى علىّ فصلاً من نسخته الخاصة
لكليّة ودمنة بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالاً فى الرد
على العقاد . وكان فصلاً قاسياً عنيفاً ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ،
إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب ، بل الرد والسخرية والإيلام ، ثم قطع
السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدّم من مواضع النقد .

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة شاكراً للذين أيدوه ، معذراً
من عدم الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافعى ! واستمر الرافعى يكتب
حتى فرغ .

وكان النصر للرافعى عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء
العقاد الكتاب الوطنى الكبير . إذ لم يروا عداوة الرافعى له فى الأدب
إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد !

* * *

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعى والعقاد ، ولكن الرافعى لم يقتنع بما
نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ،

إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه
لأنهم على مذهب العقاد السياسى ، فظل مغیظا محنقا إلى حين . . .

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فإذا العقاد الذى
كان كاتب الوفد الأول خارجاً على الوفد ، يطعن عليه وعلى رئيسه ، وأنصار
الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة . . . ووجد الرافعى الفرصة سانحة
لينتقم ، وليستخدم السياسة فى النيل من خصمه فى الأدب فيكيل له صاعا
بصاع ويحاربه بمثل سلاحه ، فكتب مقالا بغير توقيع فى كوكب الشرق ،
جريدة الوفد ، بعنوان « أحق الدولة ، وكان مقالا له رنين وصدى . . .

ونشر فى « الرسالة » يومئذ كلمات تحت عنوان « كلبة وكليمة » عرض فيها
بالعقاد الخارج على الوفد تعريضا أليما يؤذيه ، لم يتنبه له إلا القليل .

وكان مقاله عن العقاد فى كوكب الشرق ، وكليماته فى الرسالة ، سببا فى
أن يدعو الأستاذ توفيق دياب ليحرر فى « الجهاد » بأجر كبير ؛ ولكن لم يتم
بينهما اتفاق .

ولم تكن تسنح للرافعى سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها فما كتب الرافعى
عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضا بشعر العقاد .
ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه فى المقطم ، وما نشره عن
الشاعر محمود أبو الوفا فى الرسالة . ومقالته « بعد شوقى » معروفة مشهورة ،
وكلها تعريض بشعر العقاد الذى نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر فى يوم
من الأيام بعد شوقى !

والعداوة بين الرافعى والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أى أثر فيما أنتج كل من الأدبيين الكبيرين فى أدب الوصف ، ولاتدانى هذه العداوة فى الشهرة إلا العداوة بين الرافعى وطه حسين .

وأحسب أنه كان فى الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعى فى تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة مرة قبيل موت الرافعى : « وددت لو يكتب العقاد فى الرسالة ، ولكنهما يمنعنى من دعوته إلى ذلك أننى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد ! » . قلت : « فماذا يمنع ؟ » .

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتدادا بنفسه بإزاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئا ذا بال ، ولكنه مع الرافعى والعقاد له شأن أى شأن ! » .

وظل صاحب الرسالة معنيا بهذا الأمر ، حريصا على أن يجمع بين الأدبيين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فانحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !

رحم الله الراحل ، ونفع بالباقي !

فترة جِهام

نفض الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزود ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً ، كان في أثنائها يتهياً لإتمام كتابه «أسرار الإعجاز» ، ويعمل في الوقت نفسه على جمع مانشر من المقالات في الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتاباً يسميه «قول معروف ...»

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف - لم تمنعه أن يكون له في كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هذه الساعات المحدودة في أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جِهام وراحة لم ينعم بمثلها فيما بقي من حياته . وكنت بصحبته يومئذٍ قريب العهد ، ولكنى كنت ألصق أصحابه به ؛ فكان لى معه كل يوم ساعات : يقرأ لى وأستمع إليه في داره ، أو أماشيته في الخلاء ، أو أجالسه في القهوة ، أو أصحبه إلى السيار . وكان علىّ في هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضناً بوقته على قراءة ما لا يفيد ؛ وكثيراً ما كان يدفع إلىّ بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيي فيه وأشير عليه بالجواب ، أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير في تكويني وتوجيهي في الأدب توجيها لم أكن أقصد إليه ، كما تأثر هو بصحبتى في هذه الفترة تأثراً وجهه في أدب الإنشاء توجيها لم يكن يُعرف به منذ نشأ في الأدب

قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يتَّهم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصة - وما تزال - أحب ألوان الأدب إلى ، على حين كان الرافعى لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعد فصار ما ينشئ من القصص هو أحب منشآته إليه ، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يذكر في هذا الباب أتى كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وقّعها عند القراء يدفعنى إلى الإجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب على ما أكتب ، ولا يرضى منى أن تكون القصة هى كل ما أعالج من فنون الأدب ، ذلك هو الرافعى ؛ وكثيراً ما كان يقول لى : « يابنى ، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً ؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هى كل ماتحاولة من ضروب الإنشاء ، وإن فيك استعداداً لا أكثر من ذاك ... » ، وما زال يلح على ويكرر هذه الملامة ، حتى وقع فى نفسى أتى أسىء إلى نفسى بمحاولتى أن أكون قصصياً ؛ فانصرفت عن القصة وكانت أحب إلى ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشئ من « القصص المدرسية » التى أولفها لتلاميذى على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب ، ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هى أكثر ما يعالج الرافعى من أدب الإنشاء ، وكان له فيها فَوَاقٍ وسبق ، وحلت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ...

وإذ كان فى أُذُنِي الرافعى ذلك الورق الذى يقطعه عن دنيا الناس ، فإن

أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء ، فلما اصطفاني بالود ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه وما يرى القراء في أسلوبه ، فكنيت إذا جلست إليه ليملى عليّ ، حاورته فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبؤ عنه أسماع القراء ؛ ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع ؛ وكان ينكر ذلك عليّ أول أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك مني ، فكان يملئ عليّ العبارة من المقال ، ثم يسألني : « ماذا فهمت مما كتبت ؟ » فإذا كان ما فهمت يطابق ما في نفسه ، مضى في إملائه ؛ وإلا عاد إلى ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ويبين المراد . وبلغ في النهاية أن يسميني - على المزاح - : العقل المتوسط من القراء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال ، إلا أحاديث كان يملئها على بعض المرتزقة من كتاب الصحف الأسبوعية . وكان له بطانة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يفدون إليه في المحكمة ليسألوه حديثاً فيملئ عليهم جوابه ، ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره . في هذه الفترة ، وكلّ إليه الأديب حسام الدين القدسي الوراق تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه ، على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب .

وقبل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره ، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه

الناس ، وليستمتع بلذة المعاناة في تصحيحه وتصويب خطئه ؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يقوى عليها إلا القليل من الأدباء ، ومضى في هذا العمل شهرا أو يزيد ؛ وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التي كانت بينه وبين القدسي ، فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءا غير قليل . وقد استطعت في تلك الفترة التي صحبت فيها الرافعي وهو يحاول تصحيح الكتاب ، أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء عجيبة ؛ من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأني بإزاء مكتبة دقيقة الترتيب منظمة التبويب ما شئت من بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحيانا يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ؛ فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساقط الكلام ؛ وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظل الرافعي يبحث يوما كاملاً عن تمام بيت من الشعر في مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولني ذلك الكتاب » فمدت يدي إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذي كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبل لتصحيحه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر في الكتاب الذي بين يدي ؛ فإذا تمام البيت فيما كتبت وفي الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا في حرف الجر ... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ... ؟

ولم يكتب الرافعي في هذه الفترة إلا بضع مقالات ؛ وكان لكل مقال حافزه ودواعيه :

١ — كان السيد حسن القاياتي يكتب في جريدة « كوكب الشرق » كلمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوما أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم في القصاص حياة... » وقول العرب : « القتل أنفي للقتل ! » فانزلق إلى رأى ... وكان محرر الكوكب في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو من هو عند الرافعي في دينه وفي أدبه وفي إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعي يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق .

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعي برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتي وإلى ضلاله في تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن : ودفع إلى الرافعي رسالة شاكر وهو يقول : « أتصدق هذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هي مبالغة وتهويل من محمود ، أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث في طلب الجريدة التي نشرت هذه الضلالة فجىء بها ؛ فما كاد يقرأها حتى أربد وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شذقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضبا إلى الدار قبل مواعده . فانقطع عني يومين ثم أرسل يستدعيني إليه ، فأملئ على مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة ! » وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعي ، نشرتها البلاغ في صفحتها الأدبية ؛ وقد أورد فيها بضعة عشر رأيا في بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعد فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الإعجاز ،

الذى لم يطبع بعد... (١)

وقرأ القاياتي مقال الرافعى فى الرد عليه ، وأحسبه قد اقتنع بما قرأ واعترف على نفسه فى خلوته ، ولكنه لاذ بالصمت ، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن ؛ فلا هو رد عليه ولا هو اعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلت إليه ... !

وفتح مقال الرافعى أبواباً من القول لطائفة من الأدباء ؛ إذ كان فيما رد به الرافعى أن كلمة « القتل أنفى للقتل » ليست جاهلية كما يعرف أكثر قراء العربية ولكنها نشأت فى العصر العباسى لمثل ما استعملها له القاياتي فى معارضة القرآن ، وأسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكتثم بن صيفى ليتم له قصده ؛ وجازت دعواه على كثير من قراء العربية حتى كشف الرافعى عن زيفها بعد ألف سنة !

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعى وبعض الأدباء ؛ وكان أول من عرّض لمناقشة رأى الرافعى هو أخونا الأستاذ عبدالعزيز الأزهرى ؛ ولكنه لم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط ؛ فكتب إلى الرافعى رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليه بأنه مشغول البال بالاستعداد للزواج... ! ثم تداول رأى غيره ، فكتب الأستاذ الكبير « أزهرى المنصورة » (٢) يرى فى تاريخ الكلمة رأياً غير ما يرى الرافعى ؛ وكتب شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي ؛ وطال الشد والجذب حول تاريخ هذه الكلمة

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه ، سيقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة إتمامه فى وقت قريب . على أنى قد نشرت هذا الفصل فيما نشرت من مقالات الرافعى فى الجزء الثالث من « وحى القلم » .

(٢) صح عندنا أخيراً أن الأديب الكبير (أزهرى المنصورة) هو أستاذنا وصاحب الأيادى علينا الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي نفسه ؛ فمن شاء برهانا على ذلك فليقرأ الصفحات الأولى من كتاب (الإسلام الصحيح) .

٢ - وفي هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يمنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يمتنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلساته ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ..
وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع .

واقترح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلى جريدة البلاغ قائلاً : « اقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوى فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »
وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ونسكتها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعها « أديب صغير » ، مبالغة فى السخرية والتهكم . وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس له فى العربية مكان .

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير » ، قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعراً بجوابه ، ولكنى

(١) انظر قصة الكلمة المترجمة : فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجموعة

كذبت نفسي ... أأكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عني ؟ لقد كان معي أمس ،
وأمس الأول . فلم يحدثني بشيء في ذلك ؟

وقلت للرافعي : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر .. لقد
حاولت فلم أوفق » وكان حسبي هذه الكلمة ليزول كل شك في نفسي ، فما
كذب عليّ الرافعي قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الشيخ حسين والى عضو المجمع ، وعاد الرافعي يردّ ويتهكم ويسخر ،
ويتحدّى المجمع اللغويّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التي مرّت بها
كلمة (حظي) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) في برقية الشكر
إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الشيخ حسين والى ، وظل الرافعي
(الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) في نقد المجمع اللغوي : هي آخر ما كتب الرافعي
في النقد على أسلوبه وطريقته (١) .

٣ — ومما كتبه الرافعي في تلك الفترة بحث طويل في البلاغة النبوية أنشأه
إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق ، لتشره في ذكرى المولد النبوي
وقد لقي من العناية في إنشاء هذا الفصل ما لا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن
تعلم أن الرافعي لم يتهياً لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس ،
وأنفق في ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ
فيه صحيح البخاري قراءة تلاوة ؛ فكيف به ذارساً متمهلاً يقرأ ليتذوّق بلاغة

(١) كان ممن نالهم رشاش هذه المعركة الصغيرة ، أستاذنا العلامة الشيخ عبد القادر
المغربي عضو المجمع ، سلكه الرافعي ، فيمن سلك على غير قصد ولا نية ؛ لأنه اتفق
له رأى في بعض ما يجب على المجمع نشره في البلاغ إبان هذه المعركة ، فظن الرافعي
أنه يعني بهذا المقال أن يرد عليه ، فكان للرد على الأستاذ المغربي نصيب من مقال
الرافعي . تقرأ قصة (حظي بالشئ) في تفصيل أطوار هذه المعركة ، في الجزء الثاني ،
السنة السادسة من مجلة الرسالة ، لأستاذ جليل .

الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه ! وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلى لا كتبه بخطى ولم يمله على ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى .

هذا الفصل يملأ نحو أربعين صفحة من مثل هذا الكتاب ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن - لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة - فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه (١) .

٤ — وما فرغ الرافعي من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجة إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكده يأتي المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يعد لها موضوعاً تنشره في صحيفتها لمناسبة المولد النبوي كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعي ، فهم أن يلقي الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تخرج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأفعلها قربي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بي هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى على مقالته « حقيقة المسلم » الذي أعاد نشره في الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحي القلم .

وله في هذه الفترة بضع مقالات أخرى نشرها في مجلة المقتطف . ثم دعت الرسالة ليكتب فصلاً عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣ هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله .

(١) نشر في الجزء الثالث من « وحي القلم » .

٥ - بعد ما أنشأ الرافعى مقالة «وحى الهجرة فى نفسى» ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه «الملاح التائه» وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعى والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت فى مكتب الأستاذ صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعى يقضى أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك يلتقى الرافعى ، وصروف ، وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتمل الجدل ساعات فى موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعى ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة - أحب إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعد حين اتصل سببه بالرسالة ، فكان يقضى وقته بين عيادة الدكتور شخاشيرى فى فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والماسزنى فى البلاغ ، وإخوان صروف فى المقتطف ، والزيات فى دار الرسالة . ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام فى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ؛ عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه «وحى القلم» .

قلت : إنه كانت بين الرافعى والشاعر على محمود طه صلة من الود . ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميماً) للبيت الذى كان فى نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعى من جهاده بضعا وثلاثين سنة ، بضع مئات من الجنيهات ، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتا يسكنه - إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه - وبقى معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفى نفقات البناء والإنشاء ، فأثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شيء ، وأسلف صهره مابقى عنده من المال إلى أجل ، وفى النفس أمل . ثم جاءت

الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعاً لم تبق منها على شيء ، وضاعت ذخيرة الرافعي فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعي من جهاده وما ادخر إلا الأرض الخربة ، والأمل في عطف الله ، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته ، مرسومة على ورقة زرقاء ... !

... وجاءه ديوان الشاعر علي محمود طه ، وديوان الماسحى ؛ فدفعهما إلى لأختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولكن رأيت في ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهيأ للكتابة عنه ...

وأنشأ مقالة مسهبية نشرها في المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته في فهم الشعر وفي إنشائه ؛ ثم انتنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثني ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمناً بما كتب ، ولكن إيماءات من الواعية الباطنة^(١) كانت تملي عليه بعض الحديث في التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول المازني ديوان « الملاح التائه » في البلاغ بعد ما تناوله الرافعي ، فعاب عليه أشياء كان الرافعي يمدحها ، وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة والأسلوب ؛ فكانت مقالة المازني حافزة للرافعي على أن ينشئ مقالة للرسالة في الرد عليه ، جعل عنوانها « الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنّيته » ؛ فهذه المقالة كان الرافعي يقصد المازني ، دفاعاً عن صديقه الشاعر ، أو دفاعاً عن مذهبه في الشعر . وكانت هذه أولى مقالات الرافعي في الرسالة بعد فترة من مقالة « وحى الهجرة » وقد أنشأها على نهجه القديم ، وحاول فيها فنا من التهكم في قصة اختراعها عن الأصمعي الراوية .

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير للرافعي عما يسمونه بالعقل الباطن .

كان الرافعي مفتوناً بمقالاته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة : البلاغة النبوية ، وحقيقة المسلم ، ووحى الهجرة . وكان حُسن وقعها عند كثير من القراء ، حافزاً له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني ، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفي ، ليجعلها كتاباً بعنوانه ، يتناول سيرة النبي المعظم - صلى الله عليه وسلم - على طريقة من التحليل والفلسفة ، لا على نسق من الرواية . فأنشأ بعد ذلك مقالاته : « سمو الفقر » ، و « الإنسانية العليا » ، ثم بان له من بعد أن هذا الفن من الإنشاء عسر الهضم عند كثير من القراء ؛ فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع في الحياة المصرية ، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً في قترات متباعدة حتى لا يميل قراءه أو يُثقل عليهم ، وسأتحدث من بعد عن كل مقال من المقالات التي أنشأها ، للرسالة ، في الفترة التي صحبته فيها ، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه ؛ ولعله يبلغ بي الوسيلة إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعي ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن ، أو الأدب الفني والأدب النفسي (١) ...

ولكن على قبل أن أبدأ هذا الحديث ، أن أصف الرافعي حين يهيم بموضوعه ، ثم حين يفكر فيه ، ثم حين يتهيأ لكتابته ، ثم حين يمليه على من القصاصات المبعثرة على مكتبه ، فإن ذلك من الموضوع فاتحته وأوله :

(١) أنظر مقالات الأستاذ سيد قطب في مجموعة السنة السادسة من مجلة الرسالة ، وفيها كل مدار من الجدل حول أدب الرافعي بين أصدقائه وخصومه .

كيف كان يكتب ؟

اختيار الموضوع ، كان أول عمل يحتفل له الرافعى ؛ وإذا كان لم يعمل في الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة ، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع ، إذ لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه ؛ فلما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة ، فكان يضيق بذلك ويتحير ، ثم لم يلبث أن تعودها ، فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلقى باله إلى كل محاورة ، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس ، ثم لا يهتم أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره ، إلا أن يجد له صدى في نفسه ، وحديثاً في فكره ، وانفعالاً في باطنه ، وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع ؛ وكثيراً ما كان يتأبى عليه القول فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة ، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام !

فمن خشية مثل ذلك كان دائماً في جيبه ورقات يكتب في إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب ، ليعود إليها عند الحاجة ؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التي تتفق له في أي من هذه الموضوعات أين يكون ، وبلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثبت حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها ، وورقات أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد ، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع . . ومن هذه

الورقات . ومن فضلات المعانى فى المقالات التى كتبها وفرغ منها — كان يختار « كلمة وكلمة » التى كان ينشرها على قراء الرسالة فى فترات متباعدة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة . فهذه الكلمات هى إحدى ثلاث : خواطر مبعثرة كان يلقاها فى غير وقتها ، أو عناوين موضوعات لم تنهيا له الفرصة لكتابتها ، أو فئات من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعانى بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيد عناوين الموضوعات التى كان يختارها لىكتبها فى وقتها ، كان يعد قراءه أحيانا بموضوعات ثم لا يكتبها ولا ينفى بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً فى ورقة بيضاء

ومن ذلك مقالة (الفيلسوف الزبال) التى وعد أن يكتبها حين أنشأ قصة « بنت الباشا »^(١) ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً فى رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعانى التى كان يدخرها إلى يومها المؤمل !

ولقد وجدت على مكتبه فى طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ...

* * *

فإذا تم له اختيار الموضوع الذى ينهى لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة تهى له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً يطول أو يقصر ، يقيد فى أثناء خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شيء مادة وحى ، فكان فى كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن فى كل

ما يسمعه لونا يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يملئ عليه معنى
أو رأياً أو فكرة .

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له
هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — أخذ في ترتيبها معنى إلى معنى ؛ وجملة إلى
جملة ، ورأياً إلى رأى . فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفي عنها من
الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكلمة » ، أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج
بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا :
يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأى
رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن
والصناعة لتخرج مقالة الرافعى إلى القراء في قالبها الأخير الذى يطالع به الأدباء .

* * *

لم تكن الكتابة عند الرافعى فكرةً ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى
ذلك فناً وأسلوباً وصناعة ؛ والأدب العربى منذ كان إلى أن يطوى تاريخه بين
دفتين هو فكر وبيان ، ما بدأ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدباً يستحق
الخلود . ذلك كان رأى الرافعى ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد
انتظمت في خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتُنشر إلا أن يهيئ
لها الثوب الأنيق الذى تظهر به لقراءها ؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة .

وأول ما يعنيه فى ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعنى العبارة التى
يبدأ بها والى يختم ، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام فى الموضوع ، شأنه فى

ذلك شأن القاص : تجتمع له أسباب القصة بمقدمتها وحوادثها وما آلت إليه مرتبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت ؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ليعقد « العقدة » ويرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته وكذلك كان الرافعي يفعل في مقالاته .

... فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية ، آن أو ان الأداء فأخذ له أهبطه ، فيطوى وريقاته ساعة ليرجع إلى كتاب ، أى كتاب ، من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق ، لإمام من أئمة البيان العربى ، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب في بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ في هذا الباب ، كتب الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغاني لأبي الفرج .

وسأله في ذلك مرة فقال : « نحن يا بنى نعيش في جو عامى لا يعرف العربية ، ما يتحدث الناس وما ينشئ كتاب الصحف في ذلك سواء ، واللسان العربى هنا في هذه الكتب ؛ إنها هى البادية لمن يطلب اللغة في هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية ، .. »

على أنه كان لا يفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة إلا الجوّ البيانى فقط . أما حروف اللغة وأما أساليب اللغة ، فلم تكن تعنيه فى شيء ؛ فيقرأ عجلاً غير متلبّث كما يطالع صحيفة دورية ، حتى يفرغ من الفصل الذى بدأ ؛ ثم يطوى الكتاب ويستعد للإملاء .

وإذا كان كثير من الكتاب تزججهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار

في الكتابة (١) ، فإن الرافعي كان - على ما في أذنيه - يزججه أن يمر النسيم على صفحة خذه . . . كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة ، وكان لي نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليلتي على : فكان يلذني أحيانا والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأترّوح ، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف . وعرفتُ عاداته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة جميعا ، لأصلي حرّ الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذيني من ذلك أني كثير التدخين : والحر والمجهود العصبي يزيدان الرغبة فيه ، فلا تمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة لتجديد الهواء برهة نتبادل فيها الحديث ، ثم أعود فأغلقها ليلتي على . . . على أنه في غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضي في الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى في برد الشتاء القارس : فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبّا كما يُقبل الشارب الحرّان على الماء في يوم قائف . . .

ولم أكن أقاطعه حين يملّي على مقاطعةً ما ، إلا حين أشعر أنه يهيم بالانتقال في الموضوع من فصل إلى فصل : فألقى إليه ما أريد أن أقوله مكتوبا في ورقة ، لأحاوره في عبارة أو لأستوضحه معنى . . . ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا ، وهو لا يرفع عينيه إليّ ، كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه في نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يُخيّل إليّ أحيانا وأنا صامت في مجلسي والقلم يجري في يدي على الضحيفة وأذني مرهفة للسمع - كأنه في شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشيء إلا

(١) حدثني الأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » أنه لا يستطيع أن يكتب فصلا من مثل ما تعود قراءه أن يطالعوه له في الرسالة ، إلا أن يحشو أذنيه قطنًا حتى لا ينفذ إليه صوت ولا نامة !

إدراكاً غير مجسّد ، وأحيانا أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملني ،
فما أكتب كلاما يمليه عليّ ولكن تمليه نفسي على نفسي وإن صوته ليرنّ في
أذني بما سبق إليه خاطري ...

ولم يكن يملئ مسترسلا ، ولم يكن يملئ وانيا متمهّلا ، ولم يكن في كل
أحواله سواء ؛ فحينما يطاوعه القول ، وحينما يتأبى عليه فيسكت وهو يدق على
المكتب بجديده في يده ويغمغم بصوت لا يبين ؛ فإذا طال به الوقوف تناول
كتابا أيّ كتاب على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطرا أو جملة ؛ ثم يطوى
الكتاب ويعود إلى الإملاء ، ولقد يراه من يراه في هذا الوقت فيحسبه يملئ
مما قرأ ، وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعودها حين يُرتج عليه
وتعود أن يجد فيها مفتاح القول ...

ولقد تأبى عليه القول مرة فطال به الصمت ، فمد يده إلى كتاب على مكتبه
وهو يقول ضاحكا : « يا أخى ، لقد تعودتها وما أجدها علة ، وتعودت بها
أن أجدها ما أريد عند أول كلمة أقرأها ولو كان الكتاب معجما لغويا ... »
وكان الكتاب الذى مدّ إليه يده هو « القاموس المحيط » قلت : « ان في بعض
الأشياء مثل المفاتيح العصبية ... » قال : « صه ، هذه هي الكلمة التى أريدها :
المفاتيح العصبية ... » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الإملاء (١)

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من
إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعا
من نفسه فيردّها وما بها من عيب ، ليبدل بها جملة تكون أكثر رنيناً

(١) انظر مقالة « تربية لؤلؤية » ، وحى القلم الجزء الأول .

وموسيقى . وكان له ذوق فني خاص في اختيار كلماته ، يحسه القارئ في جملة ما يقرأ من منشآتة ، وكنت أجد الإحساس به في نفسى عند كل كلمة وهو يملئ على . هذا الذوق الفني الذى اختص به ، هو الذى هيأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة . وحسب القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه (١) » ، ليرى نموذجا من هذا الذوق الفني العجيب فى فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الإنشاء . وكان إلمامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللاخوية فى مترادف الكلام — مُعِينَةٌ له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارة هذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أسلوبه ، فتأبى عليه القول ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته باباً من كتاب المخصّص لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب فأخرجته إليه ؛ فما هو إلا أن فتحته فوقع على مراده حتى طوى الكتاب وعاد إلى إملائه . وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة ؛ ومع حرصه على أن يكون قوى العبارة عربى الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين ، وكما أجد على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له فى إنشاء « الكناية » إحساس دقيق ؛ وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتبع ما أجد الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين ، إذ كان مذهب الرافعى فى الكتابة هو أن يعطى العربية أكبر

(١) سمو الحب : وحى القلم ج ١ .

قسط من المعاني ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وقد بلغ ما أراد .
إننى لم أعرف كاتباً غير الرافعى يجهد جهده فى الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل ؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشعوذ عليهم ليملاً فراغاً من صحيفته يريد أن يمتلئ ؛ على أنه أحياناً كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهياً لموضوعها أو يفرغ له باله ، فيملأها على عجل بلا إعداد ولا توليد ، ولكنك مع ذلك تجد عايتها طابع الرافعى وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه ؛ والعجيب أن هذا النوع من المقالات التى كان الرافعى يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء ، وكان الرافعى يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة منهم ...

والشأى أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التى يطلبها الرافعى عندما يكتب ، وفنجانة أو اثنتان هما حَسْبُهُ فى هذا المجلس الطويل . وعلى أنه فى أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) ويستعوض عنها بالدخان فى أثناء الكتابة ، فإنه لم يكن يشعل إلا دخينة (سيجارة) أو دختين فى مجلس الكتابة ؛ فكان يشتري العلبة فتظل فى درج مكتبه شهراً إذا لم يزره فى مكتبه زائر ...
.. فإذا فرغ الرافعى من إملاء مقاله ؛ تناوله منى فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله فى الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذى أملاه على فى الليل فيقرأه ويصححه .. ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يهتئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هى عمل الفكر ، وكد الذهن ، وجهد الأعصاب ، وحديث

النفس في أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة ... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب « رسائل
الأحزان » في بضعة وعشرين يوما ، وكتب « حديث القمر » في أربعين ،
وكتب « السحاب الأحمر » في شهرين ...

وقال قائل من خصومه : « إنه يقاسى في هذه الكتابة ما تقاسى الأم من
آلام الوضع ... »

وقال الرافعي بحجبه : « أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها ... وعلى
نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله ! »

عمد في الرسالة

« أنا لا أعياً بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ؛ والقبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أأسر من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يجبل إلى دائماً أني رسول لغوى بمثل للدفاع عن القرآن وافتنه وبيانته ... »
« الرافعي »

لم يعمل الرافعي في صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل حبله بالرسالة ؛ فإن مذهبه الأدبي لم يكن يعينه على ذلك ؛ وقد قدمت القول عن طريقته في الكتابة ؛ وليس يتسع الوقت لمن يكون هذا مذهبه في الإنشاء أن يعمل في صحيفة من الصحف تظهر لقراءها في مواعيد رتيبة ...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات للهِلال والمقتطف وغيرهما في فترات متباعدة إذا ومجد في نفسه حافظاً للكتابة ، أو إذا دعت صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقيقاً بالكتابة ...

فلما دعت الرسالة إلى الاشتراك في تحريرها وحددت له عمله وجزاءه ، تردد في الجواب ؛ لكنه لم يلبث أن لبى نداءها ، لعله يستعين بما يحصل له من أجر الكتابة في الرسالة على أمر من أمره ...

كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب في جامعة ليون - فرنسا على نفقة جلالة الملك ، ولكن الإبراشي باشا الأمر ما قطع عنه المعونة الملكية وليس بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ؛ فحمل الرافعي بذلك من الهم ما حمل ، إذ لم يكن له طاقة مالية تعينه على الإنفاق على ولده في فرنسا ؛ فمن ذلك أجاب « الرسالة » إلى ما طلبته ...

كان ذلك في ربيع سنة ١٩٣٤

فظل يكتب لها كل أسبوع مقالة أو قصة؛ لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة، ومات وهو يتهيا لكتابة مقالته الأسبوعية، ولكن القضاء عاجله فخلفها على مكتبه ورقة بيضاء .. !

وسأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أملاها على الرافعي في الفترة التي صحبته فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالة نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه، وإني لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه في نفسي ولا يتأذى مؤداه إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعي إلى كل مقال مما أملاه علي؛ وإني بهذا الفصل لأحاول جديدا في فن الترجمة؛ فما أعرف كاتباً من كتاب التراجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الأدباء، على أن له أثراً أى أثر في دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه؛ فمن ذلك كانت عنايتي بهذا الباب، وإني لأرجو أن تعينني الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد ...

لم يكن بين الرافعي والزيات صلة ما قبل صدور الرسالة، إلا صلة الأديب بالأديب، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسائلهما، ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعي، فتعارفا وأثلقا وإن لم يلتقيا وجها لوجه ... ومضت أشهر ...

وتصدّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ : فإذا فيها كلمة عن « أوراق الورد » للزيات ، يجيب بها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية في رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد ... » رأيها في أوراق الورد فعابته ونزلت به منزلة . وكان الرافعي في هذه الأثناء بعيداً عن طنطا يصطاف في « سيدى بشر » ، وكان علىّ في هذه الفترة ، والرافعي في مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف : فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردّت به الفتاة ، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه في سيد بشر ومعه رسالة منى ... وقرأ الرافعي ما بعثت إليه ، فانتضى قلبه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأى الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجد لها صاحب الرسالة إلا فصلاً من « على السفود » لا تقوى على لدغاته الفتاة الناعمة ... فطوى كلمة الرافعي ، ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة من منشور أوراق الورد ... ولم يجب الرافعي هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر .

كانت كلمة الرافعي إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هي أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف ، وكان الرافعي يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذا كان الرافعي لا يملك أن يحسن إليه بالمال - والمال في يده قليل - فإنه كان يحسن إليه بما يملئ عليه من رسائل الأدب ، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعي !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : « لماذا لاتعالج القصة ؟ »

وأملى عليه الرافعى جوابه ، فذهب فنشره فى الرسالة بعنوان « فلسفة القصة » ، وكان أول ما نشر للرافعى فى الرسالة (١) .

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافعى أن يكتب فصلا للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحى الهجرة فى نفسى » (٢) ،

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » ، وكان مرجوا أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان - وطابعه غير صاحبه - أن يكون إعانة مادية لناظمه توسع عليه ما ضاق من دنياه ... !

وقرأ الرافعى ديوان الأعشاب ... ثم هزته أريحته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقا لرجاء الراجين فيه وبرأ بصاحبه ، وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالا يُعَنونه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعانى إليه واصطنع حديثا بينى وبينه فأملأه على لينشر فى الرسالة مذيلًا باسمى ؛ وما كان بينى وبينه حديث فى شيء ؛ ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فُسِّمَتْ حديثا ... وأرضى كبرياه وعاطفته فى وقت معا .

كان الرافعى فى حرج وهو يملئ على هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه فى رأى وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات فى خاتمة الحديث كانت هى خلاصة الرأى فيه ؛ وبذلك برئ من الإسراف فى المدح ومن الإيلام فى النقد ، وخرج من الأمرين معا إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته ، فأجاد وأفاد فى باب

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .

(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .

من القول له منزلة ومقدار .

ونشر هذا الحديث في الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاءه البريد ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة ، يعرض عليه أن يكون معه في تحريرها ، وسمي له أجرا ... وقبل الرافعي ، وما كان له بد من أن يقبل ... !

وشبيه بهذا اللون من الإحسان الأدبي برأ بعض الحاجات — مقدمة كتبها لكتاب اسمه « الفاروق — عمر بن الخطاب ، ألفه مؤلفه وهو مدرس في إحدى مدارس الحكومة ، وسعى به إليه ليكتب له المقدمة ؛ وقرأ الرافعي الكتاب ، فلم يجد فيه ما يحفز به إلى إجابة هذا الرجاء ، فرد الكتاب إلى صاحبه معتذرا ؛ ولكن المؤلف عاد يرجوه ويستشفع إليه ؛ ويبسط له من حاله ويصف حاجته ... وأثرت كلماته وما وصف من حاله في نفس الرافعي ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب كلمة بعنوان « عمر » ، لم يعرض فيها للكتاب ، ولا لموضوعه ، ولا لمؤلفه ؛ ولكنها كلمة وجد فيها المؤلف طلبته ليصدر بها الكتاب وعليه اسم الرافعي ...

... فهذه الكلمات الثلاث : فلسفة القصة ، وديوان الأعشاب ، وعمر - وللرافعي كثير من أمثالها - هي حسنات أدبية أنشأها على أنها لون من ألوان البر والمعونة ، على مثال ما يتصدق ذوو المال بالمال !

* * *

وكانت أولى مقالات الرافعي بعد مادعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، مقالة « لا تجنى الصحافة على الأدب ولكن على فنيته ^(١) » ، وتوالت مقالات الرافعي بعد ذلك في الرسالة ، فنشر في الأسبوع التالي

(١) العدد ٥٠ سنة ١٩٢٤ من الرسالة .

مقالة «الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام»، وأحسبه اختار هذا الموضوع - على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق - احتفاءً بالمولد النبوي ؛ إذ كان هذا موسمه .

ثم نشر «موت أم»، وهي صورة حية نابضة لصّية فقدوا أمتهم وما يزال أكبرهم في الثامنة ؛ وهي صورة حقيقية مرّت أمام عينيّه فاتفعلت بها نفسه ؛ أما هذه الأم فهي زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصّبية فبنوها ؛ اهتصرها الموت في ريعانها فمضت وخلّفت وراءها أربعة ، فبكائها الرافعي بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى في جنازة قبل جنازتها ، ودفنت في مقبرة آل الرافعي بطنطا . ولما عاد الرافعي من الجنازة ليعزي صديقه في داره ؛ دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرّي عنه ؛ فكان بينه وبين عيني الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه يفيض بثّتي المعاني ؛ وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ؛ وعيناه تترقرق فيهما الدموع !

وروّح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر... ومضى يوم ثم أرسل يدعوني إليه فأملى عليّ «موت أم» ،

وكان الأسبوع التالي موعد امتحان الشهادة الابتدائية ؛ فكانت مقالته : «حديث قَطّين» ، وإنها لتحدث بنفسها عن شيء من مناسبتها . وإن فيها إلى ذلك شيئاً من خلق الرافعي لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ؛ ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له ؛ فكان دائماً باسم منبسط الوجه ، يقنع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له ، ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لم يكن يرى في تلك العلة التي ذهبت بسمعه وهو لم يزل

غلاما ، إلا نعمة هياوته لهذا النبوغ العقلي الذي أملى به في تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله في العربية منذ قرون ! ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدر وقانون التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ماتعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعي !

هذا الخلق هو المحور الذي كان يدور حوله الحديث الذي اصطنعه الرافعي على لسان القطين ؛ وهو الذي حمله من بعد على إنشاء مقالتي : « سمو الفقر » في العددين التاليين من الرسالة ؛ والشئ يُذكر بالشئ ؛ فلولا ما جاء في امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ، ما أنشأ الرافعي حديث قطين ، ولولا ما ألهمه حديث القطين من المعاني في فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتي : « سمو الفقر » ؛ ففي هذه المقالات الثلاث موضوع واحد يختلف عنوانه واتحدت غايته وكانت مناسبة ما قدمت ...

وقد يسأل بعض القراء : ولكن ماوجه عناية الرافعي بنقد سؤال توجهه وزارة المعارف إلى تلاميذها في امتحان الشهادة الابتدائية ، وليس الرافعي من أهل « البيدا جوجيا » ، وليست المناسبة من الخطر بحيث تحمل مثله على الاهتمام ! وأقول لهذا السائل الحفي : إن عبد الرحمن الرافعي - وهو أصغر بنيه وأحدهم إليه - كان يؤدى في ذلك العام امتحان الشهادة الابتدائية ^(١) ؛ ومن ثمة كانت عنايته بهذا الموضوع ، وله في هذا الباب نظائر ...

ثم أنشأ مقالة « أحلام في الشارع » وقصتها أني كنت أساهز الرافعي ليلة ، فلما انتهت السهرة صحبتته إلى قريب من داره ، ومررنا في طريقنا بدار (بنك مصر - طنطا) ، وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعي

(١) هو الآن ضابط من ضباط المدفعية في الجيش المصري .

هذه ليشهد منظرًا استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسدت الفتاة ذراعًا وألقت ذراعًا على أخيها ... ووقف الرافعي ووقففت ... ورأى الشرطي مارأينا فأسرع إلى الطفلين ... وفي الغد أملى على الرافعي مقالة « أحلام في الشارع ! » .
... وكانت المقالة التالية « في اللهب ولا تحترق ! » .

وهي الممثلة الراقصة المغنية ... وكانت تعمل في فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقها في طنطا في صيف سنة ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافعي إلى مصيفه في « سيدى بشر » ذلك العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون في طنطا من أسباب الترويح والرياضة ؛ وإن فيها لغناء وعوضا .

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعي نسمر معه كل مساء « س ، أ ، ع » ، وجلسنا حوله ذات ليلة . وكان متعباً مكدوداً يشعر بحاجة إلى لون من ألوان الرياضة يردُّ إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ » .

قال أ : « إن في متنزه البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها لمغنية راقصة ؛ أحسبها خليفةً بأن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ! ، فمطَّالرافعي شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، وأحسب أن الصديقين « أ » و « ع » ، كانا على رغبة مشتركة في هذه السهرة . فما أحسَّا رفض الرافعي حتى قال ع :
« ... ولكنها راقصة ليست كالراقصات ؛ إنها صوامة قوامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقله ، وتصلى الخمس في مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغنائها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ... ! » .
مغنية وراقصة ؛ ولكنها صوامة قوامة ... يا عجبا ! وهل في الراقصات كهذه

التي يصفها الصديق العاثر ع ؟ ... ولكن الرافعي صدق ، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الرافعي . واتفقنا على الرأي .

« هذه هي الراقصة التي أعني ... » هكذا قال الصديق « ع ، فاشرب الرافعي ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت في أعين الناس ... كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام ... هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق اللفء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحاملتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع ... هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتترامى إليها أمانى الشباب ، ولكن رجلا واحدا بين النظارة لم يكن يبصر شيئا من ذلك : رجلا لم يكن أحد - فيمن أعرف - أضعف منه بإزاء سحر المرأة ، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف ، وهذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس ... هي في عين الجميع أنثى فاتنة ولكنها بعينه قديسة تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغنى ؛ وكانت بعينه عابدة تسبح وتصلى ... كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهي تفتن في إغراء الرجال بالنعمة والحركة والرَّنْوَة الفاتنة ؛ وكان الرافعي ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله تريه مالا يراه الناس !

وانفض السامرون إلا قليلا تحلقوا حول الموائد يقرعون كأسا بكأس ، ونهض الرافعي فيمن نهض ...

ومضى يومان ؛ ثم دعاني ليملي على مقالة « في اللهب ولا تحترق ! »

ولما فرغ الرافعي من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه « ع ، يستزيده

من خبر هذه الياقوتة الكريمة ؛ ويسأله الوسيلة إلى لقاءها إن كان بينهما سبب ،
لعل اجتماعا بينها وبين الرافعي يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء
الرسالة ؛ فابتسم الصديق «ع» ، وقد دبر في نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل
يُعجزه - وهو مَنْ هو - أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليضي في مراحته
إلى النهاية ؟

وذهب «ع» يسأل عن الراقصة ويستقصي خبرها فعرف ...

لقد فزت «الياقوتة» مع موسيقى الفرقة ، ومضى زوجها في أثرهما ، فأنحلت
الفرقة وغادرت المدينة .

وجاء النبأ إلى الرافعي ؛ فما عرف إلا من بعد أنها كانت مريحة من الصديق
«ع» ، فأسرهما في نفسه ...

وعاد الرافعي إلى المقال يقرؤه منشورا في الرسالة وهو يضحك ويقول :
« أهذا ممكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون في اللهب ولا تحترق ؟ » .

فرد الصديق «ع» ، قائلا : « لقد احترقت ! » .

وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها فيما قرأت من روائع
الأدب العربي !

كان أكثر جلساء الرافعي في هذه الفترة هم الأصدقاء «س . ا . ع» ، فكان
لهم سره ونجواه ، وإلى موعدهم مغداه ومراحه ؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم
هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة ؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء
في هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه ، فهي له في الليل مشغلة وفي النهار مشغلة .
أما «س» ، فكان على نية الزواج ، قد ترامت أمانيه إلى واحدة من أهله ،

ولكن التقاليد وقفت بينها وبينه موقفاً ما ، أورثه ضجراً وملاحة وسخطاً على الناس وتبرُّماً بالحياة وخروجاً على ما تواضع الناس عليه من التقاليد في شئون الزواج .
وأما « ا » ، فكان في عهد بين عهدين من حياته : قد ودَّع ماضيه بما فيه من عبث وبجانة ، وطلَّق شهواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجة المحبوبة المحيَّة ؛ فسَمَّى زوجته وعقد عَقْدَه ، ثم وقف ينتظر اليوم الذي ينبي فيه بأهله قلقاً عجلاً ، واليوم الموعد لا يحين لأن التقاليد تُبعده كلما دنا مواعده ...

وأما « ع » ، فشاب قد انفرد في الحياة من أهله : فقد أمه وهو غلام ، فما كاد يستوى شبابه حتى مضى ياتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الأثى ، فتزوج ، ثم فقد زوجه ؛ ثم تزوج الثانية فما بقيت إلا بمقدار ما بقيت الأولى ، ولكنها خلَّفت بضعة منها بين يديه مصورة في طفلة سلبها القدرُ أمها يوم مَنَحها الحياة !

... هو أب ولا زوج له ، وهو عزبٌ وكانت له زوجتان ، وهو قى يؤمن بالله ويلحد في القدر ، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما في المسجد وتعرف الثانية في الشارع ؛ وله عين عفة وعين فاجرة ؛ وله في الحياة تجربة ورأى ؛ وله إلى الهوى والملذات مثل اندفاع الشاب الذي لم يذق ولم يجرب بعد !

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه في الحياة ومذهبه ، واسكنهم قد التقوا في مجلس الرافعى على هوى واحد ، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه ؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ، ولهم من حديثه حكمة الشيخ ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حتى مما كتب الرافعى لقراء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات « قصة أب » .

ذلك هو الصديق « ع » ، كان الله له ... !

جلس مجلسه يوما إلى الرافعي يشكو به وهمه والدموع تترقرق في عينيه ؛ واستمع الرافعي إلى شكاته متألما حزينا ؛ فما فرغ « الأب » من قصته حتى جمع الرافعي « قصاصات » الحديث فجعلها في جيبه وجلس يتفكر ... ثم كانت « قصة أب » .

* * *

وفي الأسبوع التالي كان زفاف ابنته « وهيبة » إلى ابن أخيه في حفل أهلي خاص وصفه الرافعي في مقاله « عرش الورد » ؛ وهو عرش نظمه أخو العروس (١) لمجلس العروسين ، وجعل فيه فنّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدمه إليهما هدية عرس . ولما جلس العروسان ذراعا إلى ذراع في عرش الورد ، بارك لهما الرافعي ودعا ؛ ثم خرج ليمضي ساعات في القهوة . ولقيني هناك وحدي ، فانتحينا ناحية على حيد الشارع لا يترامى إلينا من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعي يؤثر أن يجعل مجلسه في الصيف على ذلك الرصيف في جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا » ، إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه في الليل والنهار من ألوان الجمال في الطبيعة والناس - مما يحبب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ، وإلى الفكر أن يُبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ... وكان الليل نائما يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همس خافت ، وفي الجوّ شعر يهزج في سرار النسيم وفي حفيف الشجر ، وعرائس الخيال تطيف راقصة تنفح بالعطر وترفّ بالنور ... ولكن الرافعي جلس مجلسه صامتا لا يتحدث إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة ... واحترمت صمته فسكت عنه ...

(١) الأستاذ محمود سامي الرافعي المدرس بكلية الزراعة بالجيزة .

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلى وهو يقول : « الليلة عرس ابنتي ... »
ولم يسمع جوابي ، لأن دمعة كانت تترقرق في عينيه وهو يتحدث حبستني
عن الجواب ...

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جاءني يقول والدمع يلمع تحت
أهدابه : « إن وهيبة مسافرة إلى زوجها في أمريكا ^(١) ؛ ليس من الحق أن
تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يومَ جاءني بعدها يقول وفي يده صحيفة أمريكية : « انظر هذه الصورة ،
إنهم يسمونه هناك : أصغر سائح مصري في أمريكا ... إنه حفيدي مصطفى
صادق الرافعي ^(٢) ... »

لقد كان الرافعي يحب أولاده حبا لا أعرف مثله فيمن أعرف ؛ ووهيبة
كبرى أولاده ، ذكرها في « الديوان » ، وغنى لها في « النظرات » وأزخ
زواجها في « عرش الورد » .

* * *

وكانت المقالة التالية هي : « الإنسانية العليا » .

وهي باب من القول في الأدب الديني تنتظم مع « وحي الهجرة »
و « الإشراف الإلهي » و « سمو الفقر » تحت باب واحد ...

... كان يعتاد الرافعي كما يعتاد كل إنسان ، نوبات من الضيق والهم تقعد به

(١) في سنة ١٩٣٥ سافر الشابان محمود سامي الرافعي ، وابن عمه وصهره سعيد
الرافعي في بعثة علمية إلى كاليفورنيا ، للتخصص في بعض فنون الزراعة ، ثم لحقت
بهما بعد قليل « وهيبة » لتكون مع أخيهما وزوجها ، فلم تعد ولم يعودا إلا بعد وفاة الرافعي !
(٢) لم يطأ هذا الرافعي الصغير أرضاً عربية إلا وقد جاوز الثامنة من عمره
وارتضخ لكنة أعجمية فلا يكاد يفصح في العربية عن معنى !

وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذى يعتاده
إلا أن يقرأ قرآنا أو ينظر فى كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه
ويزول ما به ، ويهون عليه ما يلحق من دنياه ...

فى نوبة من هذه النوبات التى تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافعى
كتابا من كتب الشمائل يسرى به عن نفسه ، فاتفق له رأى ... وخرج من
مطالعه بمقالة « الإنسانية العليا » |

* * *

... وكان للرسائل التى ترد للرافعى فى البريد من قراء الرسالة أثر يوحى
إليه فى أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه ، فهو منهم وإليهم ؛ ومنذ بدأ الرافعى
يكتب فى الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة فى موضوعات
شتى ولمناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحيانا فى اليوم الواحد
ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرأها جميعا ويحفظها فى درج خاص من مكتبه ؛
وللحديث عن هذه الرسائل باب آت ، وإنما يعنى اليوم أن أتحدث عن
الموضوعات التى استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة
« تربية لؤلؤية »

كانت تصدر فى القاهرة فى ذلك الوقت مجلة « الأسبوع » وقد فتحت صدرها
لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقلوبهم ... وشهواتهم !
وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه
السماحة أن صارت - كما يقول العامة - بطن حمار ! وأصبحت ميدانا للغزل
البرى وغير البرى ، وهو عدا من مواعد التلاقى والوداع .

وفى صبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعى رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى

محورة دأعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان فى مجلة « الأسبوع » . وبعث
الرافعى فى طلب أعداد المجلة فجىء بها ؛ فما قرأها حتى تناول القلم وأملى على
مقالة « تربية لؤلؤية »

فى هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعى فى حرية المرأة وحقها فى المساواة ؛
وترى لهذا رأى بقية فيما نشر من مقالات الزواج ، والطائشة ، والجمال
البائس ، وغيرها : وهو يزعم أنه بهذا رأى من أنصار المرأة عند من يعرف
أن يكون أنصار المرأة . وللرافعى حين يتحدث فى هذا الموضوع حجة قوية .
وبرهان ماض ، إلى روح رفاقة وشعر ساحر . ولست واجدا أحدا يرد عليه فى
ذلك على قلة من تجد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى المربى الكبير الأستاذ
محمد عند الواحد خلاف نداول رأى فى أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعى
مناسبة ما كتب الرافعى للرسالة فى موضوع المرأة ، فقال لى : « إنك لن تجد
أحدا من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحدا - أيضا -
يستطيع أن يصاول الرافعى فى هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه ! »

... وأرغى الرافعى بهذا المقال السيدة الكريمة التى كتبت إليه ، ولكنه
أعضب مئات من القارئات وعشرات من القارئین ؛ فانثالت عليه الرسائل من
هؤلاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضع رسائل ...

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤية » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى
الإسكندرية ليستريح يوما هناك يتزود فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ ...
كان قد كتب مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت فى نفسه ،
فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه ، فعاد ليملى على مقالة « لحوم
البحر » وهى قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعرى فاق

فيه الرافعى وغلب ...

كان للرافعى عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كتب أن يسأل عنه كل من يلقى من أصحابه : « هل قرأت مقالتي الأخيرة ... ؟ وما رأيك فيها ... ؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأى فيها بالنقد ... ؟ »

وكان يعتد كثيرا بمقالة « تربية لؤلؤية » ، ففي ذات مساء بعد نشر تلك المقالة قصد إلى القهوة ليريح أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء « س . ا . ع (١) » ؛ فما كاد يستقر به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت ... ؟ ما رأيك ... ؟ هل يملك أحد ... ؟ »

كان للرافعى فى كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى ، وكان لكل واحد فى نفسه حقيقة ، ولهم فى الحياة نظرات تغرب وتقرب ؛ وكلهم قد حرموا المرأة لونا من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم فى المرأة رأى ؛ مما تخيلها ، أو مما كابدوها ، أو مما شقى بها !

والرافعى رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب ويوشك أن يكون جدًا ؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقري إلى ماضى شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب فى المرأة والحب والزواج . وهؤلاء الأصدقاء - على ما قدمت من نُعوتهم فى أول هذا الفصل - تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف أسبابها ؛ وما يزالون فى باكر الشباب وفى يقظات الحلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعا من المراس : فى وهمه أو فى حياته ...

(١) دأ ، و د ع ، هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ، وكانا زميلي الرافعى فى محكمة طنطا ؛ أما د س ، فما أحسب القراء فى حاجة إلى أن يعرفوه !

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنونا ؛ وساقهم الرافعى بحسن احتياله إلى هدف يرمى إليه ... فما انقضى المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعى ليحييه كتابه عن أسئلة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزموا الصدق ، ويجانبوا الحياء ، ويُخلصوا في الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هي :

كيف ترى المرأة في وهمك ؟ وأين مكانها من حياتك ؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها ؟ لماذا لم تتزوج ؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم ؛ ففنها كانت مقالة الرافعى « س . أ . ع » وهي أولى مقالاته في الزواج ؛ ثم تابعت مقالاته في هذا الموضوع . فخطا بها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سدٌ منيع .

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام ، جاءت رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه في أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبعث يهيم أن يصدره في كتاب ... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعى إلى الكتابة في هذا الموضوع . وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جوابا فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ؛ ولم أقرأه منشورا منذ أرسله إلى طالبيه .

بدأ كثير من الشبان يهتمون بما كتب الرافعى ؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَب ، وتضاعفت رسائل القراء إليه ، وطال الجدل في موضوعه بين طوائف من الشباب في مجالسهم الخاصة ...

فلما كانت أيام بعد مقالة « س . أ . ع » جاء إلى مجلسنا في القهوة شاب من أصدقائنا المتأدين ، هو الأستاذ إسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع

بالآدب وشهوة في الجدل ، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشدوذ في الطبع ؛
وكان الرافعى يعرفه عرفانا ، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... فقال
عليه يسأله ضاحكا ...

وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ؟ وما يحملنى على هذا العنت ؟ أتريدنى
على أن أبيع حريتى من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال .
وتم للرافعى موضوعه ، فأملى علىّ فى اليوم التالى مقالة « استنوق الجمل » !
فى هذه المقالة يجد القراء سببا آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدم
« س . أ . ع » فى المقالة السابقة ؛ فهى الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعى بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعا ليستجم ، ولمّ من هنا
ومن هناك طائفة من منشور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان « كلمة وكلمة »
وهى عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة فى الفكر ولا فى
الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه .

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصار التى كان الرافعى ينشرها بعنوان
« كلمة وكلمة » ؛ فحسبى هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها :

فى هذه الكلمات التى نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب .
وهذه من فضلات المعانى التى اجتمعت له فى مقالات المرأة والزواج ولم يجد
لها موضعا مما كتب . . . وفى هذه الكلمات رسائل إلى « فلانة » من تلك
الرسائل التى قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعى . وفيها كلمات
عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التى كانت فى مصر
لذلك العهد ، وحكومة صدقى تحتضر ...

فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من « كمة وكلمة » .

* * *

كان بين الرافعى والإبراشى باشا ما قدمت الحديث عنه فى بعض الفصول السابقة ، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعى الشاعر بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفى ... وسارت الخصومة بين الرافعى والإبراشى إلى مدى ، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعى مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب فى جامعة ليون !

وضاقت نفس الرافعى بهذا اللون من ألوان الكيد ، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه ؛ وألزمته الضرورة أن يقوم بالإتفاق على ولده حتى يبلغ مأمله ، على قلة إيراده وضيق ذات يده ؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه وفى نفسه أن يأتى يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله ! ووجد الفرصة سانحة لذلك فى عيد الجلوس الملكى سنة ١٩٣٤ ، فأنشأ كمة بليغة فى تحيته بعنوان « آية الأدب فى آية الملك » وأرسل بها إلى الرسالة لتتشر فى العدد ٦٦ سنة ١٩٣٤ (١)

كانت حكومة الإبراشى يومئذ فى الاحتضار ؛ وقد تنبه الشعب وتهيأت نفسه لحادث منتظر يرد إلى الأمة سلطانها الذى فقدته منذ تولى الإبراشى باشا رئاسة الديوان الملكى ، وكانت الجرائد السياسية تتحدث فى كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة القصر وحقوق الأمة . وفى مثل هذه الحال لا يمكن

(١) كان عيد جلوس الملك فؤاد الأول - رحمه الله - فى ٩ أكتوبر ، وكان موعد

صدور هذا العدد يوم ٨ أكتوبر ١٩٣٤

أن تُقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين ، ما دام هناك رأى يازاء رأى ، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك . . .

. . . ولكن الرافعى لم يعتبر شيئاً من ذلك حين أنشأ « آية الأدب . . . » ولم يقدر ما يمكن أن تؤول إليه كلمته عند من يقرؤها من أهل السياسة ؛ إذ لم يكن له من العلم بالسياسة ما يؤهله لأن يفهم ذلك . . . !

والرسالة صحيفة أدبية تحرص على رضا قرائها جميعاً على اختلاف رأيهم فى السياسة ، فإن صاحبها ليتوقع ما يمكن أن يوجّه إليه من التهمة لو أذن بنشر هذا المقال فى صحيفته ؛ فما هو إلا أن سلمه إليه ساعى البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليلقى الرافعى ويحدثه من حديثه . . .

والتقيا . . . وفهم الرافعى ما عناه صاحبه ، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صبيحة عيد الجلوس ، وقرأه من قرأه . ثم كانت آخره العهد الإبراشى بعد ذلك بشهر واحد فكتب من كتب من خصوم الرافعى يعدّد فيما يعدّد من « جناية الإبراشى على الأدب ، أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة ويسخرهم للإشادة بحكم الفرد ؛ وكان الرافعى عنده من صنائعه ، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال ^(١) !

* * *

وأرسل الرافعى إلى الرسالة بديلاً من هذا المقال ، مقالاً آخر بعنوان « أرملة حكومة ، وكان يعنى به صديقنا الأديب المهندس محمد . أ . وهو شاب من « أدباء القراء » أبيقورى المذهب صريح الرأى : سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج ،

(١) انظر ص ١٥١ من هذا الكتاب .

وبينه وبين الأستاذ إسماعيل خ صاحب « استنوق الجمل » صلة من الود ، وشركة في الرأي ، وصحبة في البيت والندى والشارع ...

لقينا مجتمعين في القهوة اجتماعنا كل مساء ، فعاج يسلم ثم جلس ، وسأله الرافعي : « .. وأنت فلماذا لم تتزوج ؟ » .

قال المهندس : « لست والله من رأى صاحبي فيما حدثكم به أمس ، إني لأريد الزواج وأسعى إليه : ولكن من أين لي ... من أين لي المهر ، وهدايا العروس ، وأكلاف الفرح ؟ إن الزواج عندي ليشبه أن يكون معجزة مالية لا قبل لي بها ... ! ولو قد عرفت أن هذه المعجزة تنهيا لي بالبخل على نفسي والقصد في نفقاتي وباحتمال العسر والمشقة على نفسي وعلى من حولي - لما وجدت ما يشجعني على هذا الاحتمال إني لأعرف من بنات اليوم ما لا يعرف غيري ، أفتريدني على أن أحتمل العنت سنتين أو ثلاثا حتى يجتمع لي من المال ما يجتمع ، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لي منها شقاء النفس وعدو العمر ؟ » .

وقال الرافعي ... وقال الشاب ... وطوى الرافعي ورقاته وقد اجتمع له موضوع جديد . وتهيأت له الفكرة تامة ناضجة فأملى على مقالته « أرملة حكومة » وبعث به إلى الرسالة في البريد المستعجل ليذكر موضعه في عدد الأسبوع بديلا من « آية الأدب ... » .

وقلت للرافعي وقد فرغ من إملاء هذا المقال : « أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به ، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أملت على ، لقد صدق : فمن أين له ... من أين له هو ... ؟ إنه لحرى أن يوجه العتب والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه

التقاليد التي تفرض على الشاب الذي يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية ! .

فضحك الرافعي وقال : « أترأه كان يتحدث بلسانك ... ؟ لقد أخفيتُها عني يوم سألتُك ؛ وليس ثمة ما يمنعني أن أصحبك غداً إلى حميك لأطلب إليه أن يعفبك من هذه المعجزة المالية . »

ومضت أيام ، ثم دعاني لميلي على « قصة زواج » . وكانت هذه القصة هي جواب ما سألتُه تأخر إلى ميعاد . وكانت هي أول ما أنشأ الرافعي من القصص لقراء الرسالة .

قصص الرافعي

أراني وقد بلغت هذا الحد ، مسئولاً أن أتحدث عن قصص الرافعي ، وكيف كان يؤلفها ، وأول ما عالج منها ، وطريقته فيها .

لم يعالج الرافعي القصة - فيما أعلم - قبل قصة سعيد بن المسيب إلا مرتين : أما أولاهما ففي سنة ١٩٠٥ ، وكانت مجلة المقتطف قد سبقت بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية ، فأنشأ الرافعي قصته الأولى وكان عنوانها « الدرس الأول في علبة كبريت » ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان « السطر الأخير من القصة (١) » وسأتحدث عنها في موضعها .

أما القصة الثانية : فأنشأها في سنة ١٩٢٥ بعنوان « عاصفة القدر » ونشرتها المقتطف أيضاً (٢) . ثم كانت قصة سعيد بن المسيب في سنة ١٩٣٤ .

على أن ثمة فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأوليين ؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاءً ، فلم يعتمد فيهما على حادثة في التاريخ أو حديث في كتاب ؛ أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد في التاريخ فلم يكن له في إنشائها إلا بيان الأدب وفن القاص ، وكانت نواةً فهد لها واستنبتتها فثمرت وازدهرت . وفي الأدب القديم نويات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبه لها الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية ، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معينا لا ينضب كان حرياً بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا في العربية فنّاً جديداً من غير أن

(١) الرسالة : العدد ٧٨ سنة ١٩٣٤

(٢) المقتطف : ديسمبر سنة ١٩٢٥

يقطعوا الصلة بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي ؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد ، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكون دعوة المجددين ، لا إلى الاستعارة والاستجداء من أدب الغرب والجرى في غبار كتابه وشعرائه .

... أقول : إن الرافعى لم يكن يعرف عن فن القصة شيئا يحمله على معالجتها ويغريه على العناية بها ؛ وقد قدمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من الأدباء على معالجة القصة ولا يراه أهلا لأن يكون من أصحاب الامتياز في الأدب ؛ إذ لم تكن القصة عنده إلا ضربا من العبث ولونا من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي أن تكون هي كلَّ أدب الأديب وفن الكاتب . وقد كان يعيب على لأول عهدي بالكتابة أنني لا أكاد أكتب في غير القصة ، وأتني أجعل بعض همى في دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتاب فيها ، وكان يرى ذلك مني تخلفا وعجزا ونزولا بنفسى غير منزلتها بين أهل الأدب !

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب ؛ كما يشاهد رواية في السبيل أو يقرأ حادثة في جريدة . وأحسب أنه كان يعتقد - على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب - بأنه لا يحسن أن ينشئ قصة ولا ينبغي له . وأحسبه أيضا حين أنشأ قصة سعيد ابن المسيب لم يكن يقصد إلى أن تكون قصة ، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه ...

والحقيقة أن الرافعى كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة ، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوى

من الحديث وينشر ، ويكتب ويورى ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجذ ؛ ويطوى النادرة إلى آخر الحديث ، ويقول فى آخر المقال ما كان ينبغى أن يكون فى أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع ؛ وإن له فى هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهانا على ذلك ؛ فقلما تخلو إحداها من دعاية طريفة أو نكتة مبتكرة .

... وهذه هى كل أدوات القاص الموفق ؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين . ولكن الرافعى كان يجهل طبيعة نفسه ، وكان له فى كتاب القصة ما قدمت من رأى ، فكان تخلفه من هذين ! وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك ، لم يكن له مذهب فى خاص يحتديه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى مارسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها ؛ فإننا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصة له وحده ، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص ؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلف ، أو ابتكار وتجديد .

وطريقة الرافعى فى كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القصاص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته فى أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر فى الحادثة أول ما يفكر ، ولكن فى الحكمة والمعزى والحديث والمذهب الأدبى ثم تأتى الحادثة من بعد ؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من

القصص ، جعل همه الأول أن ينسك في الحكمة التي يريد أن يلقيها على السنة التاريخ - على طريقته في إنشاء المقالات - فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة إلى ما يريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة ؛ فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد ؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه فقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه ، ويثنته ، وخلاته ، ومجالاته ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل ؛ وإنه ليلهم أحياناً ويوفى في ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور ، أو إلا أسماء الرجال ...

على أن البديع في ذلك هو قدرة الرافعي - يرحمه الله - على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة من قصص الرافعي في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار ، فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - ورأيه في القصة رأيه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقاً بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتي له ذلك من طريقته التي أشرت إليها في الحديث عنه عندما يهم بالكتابة ؛ فقد أسلفت القول أنه كان يحرص على أن يعيش وقتاً ما قبل الكتابة في جو عربي ، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله ؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة ، ولكل شيء سبب ، وأحسبه لما هم أن يكتب عن

« المعجزة المالية » في تقاليد الزوج وعن فلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة في ذلك ، تناول - كعادته - كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر ، فاتفق له في مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبي وداعة ؛ فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدأ له أن يؤدى موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعانى ليملى علىّ هذه القصة قال لى ، فى لهجة الظافر : « ... لقد وقعت على نادرة مذهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا أعرف أبلغ منه فى موضوعه ... ، فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب فى القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا . وأكثر قصص الرافعى من بعد على هذا المذهب . على أن لكل قصة من هذه القصص - أو لاكثرها - أصلا يستند إليه من رواية فى التاريخ أو خبر مهملى فى زاوية لا يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعى الفنية وإحساسه وبقظته ؛ على أن أهم ما أعانه على ذلك هو عندى صلته الروحية بهذا الماضى ، وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه ؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضى قلبا ينبض كأن له فيه ذكرى حية من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره ؛ فما يقرؤه تاريخا كان وانطوت أيامه ، ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحى بين أهله ، فما أهون عليه بعد أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء !

وقد كنت على أن أردّ كل قصة من قصص الرافعى إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول ، ليكون النموذج واضحا لمن يريد أن يحتذى الرافعى ليشتم ما بدأ على مذهبه فى تجديد الأدب العربى . ولكنى وجدت ذلك أشبه بأن يكون فصلا من الأدب ، ليس موضعه فى هذا الكتاب

عود على بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد . أ . إلى الرافعي من أسباب عزوبته ، أن الزواج عنده حظ مخبوء ، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة في سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخره ذلك أن يجلوا عليه فتاة دميمة لا يجد في نفسه طاقة على معاشتها ما بقى من حياته ، أو فتاة فاسدة التريية لا يدخل بها على زوجة ولكن على معركة . . .

وقد ظل هذا القول عالقا بذهن الرافعي يلتمس الوسيلة إلى تفنيده والرد عليه ، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن ، كاتب ابن طولون ، فأنشأ مقالة « قبح جميل » وهي القصة الثانية مما أنشأ الرافعي لقراء الرسالة ، وهي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته في الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سوداء ولو ذخير من حسناء لا تلدا » يسلك هذه المقالة في باب « الأدب الديني » الذي أشرت إليه في بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هي قصة « رؤيا في السماء » وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب ، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى ، وتدعو إليه الدعوة الإنسانية التي تعتبر الزواج بابا من الجهاد لسعادة البشرية كلها . . .

في هذه المقالة ، لا أعرف سببا خاصا من مثل ما قدمت دعاه إلى إنشائها ، ولكنها جملة الرأي وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ، فهي من الموضوع كالهامش والتعليق ، أو الحكم بعد المداولة ، أو هي الصفوة الصريحة بعد ما يذهب الزبد وتنطفئ الرغبة . . .

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب المرحوم فليكس فارس ؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين الرافعي ثم اتصل بينهما الود .

* * *

لما أنشأ الرافعي « قصة زواج » تحدث بها الأدباء في مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجبين مستزيدين ؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه ... فاستزاد واستعاد ، والتزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد .

وجلست إليه ذات مساء نتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء : « اقرأ يا شيخ سعيد ... رأيت مثل هذا ؟ أيقن لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب في موضوعه ؟ أيمالك كاتب أن يرد على رأياً من الرأي ؟ » .

ومضى في طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فعرفت أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تتنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شيء مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضعف الإنساني في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في النابغين من أهل الآداب والفنون ؛ ذلك الإيمان الذي نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ، ونسميه في النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة !

وكان يلذني في أحيان كثيرة أن أشهد الرافعي في مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإعجاب بالنفس ، وأجد في ذلك متاعاً لنفسي وغذاء لروحي ؛ لأن الرافعي بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعاً ، فلا تشهده في مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته

(١٧ - حياة الرافعي)

كذلك مرة فقد شهدت لونا طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعاني ، وكأنما هو يُعدى سامعه من حالته فيحس في نفسه قوة فوق قوته وكان شخصاً جديداً حلّ فيه ...

... وسرني أن أجد الرافعي كذلك في تلك الليلة ، فأصغيت إليه ومضى في حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى داري ، وسوس لي الشيطان أن أعابته بشيء ... فكتبتُ إليه رسالة يامضاء (آنسة س) أردت عليه رأيه في قصة سعيد ابن المسيب ، وأعيب ما صنع الرجل بابنته ، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه ، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الرافعي ... وبلغته الرسالة فقرأها ، فنبهته إلى ما كان فيه من أمسه ؛ ووقع في نفسه أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موحي إليه بما كتب ، فتحمس للرد ، وأنشأ « ذيل القصة وفلسفة المهر » وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخرية لاذعة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر .

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلى الرافعي يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على ما بين الرسالة والدكتور طه من صلات الود ... وكان له ما طلب ، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء ، ولكنها لم تخلُ من إشارات مهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة ؛ وكذلك نشرت من بعد في وحي القلم . .

ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهي السابعة من مقالاته في الزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه « الزبال الفيلسوف » الذي تحدّث عنه في هامش هذه المقالة

وهذه المقالة فيما ترمى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » ، فهي دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد في شئون الزواج ، وفيها إلى ذلك شيء من الحديث عن « فلسفة الرضا » التي أسلفت القول عنها في « حديث قطين » .

أما هذا الزبال الذي نوه به الرافعي في أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة في « بلدية طانطا » وكان عمله قريبا من دار الرافعي في الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله في الكدس والتنظيف اتخذ له مستراحا على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الرافعي ، فيقضي هناك أكثر أوقات فراغه ، نائما أو محتبيا ينظر إلى الرأئحين والخابدين من أهل الثراء والنعمة ، أو شاديا يصدق بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فياكل مما فيه ، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبوته يتأمل ...

كان هذا الزبال صديق الرافعي ! بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الرافعي يسميه « أربسطو الجديد » . وأول هذه الصلة بينهما أن الرافعي كان يلذه أحيانا أن يجلس على كرسي في الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث اتخذ الزبال « محله المختار » ، فكان يوافقه في مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يبتسم ، ثم يجلس ، وكان يحادثه أحيانا في بعض شئونه يلتبس بعض أنواع المعرفة ... ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لتحيته إذا حضر ؛ وصار بعض عادات الرافعي من بعد أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشتري له كلبا لقيه ، دخائن بنصف قرش ، مبالغته في إكرامه ...

وكان الرجل أقما ، ولكن الرافعي كان يفهم عنه من حركات شفتيه ، وأحيانا

يستدعى بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً في ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الرافعى يحرص على هذه الأوراق بعد نهاية الحديث ، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالمه !

وما كان يدور بين الرافعى وصديقه هذا من الحديث ، عرف الرافعى طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها ، وطائفة من الأمثال ؛ ونبهه ذلك من بعد إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها ومواردها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الرافعى من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعى » معانى وأفكاراً جديدة فى فلسفة الرضالم تلهمه بها طبيعته .

ولهذا الزبال صنع الرافعى أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التى نشرها لقراء الرسالة فى العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة مارى قدسى معلبة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحنًا يناسبها .

وقد كان فى نفس الرافعى أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالاً كبيراً ، حتى إنه همّ بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضب ؛ وقد هيا لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهيا له من الخواطر فى موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أعجله عن تمامها ، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلّف من الأوراق .

لم تكن قصة « بنت الباشا » هى آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ فى هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقى عنده طائفة من المعانى والخواطر فى

موضوع الزواج والمرأة ، جاءت مبعثرة في طائفة من المقالات من بعد : ومنها مقالة « احذرى » وهى قصيدة من النثر الشعرى مترجمة عن الملك ، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان فى مقالة « لحوم البحر » .

وكان الرافعى فى هذه الفترة قد اصطنع مودة بينه وبين طائفة من الشبان اللاهين ، كانت تجمعهم قهوة « لمنوس » فى طنطا للعبث واللهو والمجانة ، فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم فى شئون المرأة والزواج ؛ وقد قدمت القول فى بعض ماسبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعى كان سريع الالتفات إلى معانى المرأة ، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ، حتى لئراه وهو يستمع إلى محدثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا حديثا ؛ ثم يزئن له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما يسمع مالم يسمع ؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق : يجد حديث الغزل والحب حريقا فى دمه وثورة فى أعصابه لا حديثا فى أذنيه ... فيستزيد مما يسمع وهو صاغٍ ملذوذ ، فيحمل محدثه بذلك على الإطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال ... !

وعلى شدة إحساس الرافعى بمعانى « الجنس » إلى هذا الحد ، كان بإيمانه وخلقه وتدينه واعتصامه بالوحدة - قليل الخبرة ضئيل المعارف فى هذا الباب ؛ فكان له علم جديد فى كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل ؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة ، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعى الذى يعرفه القراء .

من أحاديث هؤلاء الفتيان ، كان إليه وحى المعانى فى قصيدة « احذرى » ؛

كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعانى وكثير من الموضوعات ؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

وكان الرافعى يختلف فى طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان ، كان بينه وبينهم صداقة ومودة ؛ فكان يزورهم بين أهلهم ، فيكرمونه ويتسعون له ويحفظون به ؛ والرافعى يحدث لبق ظريف المسامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه ... وفى بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير مانعرف فى بيوتنا ، فكان الرافعى يجد هناك جوا يوحى إليه ويمده بعلم جديد .

وأنا لم أصحب الرافعى فى طنطا إلى « زيارة مصرية » إلا فيما ندر ، على أنى كثيرا ما كنت أصحبه فى تلك الزيارات !

وأعترف بأن الرافعى لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيرا ممن كان يزورهم ويزورهن كن يعرفن له ذلك فيهيئن له أسبابه . وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجال فى مصر ! وقد صحبته مرة إلى زيارة أسرة الأنسة « ق » وهى فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألح علىّ يومئذ إلحاحا شديدا أن أصحبه ، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعا من متاع أهل الفن .

وكنت فى ذلك اليوم صانعا أغنية عامية فى معنى من معانى الشباب تعبّر عن حال من حالى فى تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافعى لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها

وجعلها في جيبه ...

. . وصحبت الرافعي إلى حيث يريد ، فاستقبلتنا الفتاة وأقمها وشباب من قرابتها ، ثم لم يكده يستقر بنا المجلس ، وأهل الدار حافون بنا يبالغون في إكرامنا ، حتى أخرج الرافعي الورقة من جيبه فدفعتها إلى الفتاة ... وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردتها إلى الرافعي وهي تقول : « جميلة ! شعر عاشق ! » .

قال الرافعي وهو يشير إلى مبتسما : « إنها أغنيته ! » .
قالت : « إيه ... ! عاشق هو ! » .

قال الرافعي : « نعم ! ... ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! » .
ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتني الدهشة بما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعي إلى نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بي من الحياء أضعاف ما بالفتاة ... وكانت دعابة غير مألوفة ولا منتظرة ، أوقعتني في كثير من الحيرة والارتباك ...

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »
وردد الشاب صدى صوتها يقول : « ... رقيقة ! » .
وثبت في مكاني لا أتحرك ؛ ولا أرى أمامي غير تلك الابتسامة الخبيثة على شفتي الرافعي ...

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمته إلي ؛ ثم إلى الرافعي ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبي ... وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت في مجلسي لا أكاد أفهم ما يدور حولي من الحديث !
وجعلت أسائل نفسي وأكاد أنشق غيظاً : « ترى ماذا حمل الرافعي

على هذا القول ... ؟ ، .

فلما انقضى المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعي مغضباً أسأله
جلاء السر ، فضحك ملء فيه وهو يقول : « قصة طريفة ... لقد عقدنا العقدة
فانظر في طريقة الحل ... سيكون فصلاً أدبياً ممتعاً يا شيخ سعيد ، تكون
أنت مؤلفه وعلى أن أرويهِ ؛ لقد سَمَّنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى
بعض الحقيقة ... ،

وغازني حديث الرافعي أكثر مما غاظني الذي كان منه ، فتمردت عليه ،
ولكن الرافعي عاد يضحك ويقول : « أتراك - إن أبيت - تستطيع أن تمنع نفسك
الفكر فيها وأن تمنعها ؟ لقد بدأت القصة فما بدُّ من أن تكون لها خاتمة ! »
وضقتُ بهذه الدعابة وثارَت نفسي فأخشنتُ القول ؛ فزاد به الضحك وهو
يقول : « وهذه الثورة أيضاً هي فصل من فصول هذه الرواية ... ! »
وأعداني مرح الرافعي وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُ
على غيظ ضاحك . ولقيتُ الفتاة بعدها مرتين فتناسيت ما كان ولم أسأل نفسي
عن شيء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جاءني الرافعي يوماً يقول : « إن بينك
وبين صديقنا الأديب ج شيئاً ! » قلت : « ماذا ؟ »

قال : « أحسبه يغار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فإنه لا يعلم أن بينكما عاطفة ... ! »
وقال لي حميَّ ولم تكن ابنته في داري بعد : « أتراك كنت مع الرافعي أمس
في زيارة فلانة ؟ ، فتوجست من سؤاله شيئاً

وكادت تكون قصة كما أراد الرافعي ولكنني حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

* * *

... من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الرافعي موضوعاته ويبدع معانيه في

المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التي كان يصطنعها أو يسعى إليها ويهيئ أسبابها ، كانت تنجلي له الفكرة ويومض الخاطر وتتشقق المعاني ؛ ومن هذا الجوّ زحرت نفسه بالعواطف النابضة التي ألهمته من بعد أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص : الأجنبية ، وسموّ الحب ، والله أكبر ، واليأمانتان ، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يملئ عليه القصة والموضوع ، إنما كان يمدّه بالمعاني والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه ؛ فما تزال هذه الخواطر والأفكار مضمرة في الواعية تزيد وتتوالد وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها ؛ فإذا همّ بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعاني انثيالاً حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد .

* * *

ولما قص الرافعي قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله في الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل في الرسالة وما عاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمت به ، وأحس في نفسه شعوراً جديداً ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه في الفراش بما يحمل في صدره من هم وما يضني جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعت قوتان ... وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار في العمل ... وطال الحديث بينه وبين نفسه فأرقه ليلة ... وتركته وروحت إلى داري وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالي دعاني ليلي على « قلت . لنفسي ... وقالت لي ... » .

من أراد أن يعرف الرافعي العرفان الحق ، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة .

إن غاية ما ينشده الباحث عند ما يهتم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمير نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولكن هاهنا إنساناً يتحدث عن نفسه وتحدث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ .

وأشهد أنني رأيته قبل أن يملئ على الحديث وأن في وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاماً ؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف : هذه هي هذه ، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة .

وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه ؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بسنتين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة المقتطف .

... وكما تثوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكاته إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافعي بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضا ، وكأنما نفض همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تثقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية . . .

ثم كان هلال رمضان ، فأنشأ مقالة « شهر للثورة » وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة .

كان خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء ، حين يعتدل الجو ، وتسكن الحركة ، وتخف المعدة : إذ كان عمله في المحكمة يملأ بياض نهاره ، فلما كان رمضان سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ الميلادية) سألتني : « كيف نصنع يا شيخ سعيد في هذا الشهر ، وأى أوقاته نجعلها للكتابة ؟ » قلت : « فانظر فيما تراه خيرا لك ، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء » قال : « لا سبيل إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء ، ولكني سأحاول أن أكتب في العصر ، فإنه حينئذ امتلأت المعدة ثقل الرأس ، فلعل فراغها في النهار أن يشحذ الذهن ويصقل الفكر » .

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه ، ومضى يوم ويوم ويوم ، وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئا للرسالة ، واستحيا أن يعتذر ، فلم طائفة من « فئات المكتب » وجعلها الجزء الثاني من « كلمة وكلمة » وبعث بها . في هذه الكلمات المنشورة بالعدد ٧٦ كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم ، وفيها حديث عن الزكاة والصوم ، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة ، وفيها رسائل إلى « فلانة » ! ثم كانت مقالة الأسبوع التالي هي قصة « سمو الحب » .

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة : رمضان ؛ وكتاب الأغاني لأبي الفرج ؛ وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب .

أما رمضان فسمي بروحه وأمهه بما في القصة من المعاني الدينية التي حكاها على لسان مفتي مكة وإمامها « عطاء بن أبي رباح » ، والعاشق الزاهد « عبد الرحمن القس بن عبد الله بن أبي عمار » .

وأما كتاب الأغاني فأعطاه صلب القصة وأساس البناء في سطور يرويها من

خبر «سلامة المغنية» جارية يزيد بن عبد الملك . وقد وقع الرافعي على هذا الخبر اتفاقا في إحدى مطالعته في كتاب الأغاني .

وأما أحاديث الشبان فحفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضربه مثلا لسمو الحب يصح رأى الناس فيه ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة .

في هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمرءة والحب في قلب رجل كالرافعي يعرفه الناس فيما يكتب شيخا من شيوخ الدين فيه تخرج وخشية ، ويعرفه من يعرفه من أصحابه مجنون كَلَيْاتٍ وقيسَ لُبْنَيَاتِ !

... ولكي ينتفع الرافعي بوقته في رمضان كان يتخفف من طعام الفطور ، ثم يجلس مجلسه بعد العشاء للإملاء ؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السحور ، فيعوض فيه بعض ما فاتته من فطوره ثم ينام !

على أنه لم يجد راحته في هذا النظام أيضا ؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد في نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يصلح للنشر ليستريح أسبوعا من العمل ، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة ١٩٠٥ كان قد نشر بها قصته الأولى : « الدرس الأول في علبة الكبريت » ، فعاد إلى قراءتها ، فلما فرغ من القراءة التفت إلى قائلها : « هذه قصة ينقصها السطر الأخير ، قلت : « وماذا يكون هذا السطر ؟ » . قال « اسمع : هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحُكِمَ بها وحُكِمَ عليه ... » . قلت : « نعم ! » قال : « فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين ؟ » قلت : « أراه الآن رجلا يفلح الأرض أو يعمل بالفأس في حجارة أبي زعبل ! »

قال : « هذه الأخيرة أمثل به ؛ لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت فقاده إلى الحبس ! فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشنقة ... ؟ اكتب ... اكتب ... »

وأملى على مقالة « السطر الأخير من القصة »

لم يغير الرافعى هذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة : وزاد عليها شيئا من المحاورة بين الغلام وقاضيه . وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجابا بها ، لكن كأنما ردت هذه المقالة إلى شيء من ماضيه تروح فيه من روح الصبا والشباب : فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليبقى فيها روح الصبا والشباب !

وفي الأسبوع التالى - وهو الأسبوع الأخير من رمضان - أملى على قصة « الله أكبر »

وهي بسبيل مما سمع من أحاديث الشبان عن الحب ، ورقية ثانية من رقى الحب الداعر : كانت الرقية الأولى هى كلمة « برهان ربه » فى قصة سمو الحب ، وكانت الرقية هنا هى كلمة « الله أكبر »

وأول الأمر فى هذه المقالة أتى كنت جالسا إلى الرافعى فى القهوة نتحدث فى شأن ما ، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد ، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام ، وقال الرافعى : « ... وأنا لو ارتد إلى السمع لن يطربنى شيء من النشيد ما كان يطربنى فى صدر أيامى نشيد الناس فى المساجد صبيحة يوم العيد : الله أكبر الله أكبر ! يعجب بها المسجد ويضج الناس ... ليت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام ؟ الله أكبر ! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد ! »

ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفي كل صلاة ، فما فرغ من الحديث حتى طرقتنا زائر من رواد القهوة فحيا وجلس ... وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون ...

وتهيأ موضوع القصة في فكر الرافعي ، فلما دعاني ليليتها على لم يجد في نفسه إقبالا على العمل ، فوقف في الإملاء عند منتصف المقالة ونسأ البقية إلى غد ، ثم كان تمامها .

وفي صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه ، وقد كان في الرافعي حرص شديد على ذكرى أبويه : فهما معه في كل حديث يتحدث به عن نفسه ، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تهيأت له الفرصة ؛ وما إثاره الإقامة في طنطا على ضيقها به وجهالها مقدارها إلا ليكون قريبا من قبر أبيه وأمه . وقد نقلته وزارة العدل مرة نقلة قريبة ، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل في وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل ، وكانت كل حجته عند الوزارة في إثارة طنطا : أن فيها قبر أبيه وأمه ! ... وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه ، فلعله الآن سعيد بقربهما في جوار الله ولعلمهما به ...

... ولما عاد من زيارة المقبرة أملى على مقالة « وحي القبور ! »

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه ، فأنشأ قصة « بنته الصغيرة » ، وهي الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص : تحدث في « قصة زواج » عن سعيد بن المسيب ، وتحدث في « سمو الحب » عن عطاء بن أبي رباح ، وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصري .

في هذه القصة يتناول الرافعي موضوع الزواج على النحو الذي تناوله به في قصة « رؤيا في السماء » على أنه باب إلى السمو بالإنسانية ، وفيها - إلى ما فيها من الدعوة إلى الزواج وبر البنات - شيء من الأدب الديني يضمها إلى سابقاتها .

ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من « كلمة وكلمة » - العدد ٨٤ سنة ١٩٣٥ - وفيها كلمات عن السياسة ، وحديث عن المرأة ، ونظرات في أخلاق بعض الناس أوحى إليه بمعانيها قضية كانت له في المحكمة شذله أمرها وقتا ما ، وقصة ذلك أن الرافعي كان اشترى قطعة أرض للبناء في شمال المدينة ونقد البائع ثمنها وجعل لها حدودا مرسومة ؛ ثم أعجزه أن يبنيا فظلت خلاء . وكانت هي كل ما حصل للرافعي من الاشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن ؛ ثم طمع البائع أخيرا فيما باع ؛ فتحيّف القطعة من أطرافها ، واصطنع بينه وبين الرافعي مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس ، وشكاه الرافعي وتأهب لمناضلته ، واستعان عليه خصمه بواحد من ذوى صهره يعمل مفتشا في وزارة العدل ، فانتدب للتمتيش عن أعمال الرافعي الرسمية في محكمة طنطا مهددا متوعدا ، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه !

طالت القضية بين الرافعي وخصمه ، وتعددت جلسات المحكمة ؛ وطالت كذلك دورة التفتيش وكثر تحدى المفتش للرافعي حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله ، فخص فيها عن بعض مئات من القضايا التي قدر الرافعي رسومها ، لعله يعثر له فيها على غلطة تحمله على الخضوع له ؛ وغلطة في تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غرامة مالية ... ومن أين للرافعي ؟

وكنت متعودا أن أغدو على الرافعي في المحكمة في أوقات الفراغ ؛ فلما علمت

أن مفتشا عنده أقصرت ؛ فلما علم منى سبب امتناعى عن زيارته قال : « لا عليك وخلّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئا من عادتك ! »

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده ؛ وكان يدينى إليه فى مجلسه ، ويجعل كرسىً إلى جانب كرسيه خلف المكتب ، ويتأبى على المفتش أن يذهب إليه حيث يكون ، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه ؛ وفى أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا فى مجلسه ليسأله عن أمر من الأمر ، فيدعه الرافعى واقفا ويتحدث إليه وهو جالس حديثا كله سخرية وتهكم ثم لا ينظر إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل ، ثم يغضى عنه ويدعه واقفا ليعود إلى ما كان فيه من الحديث معى أو المطالعة فى صحيفة أو كتاب !

وعلى أن المفتش لم يظفر بشيء مما أراد بالرافعى ، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد ؛ على رغم ما كان يبدو على الرافعى من إهمال شأنه وعدم الاكتراث به !

... ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعى ، وانتهت كذلك دورة التفتيش على غير طائل ؛ ولكن هذه وتلك قد شغلنا الرافعى شطرا كبيرا من سنة ١٩٣٥ ، وأوحت إليه بكلمات وكلمات مما نشر لقراء الرسالة فى هذه الفترة .

... ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة ، فكانت القصة التالية «زوجة إمام» : الإمام أبو محمد سليمان الأعمش ؛ وزوجه ؛ وتلميذه أبو معاوية الضير .

قصة أراد بها أن يستوفى موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب

الزوجة . وبها تم ما أملاه عليّ في موضوع الزواج ؛ وعدته ثلاث عشرة مقالة ،
أولها مقالة « س . أ . ع » ، وآخرها الجزء الثاني من « قصة إمام » .

وددت لو أنّ الرافعي حين أعاد نشر هذه المقالات في وحي القلم ، نشرها
على الترتيب الذي كانت به والذي رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة ، فإن
ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعةً متساوقةً فصولها فصلاً
إلى فصل ؛ ولكنه جمعها في وحي القلم على ترتيب رآه ، فجعل منها القصة ،
والمقالة ، والحديث الديني ؛ وجعل كل نوع من هذه الثلاثة في باب ؛ على أنّ
ذلك لا يمنع الباحث الذي يتيها للرأى في هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب
الذي قدّمت أسبابه وأسبابها معه .

* * *

كان الرافعي قلماً يجلس إلى مكتبه في المحكمة إلا أن يكون له عمل ؛ فإذا
لم يجد له عملاً في المحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من
مواعيد الوظيفة ؛ وكان يزورني أحياناً في المدرسة ليقضى معي وقتاً من الوقت
أو ليصحبني لبعض حاجته ؛ وكان يغبطني على عملي ويزعم أنه لو كان في مثل
هذا الجوّ المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان ، ويعجب لي
كيف لا أجد في صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ
في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة ...

وزارني يوماً ، وكان من تلاميذي في المدرسة طفل في العاشرة أبوه من ذوى
الحول والسلطان ، فكان يصحبه شرطى كل يوم إلى المدرسة ويعود به ،
وكان قتي لدنا ، فيه طراوة وأنوثة ، وله دلال و صلف ؛ فاتفق أن حضر إلى
لشأن ما والرافعي معي ، ووقف الشرطى ينتظره على مقربة من مجلسنا ،
(١٨ - حياة الرافعي)

ونظر الرافعى إليه وقد وقف يكلمنى وهو يتثنى ويتخلع لا يكاد يتقار
فى موضعه ...

ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطى وراءه يحمل حقيبته ، والتفت الرافعى
إلى يسألنى : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا الشمعون ؟ » .

وكلمة « شمعون » عند الرافعى هى علم مشترك لكل قى جميل . وتاريخ هذا
الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافعى بالمرحوم الكاظمى ؛ إذ كان
الكاظمى له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه
« شمعون » ، حدثنى الرافعى عنه قال : « وكان قى جميلا لولا ثياب الغلمان
لحسبته أنى ... ! » ، وراه الرافعى كثيراً فى صحبة الكاظمى ، فوعى اسمه وصورته ،
ثم كان اسمه عند الرافعى من بعد علما على كل غلام متأنث ...

... قلت للرافعى : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطى الذى يتبعه هو
من جنود أبيه ، وإن من خبره ... »

قال الرافعى . « وهذا موضوع جديد ! »
فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

* * *

كان الرافعى يؤمن بالغيب إيمانا عميقا لا ينفذ إليه الشك ، وكان له عن
الشياطين والملائكة ، وعن الوحي والإلهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة
والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...

... وكان له - إلى إيمانه وتدثنه - نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم ،
فكان أكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا
مرت أمامه امرأة فأبغها عينيه ، أو سمع حديثا عن غائب فتعقبه بالحديث

عن بعض شأنه أو ناله أحد بمساءة فردها إليه ، استعاذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان ! وإذا همت نفسه بشيء تنكره المروءة ، أو دعت داعية من هواه إلى ما يتخرج منه المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على مالا تحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه ، وذم الشيطان وتجنى عليه الذنب . وفي مقالته « دعاية إبليس » حديث يحقق هذا المعنى .

... فإني لمعه ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آنسة في دمشق ، ومعها صورتها مهداة إليه ، تبثه لواجبها وأشجانها ، وتشكو إليه أنها... مفتقرة إلى رجل ! ونظر الرافعي إلى صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيد لها في وهمه حسنا إلى حسن ، ويرسم له خطة... ثم وضع الصورة في غلافها وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان .. أما إنه ... » وقال شاب في المجلس : « وهل الشيطان إلا هوى النفس ؟ » وقال الرافعي : « وهل تنكر . ؟ » وطال الجدل ، ومضى الحديث في فنون ... من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشيطان »

وكان لولده سامى زوج لم يدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ماسماها وعقد عليها ؛ فأقامت زمنا في مصحة حلوان ؛ ثم ارتدت إلى طنطا لتقيم بين أسرتها ما بقي ، وزوجها حتى بها قائم على شئونها ، ثم جاء أجلها ؛ فدعى الرافعي ليراها ، فجلس إلى جانبها لحظات وهي تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصير ، مقالة « عروس تزف إلى قبرها ! »

كنت ليلتشد على موعد معه في القهوة ، فظلمت أنتظره ساعات ، ولم يخلف الرافعي مواعده معى مرة من قبل ؛ فلما طال بي الانتظار مضيت لشأنى . وفى الصباح جاءنى نعى الفتاة فعرفت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت فى نفر من الأصحاب لتعزيته فى دار صهره ؛ والتمسناه فما وجدناه ، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الجنازة لبعض شأنه ؛ ولقيته بعدها ، فعرفت أنه ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقالة قبل أن تذهب معانيه من نفسه !

يرحمه الله ! لم يكن يمر به حادث يألم له ، أو يقع له حظ يُسرُّ به ، إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكأنما كل ما فى الحياة من مسرات وآلام مستخر لفنه ؛ فهى للناس مسرات وآلام ، وهى له أقدار مقدورة لبيدع بها ما يبدع فى تصوير الحياة على طبيعتها وفى شتى ألوانها ، ليزيد بها فى البيان العربى ثروة تبقى على العصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه فى أحد غير الرافعي !

وإذ ذكرت السبب الذى دعا الرافعي إلى إنشاء مقالة « عروس تُزف إلى قبرها ! » أرانى مسوقا إلى ذكر حديث بينى وبين الرافعي يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الرافعي وطبعه ، وهو بسبب مما سميت فيه من قبل « فلسفة الرضا »

لم يكن لأحد رأى فى خطبة هذه العروس إلى سامى ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ما تخرج وصار له مرتب يكفيه^(١) ؛ ذهب يعرض أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سببه ، ولكنه مع اعتداده

(١) كان سامى معيداً فى كلية الزراعة قبل أن يذهب فى بعثة الجامعة إلى أمريكا .

برأيه في هذه المعارضة تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ؛ فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبذل له النصيح ثم يدع له الخيرة في أمره .

وخطب سامي فتاته ، وعقد عقده ، وكان حموه يعمل في مال فأكلته الأزيمة ، وقدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأنفق ما أنفق في طبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان ! وتداغت فنون الحديث يوما بيني وبين الرافعي حتى جاء ذكر سامي وزوجته ، وكانت مازال في مصحة حلوان ؛ فقال لي الرافعي : « انظر ! إنها حكمة الله فيما يجري به القدر ! ضلّت البشرية إن هي حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم في أقدار الناس ... ليس للإنسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط أسبابا بأسباب ، ويجري بالحياة وحدة متماسكة ، فما يجري هنا هو بسبب مما يجري هناك ، فلا انفصال لشيء منها عن شيء ... ترى منذ كان ينفق على هذه المسكينة ليطب لها من دائها لو لم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامي هو زوجها ؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمت له من الرأي والنصيحة إلا لأنه في تدبير القدر مرجو لهذا الواجب من بعد ؟ لقد كنت مستيقنا من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإني اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمته البالغة ، لأشعر بكثير من الرضا إلى ما كان ! »

* * *

ثم كتب مقالة « بين خروفين »

وهي تمت بسبب إلى مقالة « حديث قطين » وفيها حديث عن ولده عبد الرحمن

وهو أصغر بنيه؛ وكان الرافعى يرجوه ليكون من أهل الأدب؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليسكون كما يرجو أبوه، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمل؛ وكان الإيحاء، هو وسيلة الرافعى إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل، ويبدو مثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافعى عنه فى أول ذلك المقال.

وكان الرافعى معنيا بمستقبل أولاده عناية كبيرة، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى، وكثيرا ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة، وقد وجدت بين أوراقه حديثا له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجا ليهيئ نفسه للامتحان لو أنه اتبعه لكان اليوم غير من هو!

ومن أجل أولاده أنشأ كثيرا من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها فى المقطم؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها!

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد؛ فما نزعته إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخرو فان؛ ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً فى الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسى.

وكان للرافعى رأى فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا، تفسره مقالة «تاريخ يتكلم» وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف فى ذلك الوقت عن أحداث تجرى فى تركيا؛ رأى فيها مشابهة من حوادث سبقتها فى مصر قبل ذلك بألف سنة فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى.

وفى أحيان كثيرة كانت تشور نفس الرافعى لما يسمع من أخبار تركيا فيهم أن يكتب؛

ثم يمنعه ذلك خشيته أن يكون فيما يكتبه شيء يقفه موقف المسئول عن غلطة
تعكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث
فيها عن الحاكم بأمر الله ؛ وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية لذلك العهد ؛ وكانت
هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان الغموض فى كثير
من معانى هذا المقال ؛ فمن شاء فليعد إليه ليقرأه وقد عرف داعيه ، فلعله لا يجد
غموضاً فيه من بعد .

ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه ، كان مقاله « كفر الذبابة » الذى
أنشأه على أسلوب كلية ودمنة بعد ذلك بأشهر .

* * *

ثم هلّ هلال المحرم ، وتهيأت الرسالة لإصدار « العدد الممتاز » فى ذكرى
الهجرة ، فكتبت إلى الرافعى فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن
يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلاً . واستبق الرافعى
الميعاد فأعد قصة « اليمامتان » وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز
بأكثر من أسبوع . وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعى المعتاد ،
وأنه ما يزال يعد موضوعاً للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ،
وكتبت إليه تستنجزه المقال ... وكان الرافعى متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً
فى أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوتت عليه الفرصة فسبقت إلى
نشر القصة التى أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته فى حيرته ، ولم يجد فى
نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق
بالنشر فى هذه المناسبة ، فوقع على مقالة « حقيقة المسلم » ؛ وكان كتبها قبل ذلك
بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشف المسلم بالشام ^(١) ونشرها بالأهرام

(١) انظر صفحة ٢٠٨ من هذا الكتاب .

في ذكرى المولد النبوي لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لنشر في العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ .

يتحدث الرافعي في قصة اليمامتين عن الفتح الإسلامي ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها ما في نفسه من معاني الحب ؛ ثم جعل في خاتمتها « نشيد اليمامة » : اليمامة التي تقول الرواية العربية إنها تحزمت في جوار عمرو بن العاص فمنعته أن يقوض فسطاطه !

كان لهذه القصة عند الرافعي وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتن بها القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ؛ ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه . ولم أعتثر على هذه الرسالة بين ما خلف الرافعي من رسائل أصدقائه إليه . ومن اعتداد الرافعي بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ؛ جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه « وحي القلم » .

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعاني من وجع الضرس وتعب الأعصاب ؛ فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من « كلمة وكلمة » .

* * *

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال : جلست يوماً إليه نتحدث من أحاديثنا فقال : « ... إن صديقنا الأستاذ « م »

لم يكتب إلينا من زمان ... ليت شعري ما منعه عنا ، إن بي قلقا عليه وفي نفسي أن أراه أو أعرف من خبره !

وفي صبيحة اليوم التالى طالعنا الأهرام بخبر غامض : « ... أن شايبا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان في يده ! ... »

وقرأ الرافعى الخبر فارتد وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! » قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا م » ، لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر . غفر الله له ؟ ، فجزعت وطارت نفسي ، وقلت له وأكاد أغص بريقى : « م ؟ إنك لتتوهم ، وإنك مما تفكر فى شأنه ليخيل إليك . إن لصديقنا دينا ، وإن فيه تحرجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يُقدم على مثل هذه الجريمة »

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوّل ويسترجع ويستعيد بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان . ثم مَدَّ يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى « م » يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يُحسن أن يصفها إلا من أحسنَّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ . م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تخرج وخشية ؛ وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذود عن حرمانه ، وهو شاب عذب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛

وعلى أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابعة ، فإنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معاني الألم ، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريبا في هذا العالم وبين هذا الناس ؛ فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالمها غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذي أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكان بينه وبين الرافعي ودّ وله في نفسه مكان ، فكان له سره ونجواه منذ كان قتي يافعا لم يبلغ العشرين . وكان الرافعي يعتد بصداقته ويقرّ له ويُعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

فلما بلغ الرافعي نبأ شروعه في الانتحار جزع وتطير وضاعت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقي من دنياه ، فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالات «الانتحار» . ولم يكن الرافعي يعلم من أحوال صاحبنا مادفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب لينبئ عليها الحديث والقصة ؛ فما جاء جواب الأستاذ «م» ، إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث في هذا الجزء على لسان «أبي محمد البصري» وهو يعني به الأستاذ «م» فهو هو ، وكلامه كلامه في جملة ومعناه ، لم يغير منه الرافعي إلا قليلا من قليل ، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الست ؛ أما ما عداها مما سبق أو لحق ؛ فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفسه .

ومقالات الرافعي في «الانتحار» هي باب من الأدب لم يُنسج على منواله في العربية فيها فن القصص ؛ وفيها روح المؤمن الذي لم تفتنه دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة .

* * *

وكان بين الرافعى والأديب حسن مظهر محرر اللطائف المصوّرة مودة .
فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعى يرجوه أن يكتب فصلا لقراء
اللطائف « عن سحر المرأة » فكتب فصلا بديعا يصف فيه نفسه وصاحبه
« فلانة » فى أول لقاء بينهما .

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد
وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف
« أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب .

* * *

وكان من زملاء الرافعى فى محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له
ولوع بالأدب . وعلى أنه زوج وأب ، فإنه كان بأناقته ولباقة مرعى أنظار
كثير من الفتيات ، وكان له فى الغرام جَوْلان ...
ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته
وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية فى إحدى الصحف الصغيرة التى
تصدر فى طنطا ...

وقرأ الرافعى بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « علما جديدا » لم يدخل إليه
من باب ولم يقرأه فى كتاب ؛ فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات إليه ليفيد
علما من علمه ومن تجاربه ...

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعى ويقص عليه ، والرافعى صاغ إليه ملذوذ
بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعى أن يحضر
له طائفة من مذكراته ورسائل صواحيبه ، لعله يجد فيها موضوعا يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات وتلك الرسائل استملى الرافعى مقالات « الطائشة »
و « دموع من رسائل الطائشة » و « فلسفة الطائشة »

هى قصة لا افتعال فيها وليس فيها شىء من صنع الخيال ؛ وما حكى الرافعى
من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هى
فلسفتها كما فهمها الرافعى من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها .

ولقد نال الرافعى من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات ، وقرأها
أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعى ليحتج بها فيما
يحتج لمذهبه فى الحب والمرأة وتجديد الأخلاق ، والحقيقة فيها هى ما قدمت ؛
وقد زاد الرافعى إيماننا بمذهبه بعد هذا الذى سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته
ومن رسائله !

ولم يكتب الرافعى قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب
قصتها على طريقة من فنه ؛ فأثر الرافعى أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه
ويتحدث عن رأيه فى طائفة من فتيات العصر ؛ فترك صلب القصة ليكون
حديثه تعليقاً وحاشية .

وقد قرأت القصة مع الرافعى كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافعى يقف عند
كثير من عباراتها موقفاً بين الإعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما فى
نفسه كما هو فى نفسه ، فكان فيها وحى عاطفته ونبض قلبه وإحساس روحه ،
فجاء بأدق ما فى الفن وأبلغ ما فى التعبير غير قاصد إلى شىء من ذلك ، وما كان
يبلغ شيئاً من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان فى هذه
المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل الصدق عند الرافعى
فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبه .

ولما كتب المقالة الثالثة « دموع من رسائل الطائشة » ، خلا إلى نفسه أسبوعاً
ليستجيم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : « كلمة وكلمة » ، وفيها حديث
عن العقاد (١) .

وفي هذا الأسبوع كان الرافعي يجمع خواطره حول ما سمع من قصة
الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان « فلسفة الطائشة » .
ثم أمل على مقالة « كفر الذبابة » ، يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت
إليه في شئون الإسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب
كيلة ودمنة .

وكانت مقالة « كفر الذبابة » ، هى آخر ما أمل على من المقالات ؛ وذلك فى
صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه فى سيدى بشر ، وتهيأت للسفر
إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة
فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأسبوعاً
أزوره فى طنطا ، وأسبوعاً يزورنى فى القاهرة . على أن الرسائل فيما بين
ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته ببضعة أشهر . ثم
تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، وكان
آخر مجلس لنا فى قهوة « پول نور » بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكى ، وزكى
مبارك ، وكامل حبيب ، والسيد زيادة : ثم افترقنا بعد منتصف الليل وفى
نفسى منه أشياء ... !

وفى صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكى مبارك
حول « وحي القلم » .

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقاني ؛ وهو يشكوني إلى صحابتي وأشكوه ؛ حتى جاءني نعيه ... غفر الله لي !

لكنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عني وقع المصاب من بعد ؛ أو لتحملني - غير محمول من أحد غير واجبي - على كفارة الذنب الذي أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما في الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ لعلي أقوم له بعد موته بالحق الذي عجزت عن وفائه في حياته . يرحمه الله !

... لم يُملِ عليّ الرافعي شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلى أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره في المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر النبوغ في الأدب » .

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقاله « كلمات عن حافظ » ، لمناسبة ذكره ؛ ثم أصابته قرحة في كفه منعه من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ في الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ، ثم جعلها مقالة الأسبوع التالي . وهي مقالة من مقالات الرافعي الفريدة ، تهتم الباحث الذي يريد أن يدرس الرافعي صاحب « تاريخ آداب العرب » .

ثم توالى مقالات الرافعي يملئها على نفسه ويكتبها بخطه ، على أني بما كنت ألقاه وبما كان بيني وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر ، لم يفتني أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص

سأما لهذا البحث - على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التي أنشأها وحده من بعد ، غير معتبر ترتيبها في النشر ، إذ لا عماد لي فيما أكتب عنها إلا الذاكرة .

من هذه المقالات : الجمال البائس ، القلب المسكين ، المشكلة ، المجنون ، أحاديث الباشا .

أما مقالات «الجمال البائس» فقد أملاها عليه حبٌ جديد ويلي جديدة ولكنه حب كما وصف الرافعي :

« ... وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعا في الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني . ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ، غير أنه هو منها ! »

« . . . ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحيبته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شيء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

«والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيء نهائي ؛ فلا هجر ولا وصل ، ينساك بعد ساعة ولكنك أبدا باقية بكل جمالك في نفسه ، والصغار التي تبكي الناس وتتلذع في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة في وهمهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب ، تبكيه هو أيضا وتعتلج في قلبه ، ولكنها تظل عنده صغار

ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبُّره على جبار الحب !^(١)

حُبّ ، هو سموُّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السماوات يتنوّر في عوالمها الخفية نورَ الإنسانية في حقائقها العالية .

بدأ ذلك الحب في صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الرافعي يصطاف في سيدى بشر ؛ ثم كان يقصد إلى الإسكندرية أحيانا ليلقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ عامر ، رحمه الله ؛ وكان بينهما صلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة منذ كان الأستاذ حافظ محاميا في طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته في الإسكندرية ؛ مشغولا بكتاب يهم أن يصدره في شأن من شئون الإسلام وكان الرافعي يعاونه في إنشائه^(٢) ...

وكانا يتواعدان على اللقاء في ملهى من ملاهى الإسكندرية على شاطئ البحر ، حيث تنهيا لهما الفرصة ؛ من هدوء المكان في النهار وقلة إقبال الناس عليه ، لما هما فيه من عمل .

في هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة « بيا » فيعج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى ، ليفرغ للرافعي وصاحبه في النهار يُداولان الرأى في شئون الأدب والدين والفلسفة . وشتان ليله ونهاره !

وكثر تردد الرافعي وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا مافيه ،

(١) الجمال البائس ج ١ ص ٢٩١ - ٣٢٣ - وحى القلم طبعة أولى .

(٢) رسالة الحج ، أخرجها المرحوم حافظ عامر بك في سنة ١٩٣٦ وكتب على غلافها « بقلم دبلوماسى كبير ، يعنى نفسه ! وكان وقتئذ قنصلا لمصر في بغداد أو في إيران ، لا أذكر ، وكان قبل ذلك قنصلا في جدة ، ومن هناك بدأت تراوده فكرة إخراج « رسالة الحج » وسنعود إلى حديثها بعد .

وألّفهما فيمن ألف فتاة من راقصات الفرقة ؛ هي الإيطالية الحسناء « »
فما كان بينها وبين الرافعى إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ...

وجلس الرافعى إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف
لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهدته المرحوم حافظ عامر من بدايته إلى
منتهاه ، ثم ترك الرافعى لهواه وتركته صاحبته ...

وذاق الرافعى مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته
الآخيرة راقصةً من بنات الهوى تعمل فى مسرح هزلى من مسارح الصيف
المنتقلة بين شواطئ الإسكندرية ... !
تلك هى صاحبة « الجمال البائس »

* * *

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعى إلى طنطا ، وعادت الفرقة الراقصة إلى
القاهرة ، وشت ما بين الحبيبين !

ولقيتُ الرافعى بعدها ، فحدثنى حديثه والكلمات ترتعش على شفثيه وفى
عينيه بريق عجيب ؛ ثم رقّ صوته وتهدج وهو يقول : « مسكينة ! ليتنى أستطيع
أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر ... ليس موضعها
هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات « الجمال البائس » فدعانى
أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه ليراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له
تذكرتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى « دار الهلال » وأبطأ عليه الرسول
فلم ينتظر ؛ فتهض وانهضتُ معه واتخذ طريقه إلى « عماد الدين » ...

(١٩ - حياة الرافعى)

ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألني : « أين اسمها ؟
وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هي ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها في إطار كبير إلى جانب الباب يضم
صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ، مامنهن إلا لها جمال وفتنة ،
ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ؛ إلى صورتها !

ثم تحول عن الباب مسرعا عجلان وهو يجمع بكلام لا يبين .
وقال لي وقد أسرعته إليه حتى حاذيته : « أيليق أن ندخل هذا المكان ؟
أتراه من المروءة ؟ وددت لو رأيته ؛ ولكن ... »

وانتهينا إلى قهوة « بول نور » فجلس وجلست ؛ ومضى يتحدث عن السحر
والشعر وفتنة الجمال ؛ فما هي إلا لحظة ثم مرت بنا منحدره من شارع فؤاد إلى
شارع سليمان باشا ؛ فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت في مزدحم
الناس ، ثم عاد إلى نجواه وشكواه ...

وجلس مرة يتحدث إلى الأديب حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات
« الجمال البائس » ؛ فأهدى إليه صورتها ؛ فظلت هذه الصورة معه إلى أخريات
أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة ، فمن
أجلها كتب مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !

وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمت ... ؟ أتراها قرأت ... ؟ »

وما أحسبه لقي صاحباً من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال
البائس ... جلست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعي

ونذكر من خبره فقص عليّ؛ قال :

« كان الرافعي يجلس على هذا الكرسي ؛ من هذه الغرفة ؛ وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بيني وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ الرافعي يصفها لي وصفاً لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول على تصويرها كما هي في نفسه ؛ فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة ، وتمثلت صورتها لعيني كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها ؛ قدم إليّ صورتها في ورقة لأرى بعيني مصداق ما سمعت ...

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التي صورها لي حديث الرافعي وإلى الصورة التي في الورقة ، فكأنما استيقظت من حلم جميل !
يرحمه الله ، لقد كان شاعرا ... ! » .

كذلك كان سلطانها في نفسه وأثرها في خياله !

وكانت نشأة هذه الفتاة في طنطا لأول عهدها بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت « خيمتها » في طنطا بضع سنين ، ولم يكن الرافعي يعلم ذلك من خبرها يوم التقيا في الإسكندرية في صيف سنة ١٩٣٥ فما عرف ذلك إلا من حين رأيتهما في فرقة « بيا » ونظرت صورتها ؛ فلما عرف من ماضيها في طنطا ما عرف ، أغمض عينيه وراح في فكر عميق ... أتراه قد لقيها من قبل في طنطا ولم يكن يذكر ، أم كان ينظم شعراً لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟

والعجيب أن الرافعي وهو في غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبه

« فلانة » ولم يفتر حبه لها ، بل أحسبه كان أكثر ذكراً لها وحيناً إليها مما كان ، وكأنما كان قلبه في غفوة فأيقظه الحب الجديد وردّه إلى ما كان من ماضيه .

لقد كان قلب الرافعي عجيباً في قلوب العشاق ، ليت لي من يستطيع أن يكشف عن أعماقه !

وبسبيل وحي هذا الحب الجديد وما أذكره من ماضيه ، كانت قصة « القلب المسكين » التي نشرها في الرسالة نجوماً من بعد ؛ ثم ضمها إلى أصول الجزء الثالث من وحي القلم الذي طبع بعد وفاته .

أما موضوع « المشكلة » (١) فقد استملاه الرافعي من رسائل قرائه إليه . وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل . ح . وهي كانت أول صلته بالرافعي ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنين : هو وهي . فصارت من بعد مشكلتهما ومشكلة الرافعي معهما إذ لم يجد لها حلاً . ولقد شغلته هذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم اتصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابه بصاحبها وصاحبه . وقد كتب الرافعي ما كتب في هذا الموضوع ، ثم مضى وخلف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدها ...

كان ذلك في الخريف من سنة ١٩٣٥ حين جمعتني ظروف العمل بصديقي الأستاذ كامل ؛ فلم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعني كل السر ...

... فقد آمنه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها في بيت أبيه . وكان أكبر ثلاثة إخوة ، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معاني الرجولة

(١) وحي القلم ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٩١ طبعة أولى .

وما يزال في باكر الشباب . ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير ، فسَمَّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دوراً فى هذه القصة ، فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب . . . ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبغى أن يكون ، وكان يبغضها بغضَ الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية ، وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية ؛ فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ؛ وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهين نفسه ليكون من أساتذة « العلوم » فإنه كان ولوعاً بالأدب مشغولاً بمطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحضر لوثة من وثبات الشباب فى قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى الملاحمة ...

وأحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته ، فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها ، وما كان لها ...

وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعم بالحب ويحققا المثل الذى ينشده ؛ وكان قد مضى على الباب المخلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة . . . فما يذكرها ولا يفكر فيها ...

وكان نائماً يحلم حين ترامى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ؛ فما وجد أبوه وسيلة لإنقاذه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاءً بوعده مضى في ذمة التاريخ ...! غضب الفتى واحتج وثار كبرياؤه ورجولته ، وأبى أن ينزل على رأى أبيه في شأن هو من خاصة شئونه ، ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبته على إرادته ، وساقته في عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها في السيارة من ليلته مرغماً إلى بيته في القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هي بنت خاله ، وهي زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ وإن فتاةً أخرى تنتظره ؛ وإن عليه لها واجبا تحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنح زوجه نظرةً أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار في القاهرة ... كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبه التي فتنه واشتولت عليه ؛ فما نظر إلى وجهه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حرياً أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التي كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سجنانه الذي يحرمه أن يستمتع بالحرية التي وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأثرت في نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ...!

وعاشت في بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف : لا يقاسمها الفراش ، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا في الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفي المساء حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل ؛ وما كان

بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التي توج في صدره ، والحسرة التي تتسايل دموعا من عينيها ، وإلا هذه الخادم التي تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها ... ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبه والاختلاف إلى ملتقاهما .

على أن ذلك لم يزد إلا ولوعا بحبيته وتبرما بزوجه ... ومضت الأيام تباعد من ناحية لتقرب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذي وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمال ... فمضى يدبر أمراً للخلاص من هذه المشكلة ؛ ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل ... !

كان كل طريق يفكر فيه للخلاص مخفوا بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجته ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ، وليس في استطاعته أن يجمع على نفسه همين ؛ وكان تفكيره في ذلك همّاً ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه ! وكتب إلى الرافعي يستفتيه في مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعي ؛ وفي مساء اليوم التالي كنت في مجلس الرافعي بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفضّ غلافها بعد ... وقرأ الرافعي الرسالة ثم دفعها إلىّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدي قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ؛ وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأني »

وأطرق الرافعي هنيهة يفكر وفمه إلى الكركرة (الشيشة) كما هي عادته حين يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إلىّ قائلاً : « تعرف ؟ إن صاحبك لمفتون

بصاحبه إلى درجة الحمق والسفه ، وما تنحلُّ هذه المشكلة إلى أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ويكون له سلطان على هواه ، وهيات أن يكون له ! فما هنا إلا وسيلة واحدة ترده إلى رشاده فتتحل المشكلة

قلت : « فما هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبه دخول الشيطان فتفرق بينهما ... أتراك تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا ، »

قال : « فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر ، وإذا بدا لها ... انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادما ؛ وإن مرور الأيام لخلق أن يؤلف بينهما من بعد ، »

قلت : « فهمت ، ولكن ماذا تراني أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ما تريد ؟ وهبني عرفت أن أقول له فمن أين لي أن أستطيع لقاءها فأحدث إليها ؟ » قال : « اسمع : أتراها تقرأ ، »

قلت : « إني لأعرف مما حدثني عنها أنها قارئة أدبية ، وأنها من قراء الرسالة ، وقد كان فيما أهدى صاحبها إليها كتاب أوراق الورد ، وأحسبها تنتظر ما تكتبه في هذه المشكلة ؛ فقد حدثها صاحبها أنه كتب إليك ... »

قال : « حسن ! فساأجرب أن أكون شيطانا بينهما ، بل ملكا يحاول أن يرذ الزوج الأبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية ... ! »

* * *

وكتب الرافعي المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها أن ينتقص صاحب المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند

صاحبه ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وأن فيها كما يعيبها ويثلبها ويضعها بإزاء صاحبها موضعاً لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه في الرأي ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد في تصويرهما الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في محكمة الرأي العام ، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يرى من القراء .

ولقيتُ صاحب المشكلة من الغد ، فسألني : « هل رأيت الرافعي ؟ »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتى إليه ! »

قلت : « بلغته ! »

قال : « وماذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيي في الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بيني وبين الرافعي من حديث وما دبر من خطة ...
ونشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبي غاضباً يقول :
« كيف صنع الرافعي هذا ؟ لقد نحلني من القول ما لم أقل . أتراني قلت عنها كما يزعم : لقد خلطتني بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت ... !
لقد ساءها ما نحلني الرافعي من الكلام ، وقد تركتها الليلة غاضبة لا سبيل إلى رضاها ! »

... وتحقق للرافعي بعض ما أراد ، واثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم في هذه المشكلة ، وجاءه فيما جاء من الرسائل ، رسالة من صاحبة المشكلة نفسها ...
وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقياً حسناً ، ومضى يتحدث عنها حديثاً ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ،

ولكنه إichاء ، إichاء إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس حبا وإن زعمت لنفسها هذا الرأي ؛ ولكنه شيء يشبه أن يكون صورة عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به ... ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكلة بالإichاء والإغراء والحيلة ...

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة . وفرغ الرافعي من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت سنوات وفي الأتون ثلاثة قلوب تحترق ... وعلى مقربة من النار صبي يحبو ينادى أباه ، وأبوه في غفلة الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلها على يدي هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ؟ أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة في أتون الشهوات ! ...

ومعذرة إلى صديقي كامل ... !

أما حديث « المجنون » فأعرف من سببه ما ذكر الرافعي في أول مقاله (١) ؛ والمجنون في هذه المقالات هو شخص حقيقي كما وصف واصفه ؛ رأيت لأول مرة في مجلس الرافعي ذات مساء في قهوة « لمنوس » ، فرأيت شابا أمرد يلبس جلبابا رخيصا وعلى رأسه عمامة ، وقد جلس بين يدي الرافعي مجلس من لا يحتشم ؛ فأنكرت موضعه ؛ وأشرت إلى الرافعي أسأله عنه ، فقال : « سله أنت من يكون ؟ »

(١) وحى القلم ج ٢ - ٣٥١ - ٤١١ طبعة أولى .

فالتفت الفتى مغضبا يسأل : « أو ليس يعرفنى ؟ أو ينكر موضع نابغة القرن العشرين ... ؟ »

... ثم كان مجلس طويل وصفه الرافعى فيما وصف من مجالس المجنون . وهو قى كان طالبا فى مدرسة المعلمين الأولية بطنطا ، ثم أصابه ما أصابه فانقطع عن المدرسة ولكنه لم يقطع صلته بالأدب . وصديقنا الأستاذ حسنين مخلوف يعرف هذا النابغة ، فإنه كان بين تلاميذه فى مدرسة المعلمين .

أما المجنون الآخر الذى وصف الرافعى من حاله ما وصف بعد ، فهو طالب فى إحدى كليات الأزهر . ولم ألقه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافعى عنه ما كتب : كنت يوما فى إدارة الرسالة ، حين دخل علينا قى أزهرى فى جلباب حائل اللون ، فخيا وقاله : « ألسنت تعرفنى ؟ »

فخبرنى هذا السؤال ولم أدرِ بجم أجيبه ، فقال : « إن بيننا نسبا وقرابة ، وإن بينى وبين الرافعى ... إتنى أنا الذى يكتب عنه الرافعى مقالات المجنون ! » قال ذلك وفى وجهه أمارات الجد ، وبدأ لى كأنه يفاخرنى بما يقول ! قلت : « ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ! » قال : « نعم ، فهل عرفت الآن من يكون الآخر ... ؟ »

وقد كانت صلة الرافعى بهذين الفتيين بابا من العبث والمجانة ؛ على أنهما قد استطاعا أن يحملاه على العناية بأمرهما والتفكير فى كتابة شىء عن المجانين ... وقد احتفل لهذه المقالات احتفالا كبيرا . فبعث لى فى القاهرة لأشترى له نسخة من كتاب « عقلاء المجانين » ، ثم بعثنى بكتاب خاص إلى الدكتور محمد فؤاد مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة - وكان زميله فى المدرسة الابتدائية - يرجوه أن يأذن لى فى زيارة مستشفى المجانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم ،

لعله يجد فيها مادة تعينه على تمام موضوعه .
ولم يَفُتْهُ مع ذلك أن يلتبس علم مالم يعلم عند كثير من الأطباء ؛ فكان له
حديث طويل عن المجانين مع الدكتور محبوب ثابت ، والدكتور محمد الرافعي ،
والدكتور عبد الحميد المحلاوي طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه .
وقد أفاد من حديثهم بعضَ النوادر الطريفة التي حكها في مقالاته ونسبها
إلى نابغة القرن العشرين وزميله ؛ على أن أكثر ما في هذه المقالات هو صحيح في
جملته وفي نسبته إلا بضع نوادر !

• • •

أما « أحاديث الباشا » فأكثرها خيال وأقلها حقيقة ، وقد اختار الرافعي أن
يجعل بعض حديثه في الشئون الاجتماعية على هذا النظم حتى لا يُمِلَّ قراءه .
وقد تخيل أخاه الأستاذ محمود الرافعي المحامي بدمهور ، كاتم سر الباشا الذي
سَمَّاه ونسب إليه ، لأنه كان يستوحيه كثيرا من الحقائق فيما يكتب ، وقد كان
الأستاذ محمود الرافعي في صدر أيامه زعيما من زعماء الشباب في طنطا ، ، يقودهم
ويرى لهم الرأي في مسائل الوطنية وتبديرات السياسة في إبان الثورة المصرية
سنة ١٩١٩ وكان يومئذ طالبا في مدرسة الحقوق .

أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقية كان منها وكان مزاروى الرافعي ،
ولكنها شخصية من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال .
على أن أكثر مزاروى الرافعي من الروايات على لسان (م) باشا هو حقائق ،
ولكنها لا تنتسب جميعا إلى شخص واحد .

نقد اجتماعية

لم يكن بين الرافعى وقراءه صلةً ما قبل أن يبدأ عمله فى الرسالة ، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد ، إلا طائفة تربطه بهم صلوات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه ؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة ، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة ، حتى بلغ ما يصل إليه منها فى اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد . وأستطيع أن أقول غير مبالغ : إن الرافعى قد عرف من هذه الرسائل عالماً لم يكن له به عهد ، وانتقل بها نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ فى حياته وتفكيره وأدبه . وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطلحوا على وجوب دراسة البيئة التى يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التى أثرت فيه ، فإن مما لا شك فيه أن الحقبة التى كان الرافعى يكتب فيها للرسالة - كانت تطوراً جديداً فى حياته الاجتماعية نقله إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدد الحياة . وقد عاش الرافعى حياته بعيداً عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته ، فكان منهم كالذى يتكلم فى المذيع : يسمعون عنه ولا يسمع منهم ، وليس له ما يستمد منه الوحي والإلهام إلا ما تجيش به نفسه ويختلج فى وجدانه ، غير متأثر فى عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المخلقة عليه .

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس ، وكان له من علته سبب يبعد بينه وبينهم ؛ فمن ذلك كان يسره ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم ، ويحصل من علم الحياة وشئون

الناس ما لم يكن يعلم ...

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرفته طائفة لم تكن تعرفه ، وتذوق أدبه من لم يكن يسيغه ؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها جديدة على قرائها ؛ وجدوا فيها شيئاً يعبر عن شيء في نفوسهم ؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه ، فانفتح له الباب إلى دنيا واسعة ، عرف فيها ما لم يكن يعرف ، ورأى ما لم يكن يرى ، واطلع على خفيات من شئون الناس كان له منها علم جديد ... فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران ؛ لا يسمع إلا صوته ؛ ولا يرى إلا نفسه ؛ ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس ، فانتقل من جو إلى جو ، ومن حياة إلى حياة ...

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الرافعي وأدبه ، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله .

والآن وقد وصلت إلى جلاء هذا المعنى كما شاهدته وعانيت أثره ، فإني أتحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الرافعي من قرائه ، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الرافعي بها ، وأي المعاني ألهمته وقدحت زناد فكره ؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بيني وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلفها لتمام لي بها دراسة التاريخ ، فحسبي ما أقرأني الرافعي منها في أيام صحبته وما اطلعت عليه بنفسى من بعد ...

نستطيع أن نرد الرسائل التي كانت ترد على الرافعي إلى أنواع ثلاثة :

١ - رسائل الإعجاب والثناء .

٢ - رسائل النقد والملاحظة .

٣ - رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى .

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شيء كثير ، وحسب الإشارة إليهما ؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الرافعى من رسائل الإعجاب كان عن مقالاته فى الزواج ؛ وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات ، وقلبا كانت تخلو رسالة من هؤلاء وأولئك ، من شكوى صاحبها أو صاحبته وتفصيل حاله . وأطرف هذه الرسائل هى رسالة من آنسة أدبية كتبت إلى الرافعى تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها - وقد سمّته فى رسالتها - يعيب عليه أن يعضل ابنته ويرد الخطاب عن بابه حرصا على التقاليد ...

... ثم رسالة من (مأذون شرعى) يحصى فيها للرافعى بعض مامر عليه من أسباب الطلاق فى الأسر المصرية ، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية ، وفى هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يحكيها على أسلوب فنى يكسبها معنى القصة .

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثانى ، رسالة جاءت بعقب نشره مقالة « الأجنبية » عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلافها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من عدد (الرسالة) الذى نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر :

سيدى الأستاذ :

إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد ، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك
هى تلك الكلمة التى ختمت بها هذا الكلام المردود إليك « مصرى »

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل ، كان استمداد الرافعى ووحيه ودنياه الجديدة ، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل :

١ - هذه رسالة قى فى العشرين ، يكتب إلى الرافعى من الإسكندرية يقول :

« أستاذى الكبير :

« ليس لى الآن إلا ربى وأنت يا أستاذى ، وإن من حقك على أن أسألك حقى عليك ، وقد هدانى الله إليك .

« ... قرأت وتدارست ما كتبته عن الانتحار ، فماذا تقول فى امرئ علم عنم الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلت . فهو يتحين الفرصة ليقتلها . إني أبكى يا أستاذى إذ أعيد هذا القول ؛ أبكى دما . لى أخوة وأنا أكبرهم ، ولا أخاف إلا أن لى أختا . وأبى - غفر الله له - ليس له ما يكون للرجل من معانى الرجولة ليضمن ألا يكون فى بيته شيء مما قد كان ...

« الشك يساورنى منذ أكثر من عامين ؛ واليوم فار التنور ، إذ سمعت أنها حبلى ، ووقع فى يدي نما ملأنى يقينا بتصديق إثمها ؛ ولقد هممت أن أفعل ما لا يفعل ؛ وأنا أخشى ألا يتداركنى حكمك .

« ... ماذا تقول يا أستاذى ؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من نفسى ، أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضيع من يدي . أنا كالمجنون لا يُبْقِنِي شبه عاقل إلا أنت ، فماذا تقول يا أستاذى وبماذا تحكم ؟ يكتبها الله لك فتداركنى برأيك ...

« ولك منى شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات تربيتك ، وأن يكون فى اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم ...

« ومعذرة لى من لَدُنْكَ إن أغفلت الآن اسمى ، فى ١٤ - ٥ - ١٩٣٥

٢ - وهذه معلومة في إحدى مدارس الحكومة ، حامت حولها ريبة فوقفتها وزارة المعارف حتى تحقق أمرها ، فكتبت إلى الرافعي تسأله أن يعينها بجاهه حتى تعود إلى عملها الذي تعول منه أبويها ؛ فيشفق عليها الرافعي ويسعى سعيه لبرائها... وعادت إلى عملها ، وحفظت الجليل للرافعي ، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة تبثه خواطرها وتصف له من أحوالها وما تعمل ؛ وتكثر رسائلها إلى الرافعي حتى يزول الحجاب بينهما ، فتصرح له بما لا تصرح فتاة ، ويثول أمرها في النهاية أن تكتب إلى الرافعي بأنها عاشقة... وأن معشوقها الصغير - التلميذ في إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة - لا يعلم ما تكنُّ له ! هي تلقاه ، وتماشيه ، وتخلو به خلوات « بريئة » ! ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها ، وتأكلها النار في صمت... ! وتقول في رسالتها إلى الرافعي :

« ... فدبرني يا سيدي في أمري ؛ قلبي يحس أنه يحبني ، لقد قالتها لي عيناه ، ولكنه لم يتحدث إليّ ، ولست أجد في نفسي القدرة على التصريح له ... »

وتتوالى رسائلها إلى الرافعي تصف له ما تلاقي من الوجد بحبيبها الذي تكبره بسنوات ، ويقرأ الرافعي رسائلها فيبتسم ، ويتناول قلبه الأزرق فيثور فيها علامات يشير بها إلى مواضع وفقر تلهمه معاني جديدة وفكرا جديدا ؛ ويشتط الحب بالمعلبة العاشقة حتى تنظم الشعر ؛ فتبعث إلى الرافعي بقصائدها ليرى رأيها فيها...

بين يدي الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعي . بعثت بها إليه قبل منعاه بقليل . ليت شعري كيف انتهت قصة هذا الحب ؟

٣ - وهذه رسالة من (حلب) يدهش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى

صادق الرافعي مطربشا حليق اللحية أنيق الثياب ، فيكتب إليه :

(٢٠ - حياة الرافعي)

«... لقد رأيت رسمك يا مولاي فتأملته... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ؛ فهل لك يا مولاي في مجارة المدينة ومماشاة الحضارة رأى دعاك إلى هذا المظهر الأنيق...؟»

٤ - وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها في هوى مغنية مشهورة، يحسن بها الظن إحسانا يمثلها لعينه مَلَكًا أثى ! لا يترك مجلسا من مجالس غنائها، ولا يفكر في خلوته إلا فيها... ثم يأتيه النبأ أنها قد سُمِّيت على رجل من ذوى اليسار والنعمة، وأنها موشكة أن تصير له زوجة، فيطير به هذا النبأ ويؤمله أيما إيلام؛ فيكتب إلى الرافعى يقول:

«... إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق؛ متقلب القلب، دنس الذيل؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته. وأنا أحبها وأشفق عليها وأتمنى لها السعادة...»

«هل يجب على أن أقف وقفة المحذر بإقناعها بالعدول عن هذا الزواج الذى لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة، أو ألزم الصمت وأدع الأمور تجري في مجاريها وأقطع علائقي معها فأرد لها صورها ورسائلها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها فى ركن من أركان قلبي؟»

٥ - وذلك طالب فى الجامعة، له دين ومُخلق ومروءة؛ بلغ مبلغ الرجال. وفاردم الشباب فى عروقه؛ فتسلطت عليه غرائزه؛ تغالبه شهواته فلا يكاد يغلبها؛ ولا يجد له سلطاناً على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أياماً فى غرفته الموحشة؛ ومع ذلك لا تزال «المرأة» تتخايل له بزيتها فى خلوته وفى جماعته؛ فليس له فكر إلا فى المرأة، وإنه ليخشى الله؛ ومابه قدرة على الزواج، ولقد

جرب الصوم فما أجدى عليه ، وقد أوشك أن يفقد نفسه بين شهوات
تجاذبه ودين يأبى عليه .. فماذا يفعل ؟

٦ — وهذه فتاة متعلمة ، تعيش بين أبيها وزوج أبيها في هم لا يطاق ، كل
سلوتها في حياتها أن تقرأ ، وهى لا تحسن عملاً ولا تجد لذة في عمل غير
القراءة ، ولكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه ، إنهما ينكران عليها كل شيء
مما تراه هى من زينتها بين الفتيات ، فعلها حذقة ، وآراؤها فلسفة فارغة ،
ومطالباتها عبث وهو وسوء خلق ، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة !
وتمضى السنون وهى فى هذا العذاب من دار أبيها ؛ فلا هى تستطيع أن تحمل
أباها وزوجه على رأيها فى الحياة ولا هى تستطيع أن تنزل إليهما ، والمنقذ
الذى تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد ،
ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرضة فى وجل ، لأنها تسيء الظن بكل
الرجال ، فماذا تفعل ؟

٧ — وهذا فتى مثالى يحسن الظن بالأيام ولكن الأيام تخلفه مواعده :
أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج ، ولكن أهلها زوجوها من
غيره ، والتمس الوظيفة التى يؤمل أن يصل إليها بعد تخرجه ، فنالها ولكنه
وجد لها غلا فى عنقه وكرامة على فمه ، وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس
فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء ، وكلما غرس زهرة هبت عليها أعاصير
الحياة فاقتلعتها وألقته فى مواطئ النعال وبرم بالحياة وضائق به الدنيا وما يزال
فى باكر الشباب ... فماذا يصنع ؟

٨ — وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين ، يخاف الله
ويخشى عذابه : أحب فتاة من جирته حبا « عُذرياً » وأحبته ، وبرح بهما الحب

حتى ما يطيقان أن يمضي يوم دون أن يلتقيا ، ولقيته ذات مساء في خلوة بعيدين عن أعين الرقباء ، وما أكثر ما التقيا في خلوة ، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما ... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له ... ولما فأت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكي ! وكان في نيته أن يتزوجها حين ينتهي من دراسته بعد سنتين أو ثلاث ، وكان صادقا في نيته ، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه ، ولكنها لم تطق الانتظار حتى تمضي السنوات الثلاث ، ولم تطق أن تراه بعد ، وجاءه النبا بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة ... وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعا سبب موتها ... ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتها في نومه وفي يقظته ، ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه ما يزال يذكرها كأنها كانت بالأمس ؛ وكتب إلى الرافعي يقول في رسالته :

« ... إني أنا الذي قتلتها ؛ إن دمها على رأسي ؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد غيري وهذا أشد ما يؤلمني ، ولقد احتملت بصبر وثبات كل ما نالني في هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب ؛ ولكنني اليوم أحس بأن صبري قد انتهى ولم يبق لي قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت ... فماذا أفعل ... ؟ » .
ألوان وصور ، ملائكة وشياطين ، نفوس تتعذب ، قلوب تحترق ، أنات وابتسامات - دنيا لم يكن للرافعي بها عهد ، ولم تكن تخطر له على بال .

وثمة لون آخر من الرسائل :

.. المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم ... شاب له خلق ودين ؛ وفيه اعتزاز بالعربية والإسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعي وينتصر له ؛ ويتبع بشوق وشغف

كل ما ينشر من كتب ومقالات : ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ؛ ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب جدرا بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيبا - فيما أظن - أن يجتمع الرأي لأديب من الأدباء على محبة الرافعي والعقاد في وقت معا ، كما أنه ليس عجيبا أن يتعادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا مادام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب ، ولن يمنع ما بينهما من الخلاف ، أو من الوفاق ، أن يكون لكل منهما قراؤه المعجبون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما ينشئ كل منهما في فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارئ بالكاتب الذي يؤثره درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ولا يعترف لغيره بأن يكون له مكان بين أهل الأدب .

على أن شأن صاحبنا المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعي والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعي ويؤثره ؛ ويعجب به إعجابا يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب العقاد كذلك ، ويعجب به ، ويتعصب له . لكل منهما في نفسه مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يحبهما معا ، ويتعصب لهما معا !

رأيان يتواثبان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبيه اللذين يؤثر كلاهما بالحب والإعجاب والأستاذية ؟

صورة طريفة وقعت عليها فيما وقعت بين رسائل الرافعي !
وهذه رسالة منه إلى الرافعي يقول فيها (١) :

(١) ليست الرسائل تحت يدي في اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها في نفسي كما قرأتها منذ قريب .

« سيدى ، إتنى أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ، ولكن موقفك من العقاد ياسيدى ... ليت شعرى لماذا تتخاصمان ؟ ... لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »
ثم لآتمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعى رسالته الثانية : « معذرة . إنك لتتجنى على العقاد تجنيا ظالما ، فما لك وجه من الحق فى عدائه والحملة عليه . لقد عقلت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير فى نفسى ، كبير جدا ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يدى فلا أجد غير الرافعى ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامى الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعى من أوراق ؛ تملأ النفس عجباً ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعى من رسائله ، رسالتان . كتب إحداهما فى المساء ، وكتب الثانية فى صباح اليوم التالى ، ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا فى الطريق لتضاربا بالألف ... !
على أن الرافعى مع ذلك كان يرد على رسائله ! وددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعى إليه (١) !

والآنسة الأدبية « ف. ز. » معلمة فى إحدى مدارس الحكومة ، كان أبوها

(١) لما نشر هذا الفصل فى مجلة الرسالة . بعث إلى المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم برسالة ، فيها عتب وفيها أدب ، وفيها إلى هذين حديث لا أدرى أيقصده به أن يثبت هذه الرواية أو ينفيها ؛ ثم يمنيى بنشر رسائل الرافعى إليه ، على شرط أن تنشر إلى جانبها رسائله ، ولقد كان يسرنى أن أعرف بماذا رد الرافعى ، ولكن الوفاء بشرطه ليس لى به سلطان ، وإنه ليستطيع أن ينشر ما يشاء حيث يشاء !

زميلاً للرافعى فى محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ؛ فلما مات لم تنس ابنته صديق أبيها ، فكانت تستعينه فى بعض شئونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد فى شئون وشئون .

صحبه إلى زيارتها مرة فى ليلة من ليالى الشتاء مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعى ، فلقيناها مع بعض صديقاتها ؛ وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعى قد أفاد منها بعض معانيه فى قصة « القلب المسكين ! »

* * *

.. وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود ؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسى الاعتراف » فترة غير قصيرة من حياته تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوف أو كان له فى كل دار أذن وعلى كل باب رقيب عتيد ! ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التى ظفر بها الرافعى من قرائه ؛ ولكنى أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلاً لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسر أحد فسماه أو عرّف به ؛ وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيرى ؛ إلا قليلاً من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجره إليه بعض الحديث فى موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني - وما كان بينى وبينه حجاب أو سر - فما عرفت خبرها إلا بعد موته ؛ ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئئوا إلى ؛ فستظل أسرارهم - فى يدى - مصونة عن عيون الفضوليين ؛ فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعونى الواجب لجلاء بعض الحقائق فى هذا التاريخ .

وكان له مراسلون دائمون ... يحدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم ،
فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شيء من تطورات حياتهم ؛ وقد أكسبهم
طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأنس به والاطمئنان إليه كما يطمثون إلى
صديق عرفوه وجربوه وعاشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإن القارئ ليلمح في هذا
النوع من الرسائل الدورية التي كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ،
مقدار ما أثر الرافعي في حياتهم منذ بدأت صلتهم به ، فتطورت بهم الحياة
تطورات عجيبة ؛ وأدى الرافعي إليهم دينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم
من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية . وإني لأضرب مثلاً لواحدة
من هؤلاء الأصدقاء .

هي فتاة من أسرة كريمة في دمشق ، نشأت في بيت عز وغنى وجاه ، وهي
كبرى ثلاثٍ نشأت نشأة يفاخرن بها الأتراب ؛ ثم تقلبت بهن الحياة ، فإذا هن
بعد الغنى والجاه نائس من الناس ، واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة
ناصبة لتعول أسرتهن ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها معينٌ ساعدها دون أختيها
في ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجمل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت
الزوج الكريم ، فقد سبقتهن أختاهن إلى الرفاء والبنين والبنات وظلّت هي ...
وما كان ذلك ليعيب فيها ، ولكنه سر لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت
هي وحدها - من دون أختيها - التي تستطيع أن تعول أسرتهن لأنها عاملة ...
وتألمت حين عرفت السر ، ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت
الأيام متتابعة والأمانى تخلف موعدها ؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ؛ ولكنها
قمعتها بإرادة وعنف ، ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بعزيمة لا تلين ؛
ولكنها لم تلبث أن أحسّت بوادى الهزيمة بعد طول الكفاح ، فشرعت قلبها

وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعي يامضاء « الصابرة » .
وقرأ الرافعي رسالتها ، ثم قص على خبرها وتندت عيناه بالدمع وهو يقول :
يا لها من فتاة بأسلة !

وأجابها على رسالتها بتذييل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة ...
وعادت تكتب وعاد يجيبها ؛ وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها
عن كل أحد - وكانت كتبه إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسائلها ليمزقه وحده
إن عناه أن يحتفظ برسائلها - وكان الرافعي لها كما أرادت : أبا وصديقا ومرشدا
ومشيرا ، ولم يَأْبَ عليها في بعض رسائله أن يتبسط في الحديث إليها عن قصة
« القلب المسكين » ، لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية ... وتعزّت
المسكينة عن شيء بشيء ، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا ، وبدا في
رسائلها لون جديد لم يكن في رسالتها الأولى ، وأخذت تكتب إليه عن كل شيء
تحس به أو تراه حولها ، وتستشيريه فيما جلّ وما هان من شئونها : في سفرها ،
وفي إقامتها ، وفي رياضتها ، وفي عملها ، وفي يقظتها ، وفي أحلامها ... في كل
شيء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ؛ حتى في صلاتها مع
صديقاتها وأصدقائها ؛ وفي الخطّاب الذين يترقون بابها يطلبون يدها ...
ولم يكن يضمن عليها بشيء من الرأي أو المشورة ...

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ، وتحققت أمانها على أكمل ما تتحقق أمان
فتاة ، وجاءها العروس الذي لم تكن أحلامها تتطاول إليه في منامها ، وبرق في
إصبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون ... لا أريد أن أذكر من صفات
خطيبها حتى لا أعترف بها وبه ، فليس من حق أن أكشف ما تريد هي أن

يظلّ مستورا . لو قلت إن خطيبها وزيرٌ من وزراء ذلك البلد لما بعدتُ !
واستمرت تكتب للرافعى والرافعى يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها
كانت تبعث بها إلى الرافعى ليشير عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل
الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعى ورأيه ...

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة في ٣-٤-١٩٣٧ (نعى الرافعى في ١٠-٥-١٩٣٧)
تقول فيها :

« الصديق الكريم ...

« ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشدها تأثيرا على نفسي ! لقد شعرت
وأنا أقرأها بسرور عميق ، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة ...
ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أمّا .

« أعتقد أنك تعرف تماما أن حنيني للزواج فيما مضى ، وتمردى وثورتي
على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنى رأيت وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنبهت
في غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذى .. صرت أكره الأطفال
لأنى ليس لى بينهم ولد ، وكنت إذ أرى أمّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها
أحس بألم مرير يحز بقلبي ويكاد يقطعه ؛ وكثيرا ما كنت أتشاغل وأشيح
بوجهي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر ، لست حسودة والله ؛ ولكن شدة
إحساسى كانت تجعلنى بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود
السرور ؛ وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع ...

« ... والله يعلم أن ليس لى أى غاية مادية من وراء هذا الزواج ؛ وليس
قصدي منه إلا الحماية والستر ، لأنى مللت ومرضت قلبي من فضول الناس ... »

وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعى مع زوجها ، اعترافا بحقه عليها ،
ولكن القدر لم يمهله حتى يحين الموعد ، وحن أجله ولم ينظر بعينه الفتاة التى
تبناها على بعد الدار وشغلته أجزائها زمانا ، فلما ابتسم لها القدر وتحققت
أحلامها ، ناداه أجله قبل أن يشاركها فى ابتسامة الفرح وتنهانى المسرة ... !
تقول له فى رسالتها المؤرخة ١٥ - ١ - ١٩٣٧ :
« الصديق الكريم ... »

« ... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة .. !
على كل حال إذا وجدت ما يرعبنى فسأختبئ » وراء فلان (١) ، ولا بد أنه يحسن
الدفاع عنى . لا ، لا ، سألبس درعا متينة تقينى (شر) هذه المغناطيسية القوية ،
ولكنى أخاف يا أستاذى أن يكون الحديد أكثر انجذابا ، وأكون حينئذ
أسأت من حيث أردت الإحسان ... صحيح أننى معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى
دائما ، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و ... قد يتفقدان أحيانا وقد يختلفان ؟ ثم
أليس ل ... معانى كثيرة وأساليب عديدة ... ؟

« تريد رأيى فى صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيدا فلماذا تريد
إحراجى ... ؟ »

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو أكثر ، ومع ذلك فصاحب
القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . اسمع ، سأبدي رأيى . لا لا ، ما بدى
أقول ، أستحى ... ! »

وكانت تعرف من أمره مع « فلانة » ما قص عليها فى رسائله . وفى رسائلها
حديث كثير عنها ؛ وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها ...

وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض في قصة الرافعي و « فلانة » ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ، فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها في هذه الرسائل فتهدى إلينا لتم لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسلة التاريخ !

إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في هذه الرسائل ؛ ولها علينا ما تشترط فنوفيه ؛ فلعل صوتي أن يبلغ إليها في مأمنها . ضمن الله لها سعادتها وحق لها ما بقي !

هذه قصة فتاة يجد القارئ بين أولها وآخرها أشتاتا من تاريخ الرافعي ؛ وفيها مثال يبين معنى ماسميته (النقلة الاجتماعية) في حياة الرافعي بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل ؛ على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعي حظ أي حظ ؛ وقد كان على أن يكتب - بما اجتمع له من فصول هذه القصة - مقالة بعنوان « الصابرة » جمع لها فيما جمع من نثر الأفكار قدرا غير قليل ؛ وما أخره عن كتابتها - إلى أن وافاه الأجل - إلا انتظار الخاتمة فيما أظن ، وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع ؛ وهكذا نجد شدة احتفال الرافعي بموضوع ما تكون سببا في تعويقه عن كتابته أو عن تمامه .

كان يحتفل بكتابه « أسرار الإعجاز » فلم يتم ؛ وبمقالتي « الزبال الفيلسوف » و « الصابرة » فلم يكتبهما ؛ ولكن التاريخ لم ينس له .

مقارنت منحوت

كثيرا ماتدعو الدواعى كاتبا من الكتاب إلى إنشاء مقال لا يذيله باسمه ؛
ويكاد يكون من الشائع المؤلف أن يقرأ القراء مقالا فى صحيفه من الصحف غير
معزوق إلى قائله أو مرموزا إليه رمزا ما أولكن من غير المؤلف أن ينشئ كاتب
من الكتاب مقالة أو فصلا من كتاب ، أو كتابا بتمامه ، ثم ينسب ما ينشئه إلى كاتب
غيره وللرافعى فى تاريخه الأدبى حوادث من مثل ذلك ، فثمة مقالات ورسائل ،
وكتب متداولة مشهورة ، يعرفها القراء لغير الرافعى ، وهى هى من إنشائه وكذ
فكره وعصارة قلبه ، ولكنه آثر بها غيره زهدا عنها أو التماسا للنفع من ورائها ،
ولو أنى أردت أن أستقصى ما عرف من ذلك لأغضبت كثيرا من الأحياء أحرص
على رضاهم وأخشى غضبهم ؛ ولقد كنت على أن أطوى هذا الفصل حرصا على
مودتهم ، ولكنى وقد وضعت نفسى بهذا الموضع لا كون مؤرخا بعيدا
عن التهمة - لم تطب نفسى بكتبان الشهادة ، فإذا لم يكن بوسعى أن أذكر
كل ما أعرف فحسبى اللمة الدالة والإشارة الموجزة ، ومعدرة إلى أصدقائى ...

فى سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول
حسن ؛ وكتبت عنه المقالات الضافية فى كبريات الصحف ، ولكن ذلك لم يكف
الرافعى ؛ ففى ذات يوم قصد إلى جريدة « المؤيد » ؛ فلقى هناك صديقه المرحوم
أحمد زكى باشا ، فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلا عنه ؛ فقال زكى باشا :

« وماذا تريدني أن أكتب ؟ » قال الرافعي : « تقول وتقول ... » قال زكي باشا :
« فاكتب ما تشاء وهذا إمضائي ... ! » وجلس الرافعي إلى مكتب في دار الجريدة
فكتب ما شاء أن ينسب إلى صديقه في تقرّيط كتابه : ثم دفعه إليه فذيله باسمه
ودفعه إلى عامل المطبعة ...

وقرأ الناس في اليوم التالي مقالا ضافيا بإمضاء « أحمد زكي باشا » في تقرّيط
« تاريخ آداب العرب » شغل الصفحة الأولى كلها من الجريدة . ولكن
أحدا من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعي نفسه ؛ يثنى على
كتابته ويطري نفسه !

ولهذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه ؛ فإنه لما أنشأ نشيده « أسلمى
يا مصر ... » قرأ القراء مقالا في الأخبار بإمضاء أحمد زكي باشا ؛ يثنى على النشيد
ويطري مؤلفه ؛ ولم يكن كاتب هذا المقال أحدا غير الرافعي ؛ بل إن أكثر
المقالات التي يراها القارئ في الكتيب الصغير الذي نشره الرافعي عن نشيده
هذا ^(١) هو من إنشائه أو من إملائه !

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقا بين المرحومين زكي باشا والرافعي إلى أخريات
أيامهما ؛ ومنه أن زكي باشا كان على نية إعداد معجم لغوى كبير قبيل وفاته ؛ وكان
للرافعي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال ؛ وفيه فصول ألفها الرافعي بتأمرها وأعدّها
للإمضاء ... ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم ؛
وأحسبه ما يزال محفوظا بين تخطّاته المخطوطة .

ويتمّ بسبب إلى هذه المقالات التي كان ينحلها الرافعي صديقه زكي باشا ،

(١) نشيد سعد باشا - المطبعة السلفية .

ما نحل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعي من شرح ديوانه الذي أصدر منه ثلاثة أجزاء سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٥ ؛ فإن شارحها هو الرافعي نفسه ؛ وفيها عليه ثناء وإطراء (١) .

* * *

في الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التي كانت تحمل الرافعي على أن ينحل أصدقاءه بعض ما يكتبه ؛ رهنالك أسباب أخرى :
في سنة ١٩١٧ وقعت في طنطا جريمة قتل مرقوعة ، وكانت القاتل امرأة عجوزا مسموعة بالغنى والشح والكزازة ، تزوجها قبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعاً في مالها ، فلم يلبث معها إلا قليلاً ثم وقعت الجريمة !
وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب ؛ ثم انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام ؛ وكانا شيخين عجوزين ، فيهما بلاهة وغفلة ؛ فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما وهياً بغفلتهما وبلاهتهما الفرصة للمجرم الحقيقي أن يحكك حولهما الشبكة وأن يصوب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة ...

كان المجرم الحقيقي معروفا للجميع ، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفلين ، فألقت بهما إلى السجن المؤبد ؛ وقضيا في السجن بضع سنين !

شيخان على أبواب الأبدية ، يساقان إلى ظلام السجن ليس من وراءه إلا ظلام القبر ، ولم يقتربا جريمة أو يرتكبا إثماً ... ولكن القانون قد قال كلمته ، والقانون حق واجب الاحترام ؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية شفيعاً من قسوة القانون .

(١) انظر ص ٤٣ من هذا الكتاب .

وسعت أسرة السجينين إلى المحامى الأديب المرحوم حافظ عامر تطلب إليه أن يكتب استرحاماً في أمرهما إلى أمير البلاد ، لعل في عطفه ما يأسو الجرح ويخفف وقع المصاب ؛ وجعلت له أجراً على ذلك مائة جنيه !

وماذا يقول المحامى في قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته ؟ ليس هذا سبيل المحامى الذى يرتب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض ؛ لقد فات أوان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذى يخاطب النفس الإنسانية فيجتلب الرحمة ويستدر العبرة ويحسن الاعتذار عن النفس البشرية من أخطائها فيذكرى العاطفة الخالية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنسانى حديث الوجدان والشعر والعاطفة . وقصد المرحوم حافظ عامر إلى صديقه الرافعى ، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد ، وسمى له أجرة إن توفى في مسعاه . وقرأ الرافعى القضية وأحاط بها من كافة نواحيها ، ثم شرع قلبه وكتب ... وبلغت صيحتُه حيث أراد فأفرج عن السجينين في مايو سنة ١٩٢١ وتناول الرافعى أجرته على ذلك من المحامى سبعة عشر جنيهاً ، واستبقى المحامى لنفسه ثلاثاً وثمانين (١) ...

في هذا الاسترحام الذى كتبه الرافعى في بضع وأربعين صفحة ونحله صديقه المحامى لطبعه باسمه . لو أن من أدب الرافعى غير معروف لقراءته ؛ وفيه تحليل نفسي بديع ؛ وفيه شعر إنسانى يبلغ الغاية من سمو ؛ وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مثلها في أساليب الأدباء .

وقد ظل هذا (التعاون) الأدبى متصلين الرافعى وصديقه الأستاذ حافظ عامر

(١) حدثنى حديث هذه القضية الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ، صديق الرافعى وملازمه من لدن نشأته .

إلى ما قبل موت الرافعي؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكمات إلى نطاق أدبي آخر ليس من حق أن أتحدث عنه اليوم... وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر، تحدث به الرافعي إليه في مجلس ضمنا نحن الثلاثة...

أشرنا في بعض ما سبق من هذه الطبعة إلى ما أجملنا ذكره في الطبعة الأولى من خبر «رسالة الحج» المنسوبة للرحوم حافظ عامر قنصل مصر في جدة سابقاً^(١) على أن ما ذكرناه إجمالاً في الطبعة السابقة لم تخف حقيقته عن كثير من القراء، ففهموا ما قصدنا إليه، وإن كنا لم نقطع برأى أو خبر في نسبة تلك الرسالة؛ وقد كتب إلينا صديقنا الأديب السيد حسين نصيف من جدة في سنة ١٩٤٣ يقول: إن هذه الرسالة ليست من تأليف حافظ عامر، ولا من إنشاء الرافعي، وإنما نقلها أولهما عن ترجمة انجليزية مخطوطة لكتاب بالأردية عن «أسرار الحج»، ولم يكن يعلم أن النسخة الأردنية قد نشرت على قرائها في الهند قبل ذلك بسنين، وأن ترجمتها الانجليزية قد سبقت النسخة العربية التي نشرها حافظ عامر في القاهرة بمعونة صديقه الرافعي، ولكي يبرهن صديقنا الأستاذ نصيف على دعواه بعث إلينا بالنسخة الأردنية لنوازن بينها وبين رسالة حافظ عامر، فدفعناها إلى صديقنا الأستاذ محمد حسن الزيات - رذ الله غربته - ليقارن بين الأصل و«الصورة» ففعل؛ ولا تزال تلك النسخة الأردنية عنده حتى اليوم. وقد نشرت مجلة «الرسالة» في ذلك الحين دعوى السيد حسين نصيف والرد عليها، وتناولنا موضوعها بالتعليق في بعض ما كنا نكتبه وقتئذ في مجلة «الثقافة» بتوقيع «قاف» تحت عنوان «الصحافة والأدب في أسبوع»

(١) انظر ص ٣٢٠ من هذا الكتاب.

فإذا صح هذا الذي روينا - ونحن نميل إلى تصحيحه - فإن عمل الرافعى فى تلك الرسالة التى نشرها المرحوم حافظ عامر منسوبة إليه ، لا يعدو عمل المنشئ وصاحب البيان لفكرة زعم له صديقه أنها فكرته !

ونعود إلى حديث المقالات المنحولة فنقول :

فى شهر ديسمبر من سنة ما ، قصد الأستاذ جورج إبراهيم صديقه الرافعى ، يطلب إليه أن يُعد كلمة عن المسيح لتلقيا فتاة مسيحية فى حفلة مدرسية فى ليلة عيد الميلاد ...

وكتب الرافعى المسلم كلمة مسلية فى تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه ؛ وألقاها الفتاة فى حفل حاشد من المسيحيين المثقفين فخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الإعجاب . وفى الشهر التالى كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة فى « المقتطف » منسوبة إلى الفتاة ؛ وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلا من الإنجيل . تحت يدى الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعى ؛ وهى النسخة التى بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة ، وفى صدرها بخطه إلى صديقه : « هذا ما تيسر لى على شرط الفتاة ؛ فنقح فيه ماشئت ، واضبط لها الكلام . والسلام ،

وفى آخرها يتفكه مع صديقه « وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة ، والمضرة ، والمعرة يا عم جورجى » .

وكان المرحوم الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي - صهر الرافعى - من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المقربين ، وكان أدنى إليه منزلة من كثير من

تلاميذه ، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب ، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصا بالرواية عنه في الناحية الدينية ، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته .

فلما هم البرقوقي أن يصدر مجلة البيان^(١) - وكان السيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار - قصد البرقوقي إلى الرافعي يقول له : « إنني لا أتصور كيف يصدر العدد الأول من «البيان» وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الإمام أصفه لقرائي ، وأنا كنت أدنى إليه مجلسا من رشيد رضا الذي لا يكاد يصدر عدد من مجلته - المنار - إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ ! ، قال الرافعي : « فابدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه ! ، قال البرقوقي : « ولكني لا أجد عندي ما أرويهِ عن الإمام ؛ لقد ترك الشيخ في نفسه أثره ولكنه لم يترك في ذاكرتي من حديثه ومجالسه شيئا يستحق الرواية ، قال الرافعي : « ... ولا بد من ذكر شيء عنه في البيان ؟ ، قال : « بلى ، وإلا غلبني رشيد رضا واستطال عليّ عند قرائته بأنه هو وحده تلميذ الإمام وراويهِ ! ،

وضحك الرافعي وأطرق هنيهة ، ثم تناول قلما وورقة وكتب ...
وصدر العدد الأول من مجلة البيان ؛ وفيه حديث يرويهِ البرقوقي عن الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالس درسه ؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان في مثل بيانه ؛ وما قال المرحوم الإمام شيئا من ذلك ولا تحدث به ، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعي على لسان الأستاذ الإمام ونشره

(١) مجلة البيان : هي مجلة أدبية كان لها في حلبة الأدب صولة وسلطان ، وهي غير «البيان» التي كان يصدرها المرحوم إبراهيم اليازجي .

البرقوقي ليقضى لبانة في نفسه...

... ألقى إلى الرافعي هذا الحديث ساخرا ، ثم دفع إلى العدد الأول من مجلة البيان وهو يقول : « اقرأ »؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام ؟

وضحككُ وضحك الرافعي ، وعاد يقول : « ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع ، التفت إلى جلسائه قائلا : وأى حديث هذا الذي يبدأ به البرقوقي مجلته ؟ لقد كنت حاضرا مجلس الشيخ ، وسمعت منه هذا الحديث ، ولكني لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحملني على روايته (١) ... ! »

... واستمر هذا (التعاون) أيضا بين الرافعي والبرقوقي طول المدة التي كانت تصدر فيها مجلة البيان ، فأى مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت في نسبته إلى مُذيله باسمه ، فاحمله على أنه مما كتب الرافعي من الأدب المنحول ...

ومن ذلك مقدمة شرح ديوان المتنبي الذي نشره البرقوقي

ويدخل في هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعي يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتأدبين ؛ ليدفع عن نفسه في معركة ، أو يدعو إلى نفسه لمغنم ، أو ليعين صاحباً على العيش ، أو ليوحي إلى (صاحب الإمضاء) إيحاء يدفعه إلى الاستمرار في الأدب والأمل في أن يكون غدا من الكتّاب المشهورين ... وليس يعنيني في هذه الناحية أن أسمى أحدا أو أشير إليه ، إذ كان الذي كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه ، وأكثره لغو مما ينشر في بعض الصحف لملء الفراغ .

(١) أروى هذا الخبر عن الرافعي على علاته ، على أن صديقنا الأستاذ محمود أبو رية ينكره ، وقد نفى المرحوم السيد رشيد رضا نسبة هذا الحديث إلى الأستاذ الإمام في بعض كتبه ، أفتراه تنبه لها من بعد ؟

من شؤون الاجتماعية

لم يكن الرافعى عضواً فى جماعة من الجماعات ، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف ؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال فى رأى . وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأى يراه مجاملة لصديق أو خضوعاً لرأى جماعة ينتسب إليها ؛ وكان له من علته سبب آخر نبّهتُ إليه عند الحديث عن نشأته . ثم إن الرافعى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق ، فهو لا يعتبر إلا رأيه ، أو حاجته ، أو مصلحته ، فيما يكون بينه وبين الناس من صلوات ، ولم يكن يعرف هذا النفاق الاجتماعى الذى يسميه الناس التقاليد ، أو الأدب اللائق ، فهو بذلك كان عالماً منفرداً يسير فى نهجه إلى الهدف المؤمل على وحنى الفطرة أو هدى الإيمان . سمّ هذا شنوداً فى الخلق ، أو سمّه استقلالاً فى رأى وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها ؛ فما يعينى هنا إلا إثبات هذه الحقيقة فى التاريخ كما شهدتها فى معاملاته وفى صلواته بالناس ، وكما لمحتها فى جملة من أحاديثه .

... هذه الأسباب هى أهم ما كان يباعد بين الرافعى والاشترك فى الجماعات ،

أو يباعد بينها وبينه !

على أن ذلك لم يكن يمنع أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب فى وقت ما لسبب ما ، ولم يمنع ذلك أن يكون عضواً فى بعض الجماعات . وأول أمره فى ذلك - على ما أعرف - أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين

في تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الديني : وكان مدعوه على هذا الرأي صديقان من أترابه ، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح المرقى المحامى بطنطا ؛ وقد اتخذوا « مسجد البهى » في طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ دعوتهم ، وطنطا كما قد يعرف كثير من القراء ، مركز هام من مراكز الثقافة في مصر ، وفي أهلها حفاظ وتخرج ، ولها صبغة دينية نشأت من أن فيها معهداً دينياً كبيراً في « الجامع الأحمدى » كان في وقت ما يشتد عدواً في مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة . والأزهريون في طنطا ، كالأزهريين في القاهرة ، إلى عهد قريب ، أكثر أهل العلم في مصر حفاظاً على القديم ، وأسرعهم إلى سوء الظن بكل إصلاح جديد ؛ من ذلك لقي الرافعى وصاحبه في دعوتهم ما لقوا من عداة طلبة الجامع الأحمدى وعلماؤه ، حتى هم الطلبة مرة أن ينالوهم بالأذى في أبدانهم ... فلم يجد الرافعى وصاحبه في النهاية بداً من التسليم . وانحلت الجمعية الرافعية الصغيرة .

حدثني الرافعى حديث هذه الجمعية في خريف سنة ١٩٣٢ بعد ثلث قرن مما كان ؛ وكنت ذهبت إليه يومئذ في وفدٍ ثلاثة ندعوه إلى الاشتراك معنا في جماعة أنشأناها بطنطا في ذلك الوقت باسم « جماعة الثقافة الإسلامية » تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية ، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجاً ؛ وكانت تضم فيمن تضم طائفة متازة من أهل الرأي والعلم والأدب لكل منهم صوت ورأى وجاه في قومه ...

ولبي الرافعى دعوتنا بعد تمنع ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد ، فلما استكملنا الأهبة ، دعونا الشباب المثقفين في طنطا إلى اجتماع عام في ناد كبير ، وكان الرافعى من خطباء الاجتماع .

صعد الرافعي إلى المنصة ، فوقف برهة يحيل نظره في ذلك الجمع الحاشد ، ثم انطلق في خطبته .

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة ، وعلى أن موضوعه هو الثقة الإسلامية ، فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ « الجامع الأحمدى » ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ ؛ ولم يفت الرافعي أن يلاحظ ذلك ؛ فقال في خطبته إلى هذه الناحية ، ينعى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبهم في مثل هذه الدعوة ، وأن يؤثروا القعود على الجهاد ! وكان فيما قاله : « إن أدبيا كبيرا من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى في الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالما ! وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد في كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا ... ! »

قالها الرافعي في حماسة وانفعال وفي لهجة خطابية ثائرة ، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله ، أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافعي ، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ في الأزهر قد خافوا أن تقول كلمة الرافعي تأويلا يناههم بالشر من إخوانهم الأزهريين ... وعلى أن الرافعي كان برىء الصدر فيما قال ، وعلى أن الأزهريين كانوا يعلمون قبل غيرهم أن هواه معهم ، وعلى أن صدر كلامه وخاتمته لم يكن ينبئ عن قصد الإساءة ؛ فإن هذه الكلمة التي قالها قد أحدثت دويا بين الأزهريين تهدد الجماعة في نشأتها .

وسعى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدى (المرحوم الأستاذ محمود الدينارى) فأنبأه أن الرافعي قد قال في خطبته : لو قعد حمارى في الأزهر بضع سنين لخرج

أعلم من شيخ الأزهر ... !»

وكتبها كاتب في رسالة خاصة إلى المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهري شيخ الجامع الأزهر .. !

وتسامع بها الشيوخ على ما حكاهم الراوى فراحوا يتناولون الرافعى وجماعته بما وسعهم من التجريح فى أعراضهم ودينهم ومقاصدهم ، وقال قائل منهم : « وما حاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه ؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله فى العالم على حد السيف ، فما يغنى غناءه فى هذه الدعوى كاتب يكتب أو خطيب يخطب ! » وامتدت هذه القالة الطائشة على لسان طائفة ...

وعرف الطلاب من الأمر ما عرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب ، وسعت طائفة أخرى فى وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يقمع هذه الفتنة بسلطانه ، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية ؛ إذ كان للأزهريين يومئذ فى السياسة دولة وسلطان. وإذا اتصل الأمر بالسياسة ، فإن طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة قد فزعوا فآثروا البراءة منها على الدفاع عنها ، وأشفت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفدا إلى الأستاذ الديناى شيخ الجامع يحقق له الرواية ويمحو سوء الظن ويعتذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد ردًا غير جميل وقال عن الرافعى ما قال ...

وجاء الخبر إلى الرافعى بما أحدثت كلمته ، فما أفزعه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نُقل إليه منسوبًا إلى الرافعى وإنهما لصديقان من زمان ... فكتب إليه :

« ... وإن شيخنا من علماء الجامع الأحمدى يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف ! وهذا كلام ، وسيتبقى كلاما مادمت ساكتا عنه ، فإذا عرضت له

بالمناقشة فقد تغير وجهه ، لو كان وجه النهار لاسودا .

وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التى ادعاها خصوم الرافعى عليه بما زادوا فيها ونقصوا ، فكتب يعتذر إليه ، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدي ... وكان الرافعى جالسا إلى مكتبه فى المحكمة حين جاءه الرسول يدعوهُ إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدي ، فردهُ ؛ وعاد يدعوهُ ثانية ويلح فى الرجاء ، فحدد الرافعى موعدا .

وذهب إلى لقاء الشيخ ، فاستقبله العلماء بالباب فى حفاوة بليغة ، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ ؛ قال الرافعى : « ووجدت الشيخ فى انتظارى وبين يديه « إعجاز القرآن » ؛ فما لقينى حتى قال : أتعرف ياسيدى أننى مدين لك ؟ هذا كتابك لأجدلى رفيقا خيرا منه ، إنه زادى وعمادى . ثم عيَّثَ فى درج مكتبه قليلا فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب ، فدفعها إلى وهو يقول : وهذه قصيدة أعددتها لأنشدها بين يدي المليك فى طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه ؛ لا أجد من يصلحها خيرا منك ، فأنت أنت للشعر والبيان ! »

قال لى الرافعى : « وبدون هذا كانت تقنع نفسى وترضى ، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائى ؛ طاعة لأمر شيخ الأزهر بعد الذى قال عني منذ أيام ... »

تم الصلح بين الرافعى والأزهر ، ولكن الأزمة التى كانت ، لم تُبَقِ على الجماعة ، فانحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة . وكان للسياسة يومئذ حديث طويل ...

ولم يشترك الرافعى على ما أعلم فى غير هاتين الجماعتين ،

ولم تنهياً للرافعى رحلة من الرحلات يفيد منها علماً أو تجربة طول حياته ،
غير رحلة أو رحلتين - لا أذكر - إلى الشام ، لم يفارق مصر إلى غير الشام من
بلاد الله ؛ فزار طرابلس حيث ماتزال أسرة الرافعى لها ذكر وجاه ، وزار
لبنان حيث عرف صاحبة حديث القمر في سنة ١٩١٢ .

على أن الرافعى كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتاحت له ؛ ولكن
موارده المحدودة كانت تقعده ؛ ولما كان في بطانة المغفور له الملك فؤاد ،
كان له جواز سفر مجاني في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية ؛
فكان يعد حصوله على هذا الجواز ظفراً بأمنية عزيزة ، لأنه أتاح له أن يتنقل
ما شاء بين البلاد من غير غرم ، حتى ما يكاد يستقر في بلد ، فيوماً في القاهرة ،
ويوماً في الإسكندرية ، ويوماً في بور سعيد ؛ يفيد من هذه الرحلات ما يفيد
لأدبه أو لبدنه وأعصابه ، حدثني مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية ،
فأحس شيئاً من التعب والملال ، فقصده إلى المحطة فاتخذ مقعده في قطار كان
على أهبة السفر إلى بور سعيد ، فأتى قصيدته هناك ثم عاد . . .

وقد كان هذا الجواز هو سبب ما بينه وبين الإبراشي مما فصلت مجمله
في فصل سابق ، وكان الرافعى قد قصد إليه يطلب إليه مدّاً أجل هذا الجواز
بعد انتهائه !

وكان يغبط الذين يجدون في طاقتهم أن يقضوا الصيف من كل عام في
أوروبا ويتمنى لو أتاحت له ، ليفيد من ذلك شيئاً يجدى على أدبه . على أنه مع ذلك
كان يرحل إلى أوروبا أياً كان يريد ، ولكن في السيماء . . .

كان يسمى السيماء : خارج القطر ! ويزعم أن في ذهابه لمشاهدتها كلها سنحت
له الفرصة غناء عن السفر ، فسواء عنده أن يرحل إلى أوروبا في قطار أو باخرة ،

وأن ترحل إليه أوربا بحالها في رواية يشاهدها على ستار السيماء ؛ فليكنيهما أثر متشابه في نفسه ؛ وذلك بعض مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة !
وكم كان ظريفا أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلا : « هل لك أن تصحبني الليلة إلى خارج القطر ؟ » يلقي هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة ، لأن كلمة « خارج القطر » كانت عنده علما عرفيا على السيماء لا يحتاج إلى تعليق !

وكان عجيبا في إيمانه بالغيب ، وتناجى الأرواح ، وتنادى الموتى والأحياء ؛ وكان يؤمن بالسحر والعرافة ؛ وكثيرا ما كنت تسمع منه : « حدثتني نفسي ... ألقى إلى ... هاتف بي هاتف » وكان يعنى ما يقول على حقيقته ، جلست إليه مرة في منزله ، فأخذنا في حديث طويل ... وعلى حين غفلة سكنت ، ثم قال : « كيف صديقنا مخلوف ؟ » قلت : « لم أره من زمان ! » قال : « إنه قادم الساعة ... لقد ألقى إلى ... أحسبه الآن يصعد في السلم ... ! » فما كاد يتم حتى دق الجرس . وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم ، وسألت الأستاذ مخلوفا : أكان على موعد مع الرافعى ؟ فنفى لى كل ظنة !

وسألني مرة أخرى : « ماذا تعرف عن صديقنا م » قلت : « لا جديد من أخباره ! » قال : « يهاتف بي الساعة هاتف أنه في شرا » وفي صباح اليوم التالي كان نبأ شروعه في الانتحار منشورا في الصحف ! وفي الرسائل التي تبادلها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعى كان يعلم شيئا !

وكان بينه وبين رجل قضية ، فغاضه ، وجاءني الرافعى يوما محنقا وهو يقول : « سينتقم الله منه ! سينتقم الله منه ! قلبي يحدثني بأن القصاص قريب ! » وفي الغد

جاء ناعى الرجل ، وكنت مع الرافعى وقتئذ ، فتندت عيناه بالدمع ، وتناول سبجته وأخذ يتمم فى صوت خافت وشفته تختلج من شدة الانفعال !

هذه حوادث ثلاث رأيته بعينى ، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض القراء ، وأحسبني قد رأيت له غير ذلك ولكنى لا أتذكره الآن . . .

وحدثنى أن أباه كان مسافرا مرة إلى بلد ما ، وكان عليه صلاة ، فاقترش مصلى وأخذ يصلى على رصيف المحطة ، وإنه لكذلك إذ جاء القطار . قال الرافعى : « وكان أبى حريصا على ميعاد هذه السفرة ، يخشى شيئا لو تأخر عن مواعدها ، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ ؛ ولكن الشيخ استمر فى صلاته على ونى واطمئنان ؛ وما تحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته واطمأن فى كرسيه وحيًا مودعيه ووصى ؛ وكان سبب تأخير القطار شيئا غير مألوف يتصل بشأن من شئون المحطة ! »

وأحسبه ذكر مرة فى بعض ما كتب ، كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خف ! وأخبرنى أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعى استحضر روحه فلبت نداءه ، وكان بينهما حديث لا أذكره . وحاول مرة أن يعلمنى وسيلة لتحضير الأرواح ولكنى لم أتعلم !

وكان يحفظ كثيرا من الأدعية والدعوات لأسبابها !

ولما وقع فى حب « فلانة » ونال منه الوجد بها ، لجأ إلى العرافين فى أمل يأمله ، فكتب تيمة فعلقها فى خيط فربطها فى سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح .. (١) قال : « واسكن أمورا عجيبة مفزعة وقعت لى ولأهلى ولسكان الدار جميعا فى خلال اليومين اللذين كانت التيمة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك ؛

(١) انظر ص ١٠٢ من هذا الكتاب .

فإن لكل تميمة غايتين : إحداهما مما تأمل وثانيتهما مما تخاف ، وكان ما وقع لي وما يتهددني من شر ، أكبرَ عندي من الأمل الذي كنت أرجو ؛ فندمت على ما كان ، وتسلمت إلى السطح فخللت رباط التيممة وفضضت خاتمها ... قال : فما فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها في رفق وأناة ؛ وزال ما كنت أحذر وهدأت نفسي من ناحيته ؛ فما كان شأني في الحاليتين إلا كراكب سفينة هبت عليها عاصفة ثم قررت ا... قال : وما كان الذي وقع لي في هذين اليومين مما يقع في العادة ، ولا كانت نهايته وقد فضضت خاتم التيممة بالنهاية التي تنتظر ا...»

وكان يؤمن إيمانا لا شك فيه بأن يوما ما سيأتي فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة ، لأن بشيرا من الغيب هتف بهذه البشرية في نفسه ؛ فهي لا بد واقعة ! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه المرحوم فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذي فقده منذ ثلاثين سنة أويزيد ، ورسالة أخرى من صديقه المرحوم حافظ عامر فيها شيء يشبه ذلك !

وأحسبه قال لي مرة أو مرات وكنت جالسا أتحدث إليه : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول ! »

ولو أنني ذهبت أستقصى ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وسعني الوقت ، وفي بعض ما قدمت الكفاية لمن يلتمس أسباب العلم .

وكان الرافعي ولوعا بالرياضة البدنية من لدن نشأته ، يعالج أسبابها في أوقات رتيبة ، وكان المشي الطويل أحب رياضة إليه .

خرجت مرة في جماعة من صحي يوم « شم النسيم » للرياضة بعيد الفجر ، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضي اليوم كله في الخلاء ، فلما صرنا

على بعد ميل من المدينة والشمس لما تشرق ، لمحت الرافعى على بعد يخب فى مشيته على حافة قناة بين زرعين ؛ فلما دنوت منه رأيت يميل فيبذل كفه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط مبسوط ؛ وأقبلت عليه أسأله ، قال : « هذه رياضة تحلو لى كثيرا ، فما أتركها إلا لعارض ، بل إني لطيب لى أحيانا أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة ، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان ... » قلت : وهذا الندى الذى تغسل به وجهك ؟ قال : « إنه ينضّر الوجه ويردّ الشباب ! » ثم سأل : « وأنتم أين تقصدون ؟ » قلت : هذه رياضة لا تقوم بها فى العام إلا مرة ، وإن معنا طعاما وماء وحلوى ؛ فهل تصحبنا ؟

قال : « وددت ولكن فى غير هذا اليوم ... أسأل الله لكم العافية ! » ونالنا فى هذا اليوم شر لم نتوقعه ، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين ... وسمع الرافعى بما نالنا فقال : « هو ذلك ! إن الشر ليربص بالمسلم الذى يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم ! هذه وصية أب ! » (١) . وكان يعالج كثيرا من وسائل الرياضة غير المشى ، وقد أتقن تمرينات « صاندو » الرياضى الفرنسى المشهور ...

ولو أن أحدا دخل منذ سنوات الغرفة التى كان فيها مكتب الرافعى ، لراى (عُقْلَةً) تتدلى من السقف ، وكُرَاتٍ وأساطين من الحديد ملقاة إلى جانب ، وأثقالا من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط .

وقد كان إلى قريب يملك عودا طويلا من الحديد الغليظ يعلق فى طرفيه

(١) وصفت هذا الحادث فى مقال نشرته بمجلة الرسالة المصرية منذ أعوام ، بعنوان « يوم لا أنساه ! » .

ولديه انشاين سامى ومحمد ، ثم يرفعهما بيده كما يفعل أبطال الحمل حين يحملون من أثقال الحديد ... !

وكان ولعه بالرياضة يحمله على السعى إلى أبطالها يلتبس صداقتهم ؛ ومن أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبدالحليم المصرى ، والبطل المصرى المشهور السيد نصير !

ومن عجائب الازدواج فى شخصية الرافعى أنك كنت تنظر على مكتبه ثلاث صور لا تجتمع فى مكان ؛ هى صورة المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وصورة الرياضى الفرنسى المشهور صاندو ، وصورة ... كريمان هانم خالص ، ملكة الجمال التركية فى وقت ما ؛ واسترعى اجتماع هؤلاء الثلاثة ملاحظتى ذات يوم ؛ فقال وأشار إلى صورتى صاندو والشيخ محمد عبده :

« هاتان قوتان تعملان فى نفسى : قوة فى روحى ، وقوة فى جسدى ! »

قلت : « وهذه ... ؟ »

قال : « وهذه ... ! ما أجملها ! انظر ! ألا تقرأ شعراً مسطوراً على هذه الجبين ؟ »

وكان سباحاً ماهراً ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه ، وكان يمزح ويسميه « بللاج الرافعى » ، إذ قل أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطفافين فى سيدى بشر غير الرافعى وأسرته . ولا يطعن فى قدرة الرافعى على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة ؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر ، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم .

والرافعى صورة طريفة تصوورها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله فى زى أبطال
الرياضة المشهورين : عارى الجسد ، بارز العضلات !
وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها مسلسلة فى مجلة « المضمار »
الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة .
وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوته البدنية ، ومن أسباب قوته العصبية
أيضا ؛ ومن هاتين كان اضطبار الرافعى على العمل الشاق فيما يعالج من
شئون الأدب .

ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأن القدر أقوى من احتيال البشر !

قلت فى أول هذا الفصل : إن الرافعى لم يكن رجلا اجتماعيا يلتزم ما تفرض
عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق ...
فلعل قراء الصحف المصرية ما يزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذى كان
يطالعهم فى كل جريدة وكل مجلة « عن الفسفورين » وفى رأسه صورة الرافعى
وشهادة بخطه عن مزاي الفسفورين الذى « شربه فكأنما شرب فيه الكهربا ... »
ولعل كثيرا من الذين قرءوا هذا الإعلان ورأوا فى رأسه صورة الرافعى
وشهادته بخطه - قد عجبوا وسألوا أنفسهم : كيف يرضى رجل كالرافعى أن يضع
نفسه هذا الموضع ؟

ولعل كثيرا منهم كذلك كانوا يعتقدون أن الرافعى لم يكتب هذا الإعلان
إلا مأجورا كما يؤثر « نجوم » السيام وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف
العطر والصابون وأدوات الزينة ... !

... ولكن هذا الذى كان يدور فى خلد جميع القراء ، أو أكثر القراء ،

لم يكن يخطر للرافعى أو يدور بخله ؛ بل لعله كان يراها مفخرة له على أدباء الجيل أن يؤخذ بشهادته من دونهم جميعا ، وأن تُنشر صورته كل يوم في كل جريدة مع لقب « إمام الأدب وحجة العرب ... » الذى نحله إياه الأمير شكيب أرسلان فى بعض ما كتب عنه ! وأحسبه قال لى مرة : « إن الأديب فلانا ليا كله الغيظ كلما رأى هذه الصورة مقترنة إلى هذا اللقب الذى لا يتناول إليه أديب من أدباء الجيل ! »

أتراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين ؛ أم شهادة من الفسفورين بإمامته ... ؟

ولكنه - يرحمه الله - لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليرى أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان عمل لا يليق !

والسبب الذى دعاه لكتابة هذا الإعلان ، أنه ذهب مرة ليشترى دواء من صيدلية ؛ فأهدى إليه من أهدى شيئا من الفسفورين زعم أنه يعينه على المجهود العصبى الذى يبذله فى معاناة الأدب ؛ ثم دعاه بعدُ إلى كتابة هذا الكتاب ؛ فلما أجابه الرافعى إلى ما طلب ، بعث إليه فى منزله بهدية من مركبات الفسفور فى صندوق ... ثم كان كتاب الرافعى - كما رآه القراء - إعلانا بأجنس الأثمان ، وهو راضٍ مسرور !

وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان ؛ نشره منذ سنين فى مجلة المقتطف (١) ، يُشيد بفنٍّ مهندسٍ مشهور ؛ لأنه وضع له رسما لمنزله الذى مات قبل أن يبنيه ؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذى وضعه !

وإلى القراء هذا الإعلان ؛ أثبتته هنا طرفة أديبة لا يقع القراء على كثير من أمثالها !

إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس ...

عزيزى الأستاذ رمسيس

تأملتُ رسمك الجميل الذى وضعته لمنزلى ، واتبعتُ مواضع الاتصال فيه بين قريحتك المبدعة وبين شكل الطبيعة ورؤوحها ؛ فأشهدُ لكأن هذا الرسم بما فيه من القوة يُحاولُ أن يحيا فى نظر من يتأمله .

إنك بهذا الذوق السليم الحى لتعطينا السرور فى شكل من الفن ؛ حتى لو مَلَكَ المالكُ رُقعة من الأرض كالبقعة من الظللة لوضعتَ لها من هندستك عُرةً فجر يضىء عليها .

وأراك بهذه الدقة وهذا العلم كأنما ترغمُ الطبيعة أن تقدم لك حساباً عن كل مكان تتناوله منها ؛ وأحسبها لو هى صنعت بناءً كما تصنع ثمارها وأزهارها لجاءت به فى موضعه على الرسم الذى تتخيله أنت لموضعه ، كأنك أُعطيت بالعلم سرّاً إظهار الجمال فى أشكاله كما أُعطيت هى بالقُدرة سرّاً تكوين الأشكال فى جمالها ...

ما أبدعَ ما تمزجُ أثيرها الساحرُ بين القريحة والمادة ، وما أدقَّ ما تصلُ بين الجمال والمنفعة ، وما أكمل ما تحققُ بين الخيلة والواقع ! إن هذه الخطوط التى رسمتها لتكون ميلادَ بيت جميل ، هى نفسها ميلادُ فنٍ بليغٍ يقيمُ لك بناءً فخماً من إعجاب محبك ؟

مصطفى صادق الرافعى

ديسمبر سنة ١٩٢٨

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلاناً عن فنه بشهادة الرافعى ؛ وحسبك بها من شهادة !

ولئن كان في هذين الإعلانين الكفاية لإثبات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية ، إن في الحادثة التالية شاهداً حقيقاً بالنظر :

عاد الأستاذ حافظ عامر من الحجاز ذات سنة في إجازته ، فأهدى إلى الرافعي سُبْحَة نادرة لمناسبة عودته ، زعم له أنها تساوي بضعة جنيهات .

وعرض الرافعي السبحة على وقال : « كم تساوي ؟ » ، قلت : « لا أدري ! » قال : « فهل لك أن تقومها في السوق ؟ » فذهبت بها - ولم أكن أعرف أنها مهداة إليه - فلم أجد لها شبيهاً في السوق ، ولكن تاجراً أنبأني أنها لا تساوي أكثر من جنيه !

وأنبأت الرافعي بما سمعت ، فما لبث أن تناول قلبه وكتب رسالة إلى صديقه يعتب عليه أن يغالي بقيمة الهدية إلى خمسة أمثالها !!

وعلمتُ بعدُ بما كتب الرافعي فتألمت لذلك ولم أكنم عليه رأيي ؛ فنظر إلى مدهوشاً وهو يقول : « أترأه خطأ أن أكتب إليه بهذا ... ؟ »

قلت : « نعم ! » فسكت هنيهة ثم قال : « وهل تراه يغضب لهذا ؟ » قلت : « أظن ! »

فعاد إلى سكوته وفي وجهه الأسف !

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد ، فيه عذْل ، وفيه عتاب ، وفيه

ورقة بجنيه يطلب إليه أن يشتري به سبحة مثلها إن وجد ... !

وقرأ الرافعي رسالة صديقه ؛ وكان حرياً أن يشتد به الأسف لجواب

صديقه ، لولا أن هذا الجنيه قد محا ما كان في نفسه ... فاستبقاه لنفسه ... !

في يوم الـخير

في الساعة الثانية بعد ظهر الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧ ، نهض الـرافعي عن مكتبه في المحكمة منطلقاً إلى داره ، يرافقه صديقه الأديب أمين حافظ شرف - وهو كان رفيق أؤبته كل يوم - وتحت إبطه عديد من الكتب والصحف والمجلات ، تعود ألايسير إلا ومعه مثلها ، وفي يمينه عصا لا يعتمد عليها ولكنه تعود ألا يمشي إلا بها .

واقترق الصديقان وبينهما ميعاد على اللقاء مساءً في مكان ما ، ليذهبا معا لمشاهدة فرقة راقصة هبطت المدينة منذ قريب . وتغذى الـرافعي وصلى الظهر ونام ، ثم نهض بعد ساعتين ، فصلى العصر وجلس إلى أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسط لهم ، على عادة تعودها ؛ ثم ذهب إلى عيادة ولده الدكتور محمد ، حيث لقي هناك أخاه الدكتور محمد النبوى ، وصهره الأستاذ مغازى البرقوقي ؛ فجلس يمزح ويضحك ويتندر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندر في يوم من الأيام ؛ ثم صلى المغرب والعشاء في العيادة ، وصحب أخاه إلى مأتم جار من العامة ليعزيا أهله . والمعروف عن الـرافعي أنه كان يكره حضور المآتم وتقديم التعازي كراهة ظاهرة ؛ وقلما كان يشاهد في مأتم ، حتى إنه لما توفيت زوج ابنة سامى ، لم يجلس في المآتم إلا لحظات ، ثم انفرد في خلوته يستوحى الحادثة مقالـه المعروف « عروس تزف إلى قبرها ! » وجاء المعزّون يلتمسون الـرافعي

فلم يحدوا إلا ولده وصهره ... (١).

أفكان الرافعى بحضور هذا المآتم فى يومه الأخير يريد أن يصل نسباً ويعقد آصرة بالعالم الثانى ، أم كان ذلك ميعاداً إلى لقاء قريب ... !

ثم ذهب الرافعى بعد التعزية إلى موعد صديقه ماشياً . واتخذاً طريقهما راجلين إلى حيث أرادا : فتفرجا ، وشاهدا ما شاهدا فى الحفلة الراقصة ، وأخذ الرافعى ما أخذ من وحي الراقصات لفنه وأدبه ، وأخذ صديقه ما أخذ
أفكان الرافعى يريد من هذه السهرة أن يصل ما انقطع من قصة (الجمال البائس) و (القلب المسكين) و (فى اللهب ولا تحترق) ... ؟

... وفى منتصف الساعة الثانية عشرة ، كان الرافعى فى طريقه إلى بيته ، بعد ما ودع صديقه فى منتصف الطريق ؛ فلما بلغ الدار ، خلع ثيابه ، وتناول عشاء خفيفاً من الخبز والبطارخ ؛ والبطارخ كان طعام الرافعى الذى يحبه ويؤثره على كل طعام فى المساء ؛ لأنه كان يؤمن بفائدته لأعصابه ؛ وكان يستورده من بور سعيد جملةً .

واسيقظ مع الفجر على عادته كل يوم ، فتوضأ وصلى ، وجلس فى مُصَلَّاه يسبح ويدعو ويتلو قرآن الفجر . وأحسن بعد لحظة حرقاً فى معدته ، فتناول دواء وعاد إلى مُصَلَّاه ؛ وصحبا ولده الدكتور محمد لموعده ، فشكا إليه ما يجد فى معدته ، وما كان إلا شيئاً مما يعتاده ويعتاده الناس كثيراً من حموضة فى المعدة ، فأعطاه ولده شيئاً من دواء وأشار عليه أن ينام ، ثم لبس محمد ثيابه ومضى ليدرك القطار الأول إلى القاهرة كعادته كل يوم ، ومضت ساعة ثم نهض الرافعى من

فراشه لا يحس ألماً ولا يشكو وجعا وما به علة : فأخذ طريقه إلى الحمام ،
فلما كان في البهو سمع أهل الدار سقطة عنيفة أحدثت صوتاً شديداً : فتهبوا
مدعورين ليجدوا الرافعي جسداً بلا روح !

قال الدكتور محمد : « ولما وجدت البرقية تنتظرني في محطة القاهرة وليس
فيها سبب ما يدعوني إليه ، تحيرت حيرة شديدة : بلى ، قد أيقنت أن شيئاً
حدث وأن كارثة وقعت ، ولكن لم يخطر في بالي قط أنه أبى . لقد تركته منذ
ساعتين سليماً معافى قوياً القلب أقوى ما يكون قلب رجل في سنه ... كل
المفاجآت المروعة قد خطرت في بالي إلا هذا الخاطر ، ولكن ... ولكن
الذي مات كان أبى ... ! »

يا صديقي ، لك العزاء ولي : أحسبت أن الرافعي سيموت في فراشه وهو قد
نذر أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينافح بها الشرك والضلال ويدعو إلى
الله « ويواصل حملة التطهير » (١) ... ؟ »

طبت نفساً يا مصطفى ! لكم كنت تحشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش
وثقل الأيام التي تعدّ من الحياة وما هي من الحياة ! فأى كرامة نلت ؟ وأى مجاز
جزت ؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد ؟ وهل كانت
إلا خنقة نفس نقلت من ملأ إلى ملأ أرحب في كنف الخلد وفي ظلال الجنة ؟
يرحمك الله يا صديقي ويرحمنا !

وُحِل جثمانه بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، إلى حيث رقد رقدة

(١) ما بين القوسين : نص عبارة الرافعي في رسالة بعث بها إلى صديقه
الأستاذ صاحب الرسالة قبل موته بأيام ، يحدد نهجه في العمل !

الأبد في جوار أبويه من مقبرة الرافعي بطنطا ، لم يشيعه إلا بضعة عشرات من زملائه في المحكمة ، أو من جيرانه في الدار !

وبلغ نعيه أقطار العرب وأدباء العربية : فسكت القارئ وتلفت السامع ، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكون ووحشة وانقباض .

وطالت فترة الصمت ، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون ، إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتموج ، وذكريات تنبعث محرقة لاذعة ، تذكر بما كان وتنبيه إلى ما ينبغي أن يكون ...

وهمس هامس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلا للدين وللعربية هيبات أن تجد بديلا منه أو ينقضي زمان من عمر التاريخ ! »

ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ، والخواطر المسابجة ، والذكريات والأمانى ...

وهتف هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون : « إن للعقيد حقا على اللغة ، وحقا على المسلمين ، لا يجزئ فيهما أن نقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرؤوس ، وتجاوبت النظرات ، واثالت الأفكار ، وتزاحمت الأمانى : ثم لم يلبث أن عاد الصمت وعم السكون !

ثم عاد القارئ يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحي اثنان يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت في سماء الندى غائمة ، وانعقدت على رؤوس السامرين عجاجة ، وضج المكان كسالف عهده ، واختلطت الأصوات فما يبين صوت من صوت ، واشتغل كل بما هو فيه ...

وصاح صائح في نبرة اليأس المحزون : « ويحكم يا بني يعرب ! لقد شغلتمكم

دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ! لقد كان هنا إنسان
منكم ، وإنه لأرفعكم صوتا ، وأبلغكم بيانا ، وأبعدكم غاية ومدى ؛ فهلا ذكره
منكم إنسان !

وبرقت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرؤوس ، وانبعث صوت
السامرين يحوقل ويسترجع في همس خافت ، وقال قائلهم : « يرحمه الله !
لقد كان ... ! »

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراجلين من أدبائها : يتهاوون من الذروة إلى بطن
الودي فردا فردا ، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت ،
لا تشيعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنية وأهله ، هو حسبهم من الطعام
والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العوض كل العوض من عائلهم
الذي طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذي ضمنته العربية لمن يموت من أدبائها وهو في ميدان الجهاد
يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، ويبذل نفسه لينشئ أدبا يسمو بضمير
الامة ، ويشرع لها طريقا تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء ، وكل ما يملكه أدباء العربية من
أساليب المواساة ، وكل ما يقدر عليه ناطق يبين ، وصديق يتحجب ، وحبیب

يشعر أن عليه حقاً لمن يموت من أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ، وتراث ليس فيه غناء ، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ ، وخلود لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يخفف دمة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلّوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها الخطباء المصاقع ؛ خلّوا عنكم عناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها ؛ سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمّل من جهد التضحية ومشقة الحرمان ؛ وسيرحمه ثانية بما لقي من العقوق وكان برّاً ، وبما لقي من الغدر وكان وفياً ، وبما قوبل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل ؛ وسيرحمه بدموع اليتامى ، وبأنات الأيامي ، وبدعوات كثير من أهل الإيمان وفوّا له ما وسعهم الوفاء !

مضى عام وأوشك عام ثانٍ منذ مات الراحل^(١) ، فهل سأل أحد : كم خلفكم ترك ؟ .

سأقول وإن لم يطلبها أحدٌ إلى ...

أما المال فلا سبد ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد ، وأما العيال ... فواحزناً لو كان يجدى الحزن !

هذا « سامي » كبيرهم في بعثة الجامعة بأمريكا ما يزال بينه وبين الغاية خطوة ؛

(١) كتب هذا الفصل في الذكرى الأولى لوفاته ، في ١٠ مايو سنة ١٩٣٨ .

وهذه « سعدية » الصغيرة تلشع في الرأ وتضم شفيتها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد » ! الله لهذا الشاب العائل ! لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ، فكأنما كان هو في تلك الغربة وديعةً إلى أجل ، وذخيرةً إلى ميعاد ؛ وعاجلته تبعات الحياة ولم يزل في باكر الشباب !

والحكومة ... ؟ خلى عنك يا وزارة الحقانية ، خلى عنك يا وزارة المعارف ، خلّ عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعى في خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخسين ؛ فأى مكافأة نالها وأى جزاء ؟ بضعة عشر جنيهاً في كل شهر تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث ... !

إنه الرافعى ، إنه الرجل الذى كان اسمه فى مقدمة الأسماء المصرية التى تؤكد زعامة مصر للأمم العربية ، وترفع اسمها ، وتبنى مجدها الممتاز ، وتسن طرائقها التى يحتذىها الأدباء فى العالم العربى . إنه هو ... ولكنها هى مصر !

وكتب رئيس الرافعى فى وزارة العدل كتاباً غداة منعاد إلى وزارة المالية ؛ يصف لها من حال الرافعى ومن خبره ، ويقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث فى (معاش) الرافعى لأولاده ... ولكن وزير المالية يأبى (١) .. ولكن الله أكرم ... !

« يرحمه الله ! يرحمه الله ! » .

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

لقد مضى عام وأوشك عام . فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعى ؟

(١) كان وزير المالية لذلك العهد هو مكرم عبيد .

وهل ذكرت الأمة والحكومة ما عليهما من واجب الوفاء للرافعي ؟
لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتأبين الرافعي ، وجاء الميعاد وتختلف
المدعو والداعى ؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد ؛ ومضى عام ، وعلى مكتب كل
أديب دعوة لتأبين الرافعي ، وفى ذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه :
« يرحمه الله : يرحمه الله ! »

وعند دكاكين الوراقين أسئلة عن كتب الرافعي ، ولكن السوق ليس فيه
كتاب من كتب الرافعي (١) ؛ وقال قائل : « أعيّدوا طبع الديوان ، أعيّدوا طبع
إعجاز القرآن ، أعيّدوا ... أعيّدوا ... »

وقال الطابع والناشر والوراق : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »
وعلى مكتب الرافعي كتب لم تطبع ، وقصاصات لم ترتب ، وثمره عقل خلّاق
كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكرا جديدا .
وقلنا : « يا وزارة المعارف ، هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها النعت
والفيران فيضيع على العربية كنز ما لها منه عوض ! ولكن وزارة المعارف فى
أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تحيب ، إلا همسا فى أمثال أنفاس النائم تردّد قول
الناس : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وفى الأمة مع ذلك أدباء ، وفى الأمة كتاب وشعراء ، وفى الأمة ناشئة غافّة
ما تزال ترجو الخلود فى الأدب ...

وفى الأمة عقول ناضجة فى أجسام مهزولة من الفقر والجوع ؛ وفى الأمة

(١) لم يكن فى السوق من كتب الرافعي إلا « وحى القلم » فى مكتبة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، التى طبعتها قبل نعى مؤلفه بأشهر ، ثم تراخمت مكتبات القاهرة على
نشر مخطوطاته ، وإعادة طبع ما نفذ من مؤلفاته . وتكاد كتبه جميعاً أن تكون اليوم
متداولة فى أيدي الوراقين بمختلف العواصم العربية .

رءوس ممتلئة على أناسٍ تضطرب كل مضطرب للبحث عن القوت .
وفي الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعاً ورياً ؛ وفي الأمة
قلوب خاوية في أناسٍ تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير ...
وفي الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً : « لماذا ... لماذا لانجد في الأمة
العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »
يرحمك الله يا مصطفى ... بل يرحمك الله أيتها الأمة !

الخاتمة

مات الرافعي فانطوت صفحة من تاريخ الأدب في مصر ، وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهاج ، ولكن الرافعي الذي مات وغيبته الصفائح قد خلف وراءه تراثا من الذكريات والآثار الفنية ستتعاقب أجيال قبل أن يفرغ الأدباء من دراستها والحديث عنها : وإنها لذكريات تثير في كل نفس ما تثير من عوامل السكره أو المحبة ، وإنها لآثار ...

أما هذه الذكريات ، على ما تبعث في نفوس من معاني الغضب أو معاني الرضا ، فقد أثبت منها في هذه الفصول ما قدرت عليه : وليس يعني ما تترك من أثر في نفس قارئها ، إذ كانت غايتي التي أحرص عليها هي جلاء هذا التاريخ لقراء العربية كما أجد صورته في نفسي وأثره في وجداني ، متجردا ما استطعت من غلبة الهوى وسلطان العاطفة وتحكم الرأي : لأضع بين يدي كل قارئ - اليوم أو غدا - المادة التي تعينه على الدرس والحكم والموازنة .

وأما آثاره الأدبية فقد فصلت الحديث عن بعضها في بعض ما سبق من هذه الفصول ، وإلى القارئ جملتها مرتبةً على تاريخ إنشائها :

١ - ديوان الرافعي : ثلاثة أجزاء ، صدرت بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .
وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ونهجه ، وهي مذيلة بشرح يُنسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي وهو من إنشاء المترجم نفسه .

٢ - ديوان النظرات : أنشأه بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ .

- ٣ - ملكة الإنشاء : كتاب مدرسى يحتوى على نماذج أدبية من إنشائه ، أعد أكثر موضوعاته ونهياً لإصداره فى سنة ١٩٠٧ ، ونشر منه بعض نماذج فى ديوان النظرات ، ثم صرفته شئون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله ، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق إلا النماذج المنشورة منه فى ديوان النظرات .
- ٤ - تاريخ آداب العرب : صدر فى سنة ١٩١١ بسبب من إنشاء الجامعة المصرية ، ويراه أكثر الأدباء كتاب الرافعى الذى لا يعرفونه إلا به .
- ٥ - إعجاز القرآن : وهو الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ، طبع ثلاث مرات ، أخرها فى سنة ١٩٢٦ على نفقة المغفور له الملك فؤاد (١)
- ٦ - حديث القمر : أول ما أصدر الرافعى فى أدب الإنشاء ، وهو أسلوب رمزى فى الحب تغلب عليه الصنعة ، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان فى سنة ١٩١٢ حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأدبية (م . ي) فكان بينهما ما كان بما أجملت الحديث عنه فى بعض الفصول من قصة حبه .
- ٧ - المساكين : فصول فى بعض المعانى الإنسانية ألهمه إياه بعض ما كان فى مصر من أثر الحرب العامة ، أنشأه فى سنة ١٩١٧
- ٨ - نشيد سعد باشا زغلول : كتبت صغير عن نشيده : « اسلمى يا مصر ! » الذى أهداه إلى المرحوم سعد زغلول فى سنة ١٩٢٣ ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ؛ وأكثر ما فى الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعى أو إملائه .
- ٩ - النشيد الوطنى المصرى : « إلى العلا . . . » ضبط ألحانه الموسيقية ، الموسيقىار منصور عوض .

(١) طبع بعد ذلك عدة طبعات فى القاهرة .

١٠ — رسائل الأحزان : كتاب أنشأه في سنة ١٩٢٤ يتحدث فيه عن شيء ما كان بينه وبين فلانة ، على شكل رسائل يزعم أنها من صديق يديته ذات صدره
١١ — السحاب الأحمر : هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة ، أو الطور الثاني من أطواره بعد القطيعة ، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر

١٢ — المعركة تحت راية القرآن : هو كتاب « الجديد والقديم » وفيه قصة ما كان بينه وبين أندكتور طه حسين بمناسبة كتابه « في الشعر الجاهلي » ، صدر في سنة ١٩٢٦

١٣ — على السفود : قصة الرافعي والعقاد ، نشرته مجلة العصور في عهد منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر ، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة : « إمام من أئمة الأدب العربي » .

١٤ — أوراق الورد : الجزء الأخير من قصة حبه ، يقوم على رسائل في فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالاً من حاله فيما كان بينه وبين فلانة ، وما كان بينه وبين صديقه الأولى صاحبة حديث القمر .

وتعتبر كتبه الأربعة : حديث القمر ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد - وحدةً يتم بعضها بعضاً ، لأنها جميعاً تنبع من معين واحد وترمي إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها .

١٥ — رسالة الحج : أنشأه في صيف سنة ١٩٣٥ ، استجابة لرأي صديقه المرحوم حافظ عامر وإليه ينسب

١٦ — وحي القلم : مجموع مقالاته في الرسالة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ إلى مقالات أخرى ، طبع منه جزءان في حياته ، ثم أعيد طبعه مع الجزء الثالث أكثر من مرة بعد موته .

* * *

وله عدا ذلك كتب لم تطبع ، أهمها ما يأتي :

١ - الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب : تام التأليف والتصنيف تقريبا (١)

٢ - أسرار الإعجاز : فيه فصول تامة التأليف ، وفصول أخرى أجمل فكرتها

في كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها ، وكان الرافعي يعتد بهذا الكتاب

اعتدادا كبيرا ، وهو جدير بذلك حقًا ؛ وقد أطلعني - رحمه الله - على فصول

منه ، كما تحدث إلى عن نهجه في تأليفه ، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتي :

(أ) - يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية ، فيردها إلى أصول

غير الأصول التي اصطلح عليها علماءها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة

وأصولا أخرى

(ب) - ويتحدث في الفصل الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه ،

مسترشدا في ذلك بما قدم في الفصل السابق من قواعد .

(ج) - ويتناول في الفصل الأخير من الكتاب ، آيات من القرآن على

أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة ؛ ويعتبر

هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه ؛ وقد أتم الكتابة - إلى آخر

يوم كنت معه فيه - عن بضع وثمانين آية على هذا النسق ؛ وقد نشر منها في

الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج ، وجعلها في بعض أقاصيصه .

٣ - ديوان أغاني الشعب : وهو ديوان من الشعر جعل فيه لكل جماعة

أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر

عن أمانها ؛ وقد أنجز الرافعي طائفة كبيرة من هذه الأغاني نشر بعضها

وما يزال سائرهما بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر . وأكثر الأغاني في هذا الديوان مانوس اللفظ رشيق المعنى مما يجعل وقعته في النفس ويخف جرسه على الأذن .

٤ - الجزء الثالث من وحى القلم . وفيه سائر المقالات التي كتبها ، سواء منها ما نشر في الرسالة وغيرها من المجلات والصحف ، وما لم ينشر من قبل (١) .

٥ - الجزء الأخير من الديوان : وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩٣٧ ، بما فيه من شعر الحب ، والمدائح الملكية التي أنشأها للمغفور له الملك فؤاد .

هذا إلى شئت من المقالات والرسائل الأدبية أنشأها لمناسباتها ومنها كثير من مقدمات الكتب المطبوعة ، بعضها منسوب إليه وبعضها منحول بجهول النسب ! أما المطبوع من هذه الكتب فقد أعيد طبع أكثره ، وأما غير المطبوع فما يزال ورقات وقصاصات على مكتبه ، وإنني لأخشى أن يمضي وقت طويل قبل أن تنبّه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التي خلفها الراحل ورقات مخطوطة يكاد يبلّغها الإهمال والنسيان !

ولدى الدكتور محمد الراجحي مشروع لإحياء تراث أبيه ، لست أدري أيجد الوسائل لتنفيذه أم تحول دونه الحوائل وتمنع منه الضرورات ؟ على أني أكاد أؤمن بأن هذه ليست هي الوسيلة للمحافظة على تراث الراجحي : فليس من الوفاء له وحسن الرعاية لأولاده أن نحمل عليهم هذا العبء وما انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انتفع كل أديب وكل مسلم وكل عربي في مصر وغيرها من بلاد العربية .

(١) طبع سنة ١٩٤٢ .

لقد كان الرافعى صاحب دعوة فى العربية والإسلام يدعو إليها ؛ فحقه على العربية ، وحق العربية على أدبائها ، وحق الإسلام على أهله ، أن نجدد دعوته ، وأن نبقي ذكره ، وأن ننشر رسالته ، وأن نُعنى بآثاره ؛ فإذا نحن قد وفقنا إلى كل أولئك فقد وقفنا له بعض الوفاء !

والآن فلننظر لنرى مقدار ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوة من النجاح ؛ وأمامنا إلى ذلك وسيلتان :

أولاهما : أن نعرف مدى تأثير الناشئة من المتأدين اليوم بأدب الرافعى ومذهبه ؛ والثانية : هى البحث عن آثار الرافعى ومنشآته الأدبية وتراثه الفكرى لنحرص عليه من الضياع .

فأما الأولى : فإن بين الرافعى والأكثرين من ناشئة المتأدين فى هذا الجيل حجابا كثيفا يمنعهم أن ينفذوا إليه أو يتأثروا به ، لعوامل عدة :

فالرافعى أديب الخاصة ، كان ينشئ إنشاءه فى أى فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلوبها وتعرز مكانا بين اللغات ؛ وشبابنا أصلحهم الله لا يعرفون الأدب إلا ملهاةً وتسلية : لا ينشدونه للذة العقلية وسمو النفس ، ولكن ينشدونه لمقاومة الملل وإزجاء الفراغ ؛ فهذا سبب .

والثانى أن الرافعى - رحمه الله - لم يكن يكتب الكتابة الصحافية التى ينشئها أكثر كتابنا ليمتلقوا غرائز القراء بالعبارة المتهاففة والقول المكشوف . وعند المتأدين من ناشئة اليوم أن قيمة الأدب هى بمقدار انطباقه على أهواء النفس وارتياحها إليه وقدرتها على أن تسيغه بلا تكلف ولا عناء !

وثمة سبب آخر ، هو طغيان السياسة على الأدب فى هذا الجيل طغيانا أقحم

على الأدب ما ليس فيه وعلى الأدباء من ليس منهم ؛ بحيث يتخرج أكثر الأدباء أن يقولوا قالة أو رأياً أدبياً في أديب أو شاعر إلا متأثرين بما كان له من مذهب سياسى أو رأى فى السياسة المصرية .

والرافعى رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ، ولم يكن يعتبر له مذهباً فى النقد إلا المذهب الأدبى الذى لزمه منذ نشأ فى الأدب ، فمن ذلك كانت خصوماته الأدبية تنتهى نهايتها إلى اتهامه فى وطنيته وفى مذهبه السياسى : وراحا أكثر خصومه من كتاب الشعب فرصة سانحة لينالوا منه عند القراء ، فانتهزوها ، وبالغوا فى اتهامه ، وأغرقوا فى الطعن على وطنيته وتأولوا مذهبه ، حتى صار عند بعض القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص فى عقيدته . وما تزال السياسة عند أكثر شبابنا ذات سلطان ، وما زال الأدب يجرى فى غبار السياسة وهو أعلى مكاناً وأرفع منزلة ...

ولقد يضاف إلى كل أولئك سبب أخير ، هو أن أكثر ما كان يتناوله الرافعى من شئون الأدب هو ما يتصل بحقيقة الإسلام أو معنى من معانيه . على أن الكثرة من ناشئة المتأدبين اليوم يريدون أن يفرقوا بين الأدب والدين ، فلا يرون ما ينشأ فى هذا الغرض لونا من ألوان الأدب أو مذهباً من مذاهبه .

تلك جملة الأسباب ، أو مجمل الأسباب ، التى باعدت بين أدب الرافعى وبين الجمهور من ناشئة المتأدبين ، مابداً من النظر فيها والبحث عن علاجها حين نهم بأن نجدد دعوة الرافعى وننشر رسالته إن كان ثمة يقين بأن أدب الرافعى حقيق بالخلود : وأن اليقين به ليعمر قلب كل أديب يؤمن بأن الدين واللغة هما أول المقومات لقوميتنا العربية المسلمة .

... ذلك شيء... أما آثار الرافعي فإن كل مافي يد العربية منها هو صدى
كلمات وعنوانات كتب ، أما حقيقةها ومعناها فقد انفرط الجيل الذي درسها
أو كاد فلم يبق للجيل الناشئ منها غير عنوان ؛ فليسأل كل أديب نفسه : ماذا
قرأ من كتب الرافعي وماذا حصل وماذا أفاد ؟

إنها لمكتبة حافلة جديرة بأن تنشئ مدرسة جامعة لمن يريد أن يتزود
من العربية زاداً مريئاً وغذاء شهياً ، ليكون أديباً له لسان وله بيان وله منزلته
الأدبية في غد... .

إنى لأكاد أوقن أن تسعين من كل مائة من القراء لا يعرفون من هذه الكتب
إلا أسماءها ؛ وإن منهم لمن يتوهم أن من حقه أن يتحدث عن الأدب ويؤرخ
لأدباء الجيل .

وما عيب على من لم يقرأها أنه لم يقرأها ؛ ولكن العيب كل العيب علينا
عامة نحن المشتغلين بالأدب أن يكون كل وفائنا لمن يموت من أدباء العربية أن
نقول : كان وكان ويرحمه الله .

لقد أدى الرجل واجبه ما استطاع وبقي علينا فرض واجب الوفاء .

* * *

لقد أورثني الرافعي بعض تبعاته ، وإنى لأحس بثقلها على عاتقي أكثر مما
أحس بحاجتي إلى التحدث عن ماضيه .

لقد عاش الرافعي حياته يجاهد لأمته مالم يجاهده أديب في العربية منذ قرون ،
وقضى حياته يلقي من العقوق ونكران الجيل مالم يلقي أديب في العربية منذ كانت
العربية ، ومات فما كان حظه منا في أخراة أحسن منه في دنياه . فهل لي أن أومل

أن تتنبه الأمة والحكومة إلى ما ينبغى أن يكون ؛ وفاءً لهذا الراحل الكريم ؟
ليس يكفي أن يكون كل وفائنا للرافعى ؛ حفلة لتأبينه وبضع كلمات لثرائه ،
ولكن الوفاء حق الوفاء أن نعمل على تخليد ذكره ؛ بتخليد أديبه ، وتجديد
دعوته ، وإبقاء ذكره ، ونشر رسالته ؛ فليكن هذا الذى أنشأته عن « حياة
الرافعى » أولاً له ما بعده ، لنفكر فى الوسائل النافعة التى تجدى على الأدب
والعربية أكثر مما تجدى رسائل التأبين وكلمات الترحم والاسترجاع !

أما هو فقد انطوى تاريخه على هذه الأرض ، فلن يجدى عليه شيئاً ما نفعل
وما نقول ؛ ولكن ما نفعله وما نفكر فيه إنما هو لخيرنا وجدواه علينا ، فلنفكر
فى أنفسنا وفى ذواتنا وفيما يعود علينا وعلى العربية من تجديد ذكرى الرافعى ،
إن كان يعز علينا أن نعمل أو أن نفكر إلا فيما تكون منفعته إلينا ولنا
من ثمراته نصيب !

أما بعد ، فهذه « حياة الرافعى » مبسوطه لمن يريد أن يدرس ؛ وأنا لم أجهد
جهدى فى جمعها وترتيبها لكى أقول ويقول الناس : كان وكان من أمره ؛
وحسب ؛ فما فى ذلك كبير فائدة ؛ ولكنى أنشأت هذه الفصول لتكون تمهيدا
لدراسة الرافعى فى أديبه وفنه ومذهبه ؛ فما أسميها كتاباً ؛ ولكنها مقدمة تتلوها
فصولٌ وكتبٌ إن شاء الله ؛ وهذا كتاب « حياة الرافعى » اليوم فى سوق
الأدب ؛ فما يكون عنوان الكتاب التالى عن الرافعى ومتى يطالع القراء ؟

أترانى أحسن الظن بأهل العربية فى هذا التساؤل ؟

لقد مات الرافعى ؛ ولكن اسمه سيبقى مابقيت العربية ؛ وليس بعيداً ذلك

اليوم الذى يتداعى فيه أدباء العربية من كافة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعى
موسما من مواسم الأدب وحلبة يتسابق فيها أهل البيان .

ألا إنه إذا كان أكثر الأدباء المعاصرين قد عققوا الرافعى وأغفلوا شأنه
وتناسوه ، فإن جيلا جديدا يوشك أن ييسط سلطانه زاحفا متقحما لا يثبت
أمامه شيء ؛ ويومئذ ... ويومئذ تذهب العداوات بأصحابها ؛ وتنطفئ هذه
الفقاعات العائمة ؛ ويخبو الرماد ؛ ويخلص وجه الحق للحق !
... ويومئذ ... ويومئذ تعلو كلمة الله !

فهرست

۱ - الموضوعات

صفحة	صفحة
۸۸ اسلمى يامصر	۳ فاتحة الكتاب : محمود محمد شاكر
۹۰ نشيد الاستقلال	۱۱ تمهيد
۹۱ البحر المنفجر	۲۱ صورته
۹۳ الرافعى العاشق	۲۳ نسبه ومولده
۹۶ الحب عند الرافعى	۲۸ عليه وثقافته
۹۹ هو وهى	۳۴ فى الوظيفة
۱۰۷ شعر وفلسفة، وحب وكبرياء	۴۳ شاعر الحسن
۱۱۴ هى وهو	۵۲ شعراء عصره
۱۲۰ تعقيب	۵۹ بين أهله
۱۲۶ رسائل الأحزان	۶۴ من الشعر إلى الكتابة
۱۳۲ السحاب الأحمر	۶۴ ملكة الإنشاء
۱۴۰ أوراق الورد	۶۵ إنشاء الجامعة المصرية
۱۴۷ فى النقد	۶۷ تاريخ آداب العرب
۱۵۱ الرافعى وطه حسين	۶۹ إعجاز القرآن
۱۶۲ تحت راية القرآن	۷۴ حديث القمر
۱۶۵ كيلة ودمنة	۷۵ شيوخه فى الأدب
۱۶۸ شاعر الملك	۷۷ فى سنوات الحرب
۱۷۱ الرافعى والإبراشى	۷۹ كتاب المساكين
۱۷۵ الرافعى وعبد الله عفيفى	۸۳ أغانى الشعب
۱۸۳ الرافعى والعقاد	۸۵ النشيد القومى

صفحة	صفحة
٢٥١ قصص الرافعي	١٨٩ على السفود
٢٥٦ عود على بدء	١٩٥ وحى الأربعين
٣٠١ نقلة اجتماعية	٢٠٨ قرة جمام
٣٠٢ من رسائل القراء	٣١٢ القتل أنفى للقتل
٣١٧ مقالات منحولة	٢١٤ أديب صغير
٣٢٥ من شئونه الاجتماعية	٢١٥ البلاغة النبوية
٣٤١ فى يومه الأخير	٢٢٠ كيف كان يكتب ؟
٣٤٩ الخاتمة	٢٢٩ عمله فى الرسالة
	٢٣٣ مقالات وحى القلم

ب - الاعلام

١٦٩، ١٧٩، ١٩٣، ٢٠٦	إبراهيم إبراهيم علي ٢٠٨ - ٣١٠
أحمد الكاشف ٥٣	إبراهيم الرافعي ٢٧٨
أحمد لطفي السيد ٦٩	إبراهيم عبد القادر المازني ٢١٨، ٨٦
أحمد محرم ٥٣	إبراهيم اليازجي ٣٢٣، ٧٦، ٤٨، ٤٦
الأخطل ١٦٨	أبو العتاهية ١٦٨
أرسطو ٢٥٩	أبو الفتح الفقي ٢٩
أسعد حسني ٢٣١	أبو محمد سليمان الأعمش ٢٧٢
إسماعيل صبري ١٠٢، ٥٦، ٥٣، ٤٦	أبو معاوية الضرير ٢٧٢
إسماعيل صدقي ٢٤٦، ٢٠٠	أبو النصر الشاعر ١٦٨
إسماعيل مظهر ١٨٩، ١٧٧، ١٧٤	أبو نواس ١٦٨
١٩١، ٢٠٣، ٢١٧، ٣٥١	أبو هلال العسكري ٢١٠
الأصمعي ٢١٩	أبو وداعة ٢٥٥
أكثم بن صيفي ٢١٣	ابن الرومي ٩٨
إلياس عجمان ٤٧	ابن المقفع ١٦٥
إمام العبد ٥٣	أحمد أمين ٢١٧
أمين الحداد ٥٣	أحمد بن أيمن ٢٥٦
أمين حافظ شرف ٣٤٠، ٢٤٤، ٢٣٦	أحمد حسن الزيات ١٦٠، ٩٤، ١٥
أمين الرافعي ١٧٢، ٨٦	٢٠٧، ٢١٧، ٢٢٤، ٣٢١،
أمين المعلوف ٢١٧	٣٤٢
البحثري ١٨٠، ١٦٨، ٩٨	أحمد الرافعي ١٣٨، ١٣٤
البستاني ٤٦	أحمد زكي باشا ٣١٧، ٨٢
بشار بن برد ١٨٠، ٩٨	أحمد زيور ١٥٩
تودري ٤٧	أحمد شوقي ٨٥، ٥٦، ٥٣، ٤٦

خليل مطران ٥٣، ٤٦	توفيق البكري ١٤٩، ٥٣
داود عمون ٥٣	توفيق الحكيم ٢٩١، ١٥
دياب العراقي ٢٣٣	توفيق دياب ٢٠٦
رشيد رضا ٣٢٣	جعفر ولي ٨٥
زكي الابراشي ١٦٩، ١٨٣، ٢٢٩،	جوته ٨٢
٢٤٧، ٣٣٠	جورج ابراهيم حنا ٤٢، ٤٦، ٤٨،
زكي مبارك ١٢٤، ١٤٩، ١٥٧،	٦١، ١١٢، ١٢٢، ٣٢٠
٢٨٥	جورج زيدان ٤٦، ٦٧
رمسيس صوراتي ٢٣٨	الجاحظ ٧٥، ٢٢٣
زهير بن أبي سلمى ١٦٨	حسن بدوي الفطاطري ٢٦
سعد زغول ٨٨، ١٥٤، ١٥٦،	الحسن البصري ٩٣، ٢٧٠
١٥٩، ١٦٣، ١٨٦، ١٩٠،	حسن القاياتي ١٦، ٢١٢
٣٥٠	حسن مظهر ٢٨٣، ٢٩٠
سعدية ٣٤٦	حسين نصيف ٣٣١
سعيد الرافعي ٢٥	حسين مخلوف ١٩٦، ٢٣٤، ٢٩٩،
سعيد الرافعي الصغير ٢٤١	٣٣١
سعيد بن المسيب ٩٣، ٢٥١، ٢٥٨،	حسام الدين القدسي ٢١٠
٢٨٠، ٢٧٠	حسين الهراوي ١٣٧
سلامة موسى ٢٣، ١٧٩،	حسين والي ٢١٥
سلامة المغنية ٢٦٨	حفي ناصف ٤٠، ٥٣
سليم سر كيس ٤٦	حافظ ابراهيم ٤٤، ٥٣، ٨٥، ١٦٩،
سامي الرافعي ٣، ٦٦، ٢٤٠، ٢٧٥،	٢١٤، ٢٨٦
٣٣٥، ٣٤٠، ٣٤٥	حافظ عامر ٢٨٨، ٣٢٠، ٣٢١،
سيف الدولة ١٦٨	٣٣٩، ٣٥١
السيد ابراهيم العراقي ٥٤	الحاكم بأمر الله ٢٧٩

عبد العزيز الأزهرى ٢١٣	السيد البدوى ٢٥
عبد الفتاح المرقى ٣٢٦	السيد زيادة ٢٨٥
عبد القادر حمزة ٢١٧	السيد قطب ٢١٩
عبد القادر الرافعى ٢٥	السيد نصير ٣٣٥
عبد القادر المغربى ٢١٥	شخاشيرى ٢١٧
عبد الكرىم سلمان ٥٦	شكسبير ٨٢
عبد الله عفيفى ٥٣ ، ٩٨ ، ١٤٩ ،	شكيب أرسلان ٥٣ ، ٦٩ ، ١٥٥ ،
١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٩ ، ٢٤٧	٣٣٧
عبد الله عمار ٢٣٦ ، ٢٤٤	شمعون ٢٧٤
عبد الله باشا فكرى ٣٢٧	الإمام الشافعى ٢٦
عبد المحسن الكاظمى ٣٥ ، ٤٥ ، ٥١ ،	صروف ٢١٧ ، ٤٦
٢٧٤ ، ٥٦	صفر على ٨٩
عبد المعطى المسيرى ١٥٢	صاندو ٣٣٤ ، ٣٣٥
عبد الوهاب عزام ٢١٧	طه حسين ٥٢ ، ٦٨ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ،
الخديو عباس ٢٥ ، ١٥٩	١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٨
عباس الجمل ١٩٦	٢٥٨ ، ٣٥١
عباس فضلى ١٥٥	الشاعر عبد الحلیم المصرى ١٦٩
عباس محمود العقاد ٥٢ ، ٨٦ ، ١٤٩ ،	المصارع عبد الحلیم المصرى ٣٣٥
١٦٧ ، ١٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣٥١	عبد الحميد البنان ١٥٩
عدلى يكن ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٣	عبد الحميد المحلاوى ٣٠٠
العزبى ٥٣	عبد الرحمن البرقوقى ٥٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤
عصفورة ٣٥ ، ٩٧	عبد الرحمن الرافعى ٢٣٥ ، ٢٧٧
عطاء بن أبى رباح ٢٦٧ ، ٢٧٠	عبد الرحمن صدقى ٨٦
عفيفة السيد ٣٣١	عبد الرحمن القس ٢٦٧
على بن أبى طالب ٣٣	عبد الرازق الرافعى ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٣٢

محمد إسعاف النشاشيبي ٢١٣	الشيخ علي الجناحي ١٣٤ ، ٧٩ ، ١٣٨
محمد البحر اوى ٢٤	١٣٨
محمد بخيت ٢٤	علي الليثي ١٦٨
محمد توفيق نسيم ٢٦٧	علي محمود طه ٢١٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٧
محمد حسين هيكل ١٥٣	علي ماهر ١٥٤
محمد الرافعي ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٦١ ، ١٧١ ،	عمر بن الخطاب ٢٨ ، ١٧٣ ، ٢٣٣
٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٣٠٠ ،	عمر بن عبد الله بن عمر ٢٤
٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣	عمرو بن العاص ٢٨
محمد سعيد الرافعي ٤٧ ، ٢٥٩	الإمام الغزالي ٩٣
محمد الطاهر الرافعي ٢٤	الملك فؤاد ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ١٦٨ ، ٢١٤ ،
محمد عبده ٢٥ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٦٠ ، ١٣٤ ،	٢٤٧ ، ٣٣٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣
١٣٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥	فؤاد صروف ١٢٢ ، ١٨٧ ، ٢١٧
محمد عبد الواحد خلاف ٢٤٣	فرح أنطون ٧٦
الدكتور محمد فؤاد ٢٩٩	فكتور هيجو ٧٦ ، ٨٢
محمد كامل الرافعي ٢٧ ، ٨٣ ، ٣١٩ ،	فلانة ٩٩ ، ١٤٦ ، ١٦٩ ، ٢١٧ ، ٢٤٦
٣٣٢ ، ٣٤٩	٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ،
محمد محب ٣٩ ، ٦٨	٣٣٢ ، ٣٥١
محمد النبوي الرافعي ٣٤٠	فليكس فارس ٢٥٧ ، ٣٣٣
محمد النجفي ٥٤	فارس نمر ٩٢ ، ٢١٤
محمد نجيب ١٦٨ ، ١٧١	كامل محمود حبيب ٢٨٥ ، ٢٩٢
محمد الهراوى ٨٥	كريمان هانم ٣٣٥
محمد هلال إبراهيم ٥٣	المبرد ٦٩
محمود أبو رية ٣٢٤	المتنبى ٩٨ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٨٠
محمود أبو الوفا ٢٠٦ ، ٢٣٢	المتوكل ١٦٨
محمود الدينارى ٣٢٧ ، ٣٢٨	محمد الأحمدى الظواهري ٣٢٨

منصور عوض ٨٨ ، ٣٥٠	محمود الرافعي ٢٧
منصور فهمي ١٣٠	محمود سامي البارودي ٣ ، ٤٤ ، ٥١
مهدى خليل ٢٨ ، ٢٩	٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦
مهلهل بن ربيعة ٩٨	محمود عبد الرازق الرافعي ٣٠٠
ماري قدسي ٩١ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢	محمود محمد شاكر ١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧
مالك بن دينار ٢٧٠	٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١
نسيم الشاعر ٥٣	محمود واصف ٥٣
نسيم يارد ٤٧	مصطفى درويش ٩١
النعمان بن المنذر ١٦٨	مصطفى صادق الرافعي الصغير ٢٤١
نقولا رزق الله ٥٣	مصطفى كمال ١٦٧ ، ٢٧٩
الناطقة الذبياني ١٦٨	مصطفى كامل ٥١
هرم بن سنان ١٦٨	مصطفى لطفي المنفلوطي ٥٣ ، ١٤٩
الوليد بن عبد الملك ٢٥٥	مصطفى الماحي ٢١٨
وهيبة ٦٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١	مغازي البرقوقي ٣٤٠
يزيد بن عبد الملك ٢٦٨	مكرم عبيد ٣٤٦

ج - الصحف والمجلات

سر كيس ٤٦	الأخبار ٨٦
السياسة الأسبوعية ١٤٩ ، ١٥١ ،	الأسبوع ٢٤٢
١٥٨ ، ١٥٣	الأهرام ٢٨١ ، ٢٤٨
الضياء : لليازجي ٧٦ ، ٤٩ ، ٤٦	البلاغ ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ،
العصور ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ ،	٢١٧ ، ٢١٢
٣٥١	البيان : للبرقوقي ٣٢٣ ، ٥٧
كوكب الشرق ١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،	البيان : لليازجي ٤٦ ، ٧٦ ، ١٤٩ ،
٢١٢ ، ٢٠٦	٣٢٣
اللطائف المصورة ٢٨٣ ، ٢٩٠ ،	الثريا ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٨٧ ،
المؤيد ٦٩ ، ٣١٥	١٤٨
المضمار ٣٣٦	الثقافة ٣٢١
المقتطف ٤٦ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٧٩ ،	الجريدة ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٥٢ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ،	الجهاد ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،
٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨٦ ، ٣٢٢ ،	الجامعة ٥٥
المقطم ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٢٧٨ ،	الرسالة ١٦٠ ، ١٧١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،
المكشوف ١٢٢	٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ،
المنبر ١٤٩	٢٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥١
الهلال ٥٩ ، ٢٢٩	الزهراء ٤٦ ، ١٤٩

د - الكتب

ديوان النظرات ٥٠ ، ٦٤ ، ٨٤ ،

١٦٩ ، ٢٤١ ، ٣٤٩

رسائل الأحران ١١ ، ٦٣ ، ٩٩ ،

١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،

١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ٣٥١

السحاب الأحمر ٦٣ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ،

٣٥١

شرح ديوان المتنبي ٣٢٤

في الشعر الجاهلي ٦٨ ، ١٥٥ ، ١٦١ ،

١٦٤ ، ٣٥١

الشوقيات ٥٦

صحيح البخاري ٢١٥

عقلاء المجانين ٢٩٩

على السفود ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ،

٣٥١

الفاروق - عمر بن الخطاب ٢٣٣

القاموس المحيط ٢٢٥

القصص المدرسية ٢٠٩

في القهوة والأدب ١٥٢

قول معروف ٢٠٨

كليلة ودمنة ١٦٥ ، ٢٧٩

المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء

١٧٩

في الأدب الجاهلي ٦٨

أسرار الإعجاز ٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،

٣٥٢ ، ٣١٦

الإسلام الصحيح ٢١٣

إعجاز القرآن ٦٩ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ١٧١ ،

١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ، ٣٢٩ ،

٣٥٠ ، ٣٤٧

الأغاني ٧٥ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧

أغاني الشعب ٨٣ ، ٣٥٢

أوراق الورد ٦٣ ، ٧٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣١ ،

١٤٠ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٣٥١

تاريخ آداب العرب ٦٧ ، ٧٤ ، ١٤٣ ،

١٥١ ، ٢٨٦ ، ٣١٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢

حديث القمر ٧٤ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،

١٤١ ، ١٥١ ، ٢٢٨ ، ٣٥٠

الديوان ٨٦

ديوان الأعشاب ٢٣٢

ديوان حافظ ٤٨

ديوان الرافعي ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٨٣ ،

٢٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩

ديوان العقاد ١٩٠

ديوان المعاني ٢١٠

ديوان الماسحي ٢١٨

نشيد سعد زغلول ٨٣ ، ٣١٨ ،
٣٥٠

النشيد الوطني ٨٦ ، ٣٥٠

نهج البلاغة ٣٣

وحى الأربعين ١٦٦ ، ١٩٦

وحى القلم ٤ ، ٩٦ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٧٣ ،

٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ،

٣٥١ ، ٣٤٧

المخصص ٢٢٦

المساكين ٧٧ ، ٧٩ ، ٣٥٠

مصر الشاعرة ١٨٠

المعركة : تحت راية القرآن ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ،

١٩٢ ، ٣٥١

مكتبة القصبي ٦٨

ملكة الإنشاء ٦٤ ، ٧٤ ، ٣٥٠

الملاح التائه ٢١٨

تمت الفهارس

